محاضرات فى

مصادر التراث العربى

لطلاب قسم الوثائق والمكتبات

الفرقة الرابعة



محاضرات فى
مصادر التراث العربى

محاضرات فى

مصادر التراث العربى

لطلاب قسم الوثائق والمكتبات

الفرقة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

درجـــت التقاليد الجامعية على أن يكون بيد الطالب نص يمثل الركيزة الأساســية ونقطـــة الانطـــلاق فى كل مقرر دراسى وفاء لمتطلبات العملية التعليمية.

ولما كانت الكتب المتداولة فى موضوع التراث العربى قليلة رغم أهمية الموضـــوع فقــد كان الاعتماد فى تدريس هذا المقرر على كتاب "**التـــراث العربـــى الإسلامى**" لمؤلفه د.حسين محمد سليمان (الأبواب٣،٢،١) وكذلك كـــتاب "**المراجع العربية**" لمؤلفه سعود الحزيمى (ص ص٦٣-١١٤،٧٢-١٥٩،٢٢٥-٢٥٩،٤١٠-٤٥١)

ونظـــرا لعـــدم توافر نسخ من هذين الكتابين، فأولهما نفذت طبعته ولم ينشـــر مـــرة أخرى، وثانيهما مطبوع فى المملكة العربية السعودية ويتعذر علـــى الطلـــبة الحصول عليه، لذا رأينا تيسيرا على الطلبة اقتباس الأجزاء التـــى تهم الطالب لتكون تحت يده مع حفظ كافة الحقوق الخاصة بالمؤلفين الأصـــليين علمـــا بـــأن الأجزاء المقتبسة قد أخذت لأغراض التدريس فقط وليست للنشر العام.

والله من وراء القصد

القسم الأول
التراث العربى

- المحاضرة الأولى: التعريف بالتراث العربى
- المحاضرة الثانية: أهمية التراث العربى
- المحاضرة الثالثة: منهج التراث العربى الاسلامى

*هـذا الجزء مقتبس من كتاب "التراث العربى الإسلامى" لمؤلفه د.حسين محمد سليمان (الابواب٣،٢،١)

المحاضرة الأولى

التعريف بالتراث العربى الإسلامى

التراث

التراث العربى

التراث العربى الاسلامى

قضية التراث

سقطات بعض العلماء

الرد على ابن خلدون

عروسه المربى والمشيخة

مكانة الدراسات الحديثة

التراث بمعناه الواسع ، هو ما خلفه السلف للخلف من ماديات ومعنويات أيا كان نوعها . وبمعنى آخر ، هو كل ما ورثته الأمة وتركته من انتاج فكرى وحضارى ، سواء فيما يتعلق بالانتاج العلمى ، بالآداب ، بالصور الحضارية التى ترسم واقع الأمر ومستقبلها . وهـذا يعود الى بدء المعرفة الانسانية للكتابة بأشكالها ، وأساليب التعبير بأنواعها ، سواء فى المخلفات الأثرية أو فيما سجل فى وثائق الكتابة .

والذى يعنينا فى هذا البحث هو التراث الفكرى المتمثل فى الآثار المكتوبة سواء كانت أثرية حجرية أو مثلها ، أو كانت على شكل كتب أو ملفات وما شابهها ، وهى التى حفظها لنا التاريخ كاملة أو مبتورة ، أو بمعنى آخر ما يتعلق بتراث الأمة من المخطوطات ومن اللوائح الفنية التى تبرز حضارة الأمة ، وتدل على تراثها الماضى ، وتحديد التراث أو مفهوم التراث بهـذا المعنى ينحصر فى المخطوطات وما يدور حولها مما كتبه الأقدمون ، وهو ما تعارف عليه البعض بالمعنى الخاص للتراث ، ويبحث عنه العلماء والباحثون فى عصرنا الحاضر .

ومما سبق فان المشتغلين بالتراث العربى الآن ، يرون أن التراث هو المخطوطات العربية من نتاج فكرى ، وان كان المعنى يتسع أصلا لكل النتاج الحضارى .

وبحثنا هذا يختص بموقف التراث العربى الاسلامى من التراث الفكرى الحضارى المكتوب والثرى ورثته الانسانية جمعاء ، ودوره فى تطوير هذا التراث والاضافة اليه ، خاصة فى التطور الحضارى الحديث الذى بدأ مع فجر العصر التاريخى الحديث ، هذا العصر الذى أصبح الآن أيضا تراثا للمعاصرين .

ونحن نرى أن العلوم الحديثة التى خرجت من التراث الحديث ، قد استندت ــ تأكيدا على الدراسات والأبحاث ــ على التراث العربى الاسلامى وعلومه ، بل لا نكون مبالغين اذا رأينا أن كافة العلوم الحديثة والمعاصرة ــ بلا استثناء ــ قد استقت أصولها وجذورها من هذا التراث مثل الذرة ، والحسابات الالكترونية ، والصعود الى القمر ، فضلا عن العلوم العملية التى تخدم الانسان مباشرة كالطب والهندسة وغيرها .

ونضرب مثلا : بأسلوب البحث العلمى الحديث . فالبحث العلمى يقوم أساسا على استنادات سابقة ، ومن الأمانة العلمية أن يعيد الباحث ما حصل عليه من آراء الى صاحبها صراحة ، أى الاشارة الى المصدر أو المرجع الذى رجع اليه الباحث فى نقطة من نقاط الدراسة . واذا رجعنا الى تراثنا العربى الاسلامى . الا نرى أن هذا راجعا الى رواية الحديث أولا ، ثم الى كتب التراث الأخرى التى كانت تبدل بعبارة (قال فلان) أو (وذكر فلان) أو (يعتبر فلان) .

* * *

وبعد أن انتهينا من التعريف الخاص بالتراث ، فيجب أن ننتقل الى موضوعنا الأساسى وهو (التراث العربى الاسلامى) .

وحتى تكون الرؤية واضحة أمامنا فمن الأهمية الضرورية معرفة معانى الكلمات المكونة لهذه التسمية ، وتطورها ، والأسس اللغوية التى استندت عليها ، وما تشتمل عليه من أهداف ومعانى .

التراث

وكلمة التراث جاءت فى المعاجم تحت مادة « ورث » وهو فعل ثلاثى ، وتدور معانيها حول حصول المتأخر (الخلف) على نصيب مادى أو معنوى ممن سبقه (السلف) : سواء كان السلف والد أو قريب أو موص أو نحو ذلك(١) .

وأهم وأبرز وأقدم الكتب التى وردت فيها الكلمة هو القرآن الكريم ، كتاب الله الكريم فقد جاء فى محكم التنزيل .

١ ـ « وورث سليمان داود(٢) » والمقصود والتفسير لهذه الآية هى وراثة العلم ، وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم ، ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث التى يذكره القرآن ، ولم يقصد به المال أيضا ، لأن وراثة المال تكون لجميع أولاد سليمان وليس لابن واحد خاصة وأن له تسعة عشر ولدا . والعلم هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر(٢) ، وهكذا أخذ داود وهو الخلف من سليمان وهو السلف ، العلم ، أى أخذ داود تراث سليمان من العلم والحكمة .

---

(١) عبد السلام هارون : التراث الاسلامى ، ص ٣ .
(٢) الآية رقم ١٦ من سورة النمل ، والتفسير لسيد قطب : فى ظلال القرآن ، جـ ٥ .

٢ ـ « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب (١) » والخلف بفتح اللام من يخلف غيره بالخير والخلف بسكون اللام من يخلف غيره فى الشر . ومنـه قوله تعالى « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ، وهذه الآية (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب) والمعنى بصفة عامة خلف من بعد ذلك الجيل ـ الذى فيهم الصالح والطالح ـ خلف آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم . ولكنهم لم يتكيفوا عليه ، ولم تتأثر قلوبهم ولا سلوكهم . بل حولوه الى ثقافة وعلم يحفظ ودراسة خاصة ، وبذلك نحـو بعقيدتهم نحوا آخرا بعيدا عن الحق ، فكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة ، يدرسونه ليتأولوا ، ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، وهـل آفة هؤلاء القوم الا الذين يدرسـونه دراسة دون أن يأخذوه عقيـدة ، ولا يتقـون الله ولا يرهبونه .

وهكذا ورث بنو اسرائيل الكتاب (التوراة) والعقيدة ، ولكنهم لم يستفيدوا بما جاء فيها وحولوه الى أمر آخر ، أى أننا نستنتج من هذا معنى التراث ، وأن هذا التراث الذى كان لبنى اسرائيل تراث عقائدى ، فانصرفوا عنه فضلوا ضـلالا كبـيرا .

٣ ـ « ان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شـك منه مريب (٢) » . والآية تحدد هؤلاء بأهل الكتاب من اليهود والنصـارى ، وهؤلاء ممن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأجيال التى ورثت الكتاب والذين تفرقوا وفرقوا من اتباع كل نبى ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ، اذ كانت الخلافات مثارا لعدم الجزم بشىء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى مذاهبهم واختلافاتهم ، فوقع لهم أشد الحيرة والريبة من أمر دينهم وكتابهم ، وصاروا مقلدين لآبائهم وأسـلافهم الذين تفرقوا بعد أن قامت عليهم الحجج والبراهين من النبى المرسل اليهم بظلمهم وتعديهم وجـدالهم وعنادهم .

وعلى ذلك فهذا الجيل ورثوا وتوارثوا وورثوا فكر آبائهم المنحرف ، رغم أنهم ورثوا الكتاب اليقين ، أى أن تراثهم تراث ضلال وانحراف وعناد ، وبعد عن اليقين ، وما جاء بالكتب المنزلة عليهم .

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة الاعراف .

(٢) سورة الشـورى آية ١٤ .

٤ ـ « وتأكلون التراث أكلا لما (١) » ، أي وتأكلون الميراث أكلا شديدا وكان العرب فى الجاهلية يأكلون ميراث النساء والأولاد الصغار أكلا شرها جشعا . أي يأخذ نصيبه ونصيب غيره ممن لا حول لهم ولا قوة ، ولا يسألون عن ما اذا كان حلالا أو حراما . ويعتقدون أو يزعمون أن المال ـ وحتى وان كان موروثا ـ لا يستحقه الا من يقاتل .

والتراث هنا تراث مادي ، فضــلا عن العادة تراث العادات ، أي عادة أكل الميراث عادة توارثها الجاهليون أبنا عن أب .

واذا انتقلنا الى المعاني فى اللغة ، ومما شاع استخدامه منها ، فيقال مثلا فلان ورث العلم عن أبيه ، أي أدركه عن طريق أبيه الذى كان عالما أيضا .

فاذا تصفحنا أدب العرب القدامي ، خاصة فى العهد الاسلامى ، نجد أنه يشتمل على التاث الفكرى والمادى ، فهذا سعد بن ناشب ، وهو شاعر اسلامى ، كان بلال بن أبى بردة قدم داره لأنه أصاب دما فى قوم ، فأنشد يقول :

فان تهدموا بالغــدر دارى فانها   تراث كريم لا يبال العواقبا (٢) .

الخلاصة ، أن اللغويين والقواميس أجمعوا على أن التراث ما يخلفه الرجل لورثته وأن تاءه أصلها الواو : أي (الوراث) ، وساقوا أمثلة عديدة عن مثل هذا الأمر وهو تحول الواو الى تاء فى كلمات من اللغة العربية .

وفى العصر الحديث عادت الكلمة الى معناها (الوراثة) ، ولكن اقتصرت على الجوانب الفكرية والحضارية ، فقد جاء فى (معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب) أن التراث Legacy ماخلفه السلف من آثار علمية وأدبية مما يعتبر نفيسا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه ، مثال ذلك الكتب المحققة وما تحتويه المتاحف والمكتبات من آثار وكتب تعتبر جزءا من حضارة الانسان . وكانت آثاره واشعاعاته فى الفكر المعاصر ، ووضح فى نتاجهم .

وعلى ذلك فما جاء فى المعجم الأدبى هو أن التراث يتكون من :

---

(١) سورة الفجــر . آية ١٩ .

(٢) محيط المحيط : مادة حدث .

١ ـ ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون وعلوم في شعب من الشعوب ، وهو جزء أساسى من قوامه الاجتماعى والانسانى والسياسى والتاريخى والخلقى . ويوثق علائقه بالأجيال الغابرة التى عملت على تكوين هذا التراث واغنائه .

٢ ـ فنيا : يبرز فعل التراث فى آثار الأدباء والفنانين ، فتصبح هذه الآثار محصلا لانصهار معطيات التراث وموحيات الشخصية الفردية .

وحينما يقال (تحقيق التراث) يراد من كلمة التراث فى هذه العبارة الكتب المخطوطة التى ورثها السلف للخلف .

وامتدت معانى الكلمة فيما بعد ، فصارت تشمل أى تراث كان ، دون تحديد حدود معينة لتاريخ ، فكل ما خلفه مؤلف من انتاج فكرى بعد حياته طالت تلك الحياة أو قصرت يعد تراثا فكريا . وعلى ذلك أصبح شعر البارودى وشوقى وحافظ ابراهيم ، وحديث عيسى بن هشام ، وآثار المنفلوطى والمازنى والعقاد ــ تراثا له حرمته التاريخية ، وله قدره ووزنه الأثرى .

التراث العربى

فاذا انتقلنا الى التراث العربى ، فهو ما كتب باللغة العربية ، وانتزع من روحها وتيارها قدرا . واذا كان المقصود التراث العربى قبل الاسلام يمكننا القول أنه كان هناك تراثا عربيا بلغة قريش أو غيرها قبل الاسلام ، وهذا التراث الذى اشترك فيه أهل الحجاز بزعامة ولغة قريش ، فضلا عن ممالك اليمن ، وكذا ممالك الشمال فى الشام وتخوم العراق وهم الغساسنة والمناذرة .

لقد أحب العرب الكلمة الطيبة ذات المعنى الفياض ، وكانت تسحرهم البلاغة والفصاحة ، فلما نزل القرآن أعجزهم بلاغته ، فأحبوه واحترموه من قبل اسلامهم ، بل كانوا يتجسسون ليلا لسماعه على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

والتراث العربى المكتوب والمسموع والمحفوظ قبل الاســلام يعتبر مدخلا للتراث الاسلامى ، فليس هناك أمر يولد من فراغ ، إشترك فى تدوينه كل من يتخذ العربية لغة تعبير وثقافة وكتابة بل لا نكون مبالغين اذا قلنا اتخذها علما أيضا ، ويتعامل بها كجزء من شخصيته وشخصية مجتمعه .

حقيقة أن الغموض يسدل أستاره على بداية التدوين والتســجيل ، وكذا المدونات قبل الاسلام ، ولكن يتتبع الأخبار والحقائق التى ناقشت تدوين تاريخ

الجاهلية وأشعاره نجد أن أقدم أخبار ومدونات هذه الفترة كتابه لا يتجاوز القرن السابق لمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم . الا أنها — للأسف — لم تذكر أسماء الكتب المتداولة فى هذا العصر . وكثيرا ما نجد فى المصادر المدونه بعد الاسلام ، أن شاعرا ما من شعراء الجاهلية كان ممن يقرأ الكتب القديمة أو مجمعها . ومن أمثلة ذلك أمية بن أبى الصلت الثقفى من أهل الطائف المجاورة لمكة ، والتى كانت بينهما علاقات خاصة قوية ، ولأمية هذا شعر عرفه أهل الحجاز ، ولا يستبعد أنه سجل يقول فيه (١) :

أنت الذى من فضل ومن رحمه بعثت موسى رسولا مناديا

فقلت اذهب وهارون فادعوا الى الله فرعون الذى كان طاغيا

وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى اضعاف حوت لياليا

وأمية هذا الذى أدخل كلمات والفاظا جديدة الى اللغة العربية ، استعملها العرب من بعده ، وعلى سبيل المثال (باسمك اللهم ، وساهور ، وسلطيط) (٢) .

وتعنى الكلمات الكتابة ، أما الألفاظ يمكن أن يطلق عليها الشفاهة والتلفظ .

وسوف نناقش أمر الكتابة والقراءة فيما بعد فى موضعها بشىء من التفصيل يؤكد وجود وثائق ومدونات بل وبعض السجلات (ولو انها بها مبالغة) فى الفترة السابقة للاسلام (٣) .

فمثلا فى اليمن ، لا يعنى وفرة السجلات المنقوشة على الحجر وغيره أنه لم تكن هناك سجلات أخرى منسوخة على مادة أيسر كالبردى أو الرق أو سعف النخيل . فقد روى الدينورى فى كتابه الأخبار الطوال أنه فى أواخر عهد الدولة الأموية كتب رجل يدعى الكرمانى الى حفيد من حفدة أبرهة بن الصباح آخر ملوك حمير — وكان مستوطنا فى الكوفة — يسأله أن يوجه اليه بنسخة حلف اليمن وربيعة فى الجاهلية ليجدده ، فأرسلها هذا اليه ، فقرأها الكرمانى على

---

(١) ابن هشام ، سيرة النبى ، قسم ١ ، ص ٢٢٨ .

(٢) ابن هشام : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(ساهور : غلاف القمر يدخل فيه اذا كشف ـ سلطيط : القاهرة) .

(٣) حسين سليمان المدخل الى دراسة علم التاريخ ص ١٣٠ .

أشراف اليمن وعظماء ربيعة ، وكانت النسحه المكتوبة بالشعر المنثور ، وأشارت الى عبارات مختلفة فى المعاهدة . وكانت تبدأ بهذا الدعاء : باسم الله العلى الأعظم. الماجد المنعم » وشهد « الله الأجل ، الذى ماشاء فعل عقله من عقل ، وجهله من جهل » وقد كتب الحلف عند ملك اسمه : نبع بن ملكيكرب (١) فى الشهر الأضم ، وهذا يمنى ومقرى .

وقرأ فى زبر حمير وكتبها .

أما فى شمال الجزيرة . فالغساسنة فى الشام كتبوا كتبا مكتوبة بالعربية المشوبة ببعض الآرامية ممن سبقهم ، ومن الشعراء والعرب الذين يزورونهم وتشمل هذه الكتب على ثقافة أدبية عالية ، بل ومما لاشك فيه أنهم أضافوا اليها.

وعثر على كتب مدونة فى الحيرة التى يحكمها المناذرة ، وهذا لا مراء فيه (٢).

فليس من المعقول أن تكون هناك مدونات فى الشمال والجنوب للجزيرة ، والرحلات تجوب منها ، فضلا عن الرحلات الرئيسية الأساسية التى تقوم من الوسط عامة والحجاز خاصة ، ولا يكون هناك مدونات فى الحجاز . ونذكر على سبيل المثال المعلقات السبع من الشعر التى علقت على أستار الكعبة ، والتى واجهت كثير من التشكيك . ولكن هناك مثال أقوى وأكثر ثقة . وكانت خلال السنوات الاولى من الاسلام فى مكة ، وهو وثيقة جماعية لغالبية القبائل والبطون المكية وحلفاؤهم ، فكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، الا ينكحوا اليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبعونهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم(٣) . وسواء كان التعليق داخل جوف الكعبة أو خارجها فهذا دليل على وجود الكتابة فى الحجاز .

ولا يعقل أن تكتب القبائل مثل هذه الصحيفة أو تقوم بهذا العمل من فراغ وانما كانت هناك سوابق لصحف أخرى أو مدونات أخرى كتب عليها الشعر والمعاهدات التجارية وبعض الوصفات الطبية التى كان يستخدمها الحارث بن كلده بعد أن ينقلها من بلاد أخرى .

---

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧

(٢) جب : دراسات فى حضارة الاسلام ، مقال خواطر فى الادب العربى ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة : قسم ٢ ، ص ٣٥٠ .

الخلاصة أن للعرب قبل الاسلام تراثا على شكل مدونات مكتوبة ، وأنها كانت محفوظة فى أماكن غير كثيرة ، بل وبعض منها كان فى الصحراء حيث يحتفظون بها ليرووها حسب احتياجاتهم ولكن رغم قلة هذه المدونات وحصة ما يدون الأشعار الجاهلية ، فان الغالبية منه ، قد محيت أو مزقت خوفا من الله ، وتنفيذا لتعليمات الرسول التى نهى عن كتابة شىء سوى القرآن .

التراث العربى الاسلامى

أما عن التراث العربى الاسلامى ، فهو التراث الذى يسجل بالعربية ، ويتخذ من الاسلام منهجا ، ويبنى دراساته على التعليمات الاسلامية ، يتأمل فيما جاء فى القرآن ويتبع أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويفكر بما فيه خير للمسلمين خاصة والانسانية عامة ، ويسجلها فى كتب هى التراث المكتوب .

ولقد تعرض تعريف التراث العربى الاسلامى لمناقشات كثيرة ، أثارها أعداؤه بفعل التعصب ، أو ابناؤه المتأثرين بأفكار أعدائه ، أو المهتمين به بهدف فلسفته والوصول به الى نتيجة فلسفية .

وقد عرض أحد الباحثين (١) قضية التعريف بايجاز مبتدأ عرضه بسؤال يشترك فيه جميع من أشرنا اليهم وان اختلفت أغراضهم وأهواؤهم ، وهو : هل التراث عربى أم اسلامى فاذا كان الرد متسرعا بالقول أنه عربى ، فتح ذلك لبعض المناقشين الرد بتحقيق هدفه ، فيستنكرون ذلك ، وحجتهم أنه اشترك فى صنعه هنود وفرس وأتراك وبربر ، حتى الروس عدوا الامام البخارى روسيا . ثم استطردوا فى بناء النظريات المختلفة لهدم قيام العرب بالحضارة وانتاجهم للتراث ، فيقول هؤلاء : أن جميع المشتركين فى صنع حضارتنا من هؤلاء العجم ، بل ادع آخرون أنهم صانعوا الحضارة كلها . فلما واجهناهم بسؤال أكثر حجة ، وهو لماذا لم يصنعوا لأنفسهم حضارة ترفعهم الى مستوى انسانى ؟ قرعتهم الحجة وسكتوا على مضض .

والمقصود بعربى هو عروبة اللغة لا العرق ، فجميع من ذكر شاركوا ودرسوا بالعربية ، ولذلك كتبوا بها ، ولم ينظروا الى جنس أو مذهب ، فالاسلام جب هذا التقسيم ، وقطعه فى جميع الشعوب القديمة التى حررها ، وفى نفس الوقت أشاع

(١) احمد سعيدان : مقال « التراث العربى ، لماذا نحققه وكيف ؟ » ـ مجلة مجمع اللغة العربية الاردنى ، العدد المزدوج ٢٢ ـ ٢٤ ، السنة السابعة ، سنة ١٩٨٤ .

الاسلام اللغة العربية التى لونت تلك الشعوب بلون فكرى واحد بعد أن اعتنقوا عقيدة واحدة ، هى عقيدة التوحيد ، وصار هذا الفكر منهاجا واحدا مهما تعددت نشاطاته ، ألا وهو الفكر العربى الاسلامى (١) . والذى انبثق منه الحضارة العربية الاسلامية ، والحضارات لا تتميز بتميز اللغات ، لأن اللغة لم تكن فى يوم من الأيام هوية الفكر ولا العلم ، والا لانتفت عالمية التراث أيا كان وصار اقليميا . واللغة العربية صارت عالمية بعد أن انتشرت فى عالم شتات متعدد اللغـات ، فاندحرت أمامها اللغات الاقليمية فى فارس والشام ومصر والمغرب والاندلس ، واستخدمها المفكرون فى كل هذا العالم بعد أن اعتنقوا الاسلام الذى نزل كتابه المقدس باللغة العربية ، فالذى وضع اللغة فى مكانها العالمى المميز هو الاسلام .

وعرض رأى آخر من آراء التعرض لتعريف التراث العربى الاسـلامى أنه تراث اسلامى ، ولكن هذا الرأى تعرض لانتقادات أيضا ، هو أنه هنـاك من غير المسلمين من خدم الفكر الاسلامى فى أوائل عهده وذلك بنقل الكتب الغير عربية الى اللغـة العربية ، ومنهم فيما بعد قاموا بالعكس وذلك بنقـل الفكر العربى الاسلامى الى الفـكر الغربى أو اللغات الأخرى . ولـكن التفكير والرأى بهذا الأسلوب يعتبر قاصر غير علمى أو حيادى حيادية العلم .

ويرى رأى آخر من الآراء المنتقدة أن انتساب الحضارة الى الاسلام يخرج غير المسلمين أن يكون لهم اسهام فيها ، كما أن التسمية العربية تخرج ظاهرا من كتب التراث حال كتب بلغات أخرى غير العربية مثل الفارسية والأردية ، والتركية وغيرها من اللغات التى اعتنق أصحابها الاسلام وكتبوا مؤلفاتهم بلغاتهم .

وعلى ذلك فان التراث العربى الاسلامى هو أكبر التعريفات شمولاً وتخصصا شمولا من حيث جماعيته للعربية والاسلام ، وتخصصا لأنه يخص فكر حضارة معينة محدد مقوماتها ومناهج دراستها وتفكيرها . وفى ذلك قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . « العرب مادة الاسلام » ولعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب الأمر فى مبدئه ، وكان تعبيره أدق فى تحديد الحضارة العربية الاسلامية ومن ثم التراث العربى الاسلامى .

---

(١) عبد السـلام هارون : التراث العربى ص ٧ .

والتراث العربى الاسلامى ينتسب الى العربية لغة وتعبيرا ، فكرا ومكانا جغرافيا ، فى وقت كان العرب وعاداتهم هم العالم المضىء والمشع حضارة ، كما ينتسب الى الاسلام عقيده وفكر ، مستخدما المنهج الذى وضعه له ، والتعليمات التى جاء بها فى معايشة أهل الكتاب جميعا ، ومفاضلة الأتقياء أيا كان أجناسهم أو مكاناتهم الاجتماعية دون تمايز ، أى من يعيش على العالم الاسلامى الذى يقع تحت راية الاسلام مهما بعدت الشقة أو قربت ، ومهما اختلفت جغرافيا .

نصل بذلك الى أن التراث العربى الاسلامى مفهوما واسعا وتعريفا واضحا ، فهو كل نتاج الحضارة العربية الاسلامية من علم ومن فكر وفن .

وعلى ضوء ما سبق نجد أن التراث العربى الاسلامى يجرى فى أبعاد زمانية : ومكانية ، ولغوية . وهى أبعاد مترابطة أشد الارتباط ان لم تكن ممتزجة (١) .

فمن الناحية الزمنية يضم التراث نتاج القرون التى شهدت النشاط العقلى للأمة العربية الاسلامية من بدأ التسجيل ، سواء من قبيل الهجرة أو من بعدها ، وحتى يصل الى الوقت الذى تنتهى اليه الآراء بتوقف انتاج التراث وهى قضية تستحق الطرح من المختصين ، وان رأى البعض انه حتى القرن العاشر الهجرى ، أو من نهاية العصور الوسطى (٢) .

وعلى الناحيتين اللغوية والمكانية فيمكن أن يشمل التراث كل ما أنتجه سكان الدولة أو العالم الاسلامى فى أقصى اتساع لهم ، وقد كانوا أجناسا ولغات وديانات متعددة . وهنا يمتزج البعد المكانى بالبعد اللغوى فبعض المسلمين ــ كما سبق الاشارة ــ ألف أو كتب بلغات أخرى غير العربية كالفارسية والأردية والتركية ، كما أن بعض النصارى واليهود من القاطنين فى بلاد الدولة الاسلامية كتبوا مؤلفاتهم بالعربية فى علوم مثل : الطب والفلسفة والكيمياء والفلك وغيرها ، وكانت اللغة العربية اللغة العلمية والأدبية التى نشرها الباحثون العرب ، لغة التعبير والتدوين والكتابة بصرف النظر عن الأصول العرقية أو الاعتناق الدينى لسكان الدولة الاسلامية ، فكتب بها المسلم والنصرانى ، وكتب بها العربى والفارسى والتركى والهندى وغيرهم . وظل الحال كذلك حتى ظهرت من جديد

(١) عبد الوهاب أبو النور : قضية التراث ، مجلة الدائرة ، العدد ٢ سنة ١٩٨٣ ، ص ١٨١
(٢) د. عماد الدين خليل : موقف ازاء التراث ، ص ٨ .

العصبيات القديمة ، لغوية كانت أم عرقية ، وبدأت تطفو من جديد النزعة الاقليمية بعد أن كان سكان الدولة منصهرين . فظهرت مؤلفات لعلماء مسلمين بلغات أخرى ، وأنتج فى هذه الأقاليم انتاج يعد فرعيا للانتاج باللغة العربية أو مترجما عنها ، وناقلا عن علمائها . لكن يمكننا القول أن الانتاج الفكرى العربى الاسلامى هو التراث الأصيل والأساسى ، والمصدر الرئيسى للجميع ، خاصة فى الموضوعات العربية والاسلامية أما الباقى فانه قليل وناقل ، ويعتبر أحد شعيراته الدموية .

وحسبا لهذه القضية أن يكون التراث عربيا اسلاميا ، أى التراث العربى الاسلامى ، وان كل من العربى والاسلامى فى هـذا التركيب يجب الآخر . وفى هذا وضح مقالة عمر بن الخطاب حين قال : « العرب مادة الاسلام » . وبمعنى أدق فكلاهما صنوان لأن من يريد أن يعرف أسرار التراث ومفهوماته ويتزود بما جاء فيه عليه قراءة اللغة العربية ووعيها والتزود أساسا بقراءة القرآن الكريم ليعرف تعليماته فى أمر المنهج الاسلامى .

ومناقشة هذه القضية جاءت أصلا من حملات المستشرقين العدائية المنظمة فى أى شكل كان ــ سواء جمعيات أو مؤتمرات أو مقالات ، أو أبحاث .. أو ... الخ ــ فهم يهدفون من وراء ذلك انتقاص حق العرب فى التأليف والمشاركة فى رصيد ثروة التراث ، ويستندون بذلك الى أن الذين ألفوا تسموا بأسماء بلداتهم .

قضية التراث

ولكن هناك من العلماء المسلمين تصدوا الى هذه المفتريات الاستشراقية ، وعلى سبيل المثال كتب محمد عزة دروزة كتابه « عروبة مصر قبل الاسلام وبعده[1] » . وكتب الدكتور ناجى معروف ــ رحمه الله ــ مجموعة من الكتب عن « عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الأعجمية » وأختص بالجناح الشرقى من الدولة الاسلامية مثل خراسان[2] ، وأيضا آخرين تصدوا لمثل ذلك فى الجناح الغربى (والمغرب الاسلامى) ، وقد حدد الدكتور ناجى فى كتابه :

أولا ــ أن العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية فى المشرق الاسلامى مثل فارس وخراسان وأذربيجان وما وراء النهر وخوارزم وبلاد الجزيرة ــ كثيرا منهم

(١) الطبعة الثانية ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م ، عن المكتبة العصرية ، بيروت .

(٢) المجموعة باسم « عروبة العلماء والمنسوبين الى البلاد العجمية » نشر وزارة الاعلام العراقية / بغداد / وذلك ابتداء من ١٩٧٦ .

يرجعون فى أصولهم الى أنساب عربية صريحة ومنهم من أنجب عددا كبيرا من العلماء والأدباء الذين انتشروا فى أقطار المشرق الاسلامى وبلدانه كالبيت السمعانى ، والدوحة الصاعدية ، وآل الجوينى ، والعلماء البكريين وغيرهم ممن ينتسبون الى المواطن الأعجمية .

ثانيا – أن كثيرا من علماء العرب ينحدرون من أصلاب الخلفاء والأمراء وغيرهم ممن عاشوا فى المشرق الاسلامى هم وذراريهم ، وانصرفوا الى العلم منذ أيام الخلافة الأموية وشطرا كبيرا من الخلافة العباسية ، وفى عهد الدول الاسلامية التى قامت ونشأت فى المشرق ، ونبغوا فى مختلف أنواع المعرفة بعد أن انقطعوا الى الدرس والتدريس ، والرحلة فى طلب العلم والاستزادة منه واهتموا بمجالس الاملاء والاستملاء فى المساجد ، وكذا فى التأليف والتصنيف ، وتثبيت قواعد الشريعة الاسلامية .

ثالثا – سيادة العرب فى البلاد المحررة – سواء فى المشرق الإسلامى أو المغرب الاسلامى – وخاصة فترة الراشدين والخلافة الأموية وشطرا كبيرا من الخلافة العباسية . وكانت اللغة العربية هى السائدة فى سائر نشاطات العلم والحياة . ويضاف الى ذلك مجالس العلم فى المساجد وغيرها من دور العلم التى تستخدم اللغة العربية ، فضلا عما ساد البلاد من الخط العربى وما تطور عنه فيها وكانت سيادة العرب ناجمة عن أنهم قاموا بالفتوحات الاسلامية الأولى وما صحبهما وتبعها من هجرات عربية دائمة استمرت حتى العصر الحديث ، هذه الهجرات سجلها المؤرخون القدامى من صانعى التراث مثل تقى الدين أبو العباس المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) الذى كتب كتابا بعنوان « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب[1] » . كما شغل أمر الهجرات الباحثين والعلماء المسلمين المحدثين أمثال د. عبد الله خورشيد البرى الذى كتب كتابا باسم « القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاث الأول للهجرة[2] » .

ويلاحظ الباحث أن كثيرا من المساجد التى شيدت فى المشرق الاسلامى خاصة فى البلاد المحررة عامة ترجع الى أسماء عربية ، أو أسماء لقبائل العربية ،

(١) تحقيق ابراهيم عابدين ، نشر القاهرة ، ١٩٧١ م

(٢) نشر عن طريق دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧ م .

وهى البلاد التى نشر العرب فيها الاسلام وسكنها . وتحدثوا بالعربية ، بل أن العرب أطلقوا على مواطنهم الجديدة أسماء مواطنهم التى كانوا يسكنونها فى الجزيرة العربية أو أسماء قبائلهم التى ينتسون اليها حتى غدت أسماء القبائل أسماءا لمدن مشهورة .

كل ذلك يثبت أن العرب سادوا فيما حلت قبائلهم فى عدة عصور وأن العربية غدت لغة الدين والسياسة والعلم والتدوين والمراسلات الى جانب كونها لغة التخاطب .

سقطات بعض العلماء

ومن المؤسف أن يقع فى هذه السقطة علماء قدامى ومحدثين مثل ابن خلدون، وحاجى خليفة ، ومن تابعهما . وبنظرة بسيطة الى أسماء هؤلاء العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية الاسلامية ، يتضح أن جلة حملة العلم فى العصور الاسلامية من العرب لا من العجم ، ولا يعنى ذلك أننا نغمض حق العجم الذين أسلموا وحسن اسلامهم وأضافوا الى العلوم الاسلامية ، خاصة ، والحضارة الانسانية عامة . واننا لننفى تعميم سقطات الباحثين القدامى الذى آخذها المستشرقون من أن جلة حملة العلم كانوا من العجم .

ولكن ما الذى دفع الى أن يتعرض تراثنا العربى الاسلامى للهجمة الشرسة الخبيثة من المستشرقين ، سواء الذين يعيشون داخل الأديرة ، أو تقف وراءهم الكنيسة بمذاهبها المختلفة أو غيرهم ممن يتحاملون على العرب ، أو المتأثرين بأفكارهم فى الوطن العربى وغيرهم .

الواقع أن هؤلاء كانوا يخدمون الأهداف التالية :

أولا — عدائهم للدين الاسلامى التى درجت عليه الكنيسة منذ نهايات العصور الوسطى ، هذا العداء كان صراحة من واقع الافتراءات على النصوص التى تتحدث عن الاسلام . ومحاولة مناصرة أحد المذاهب الاسلامية على سائر المذاهب ، أو مناصرة مذاهب الشيعة على مذاهب السنة ، أو محاولة التعظيم فى مذهب أصبح شبه مندثرا كمذهب الخوارج ، وكل ذلك بأمل زرع العداء التعصبى بين المذاهب الاسلامية ورجالاتها ، وكذا ابراز الحركات الهدامة التى ظهرت خلال العصور الاسلامية بصورة ايجابية مطلقين عليها أوصاف من صنعهم أو وضعها تحت المذاهب السياسية الحديثة ، وتطويعها فكر هذه الحركات والمذاهب ليتفق فى أشكالها .

وأحيانا بل وكثيرا يتخذون العداء بشكل مستتر ، تحت وضع شروح مختلفة بزعم الدراسة العلمية التجريبية ، واعطاء الفروع المتفرعة عن بعض المذاهب الاسلامية أهمية ودراستها أكثر من حقها ، ومن أهميتها ، والعمل على نشرها بأمل تفتيت وحدة العالم الاسلامى وبث النعرة التعصبية به ، بعد أن يكسبوا تلاميذ لهم فى الأقطار العربية ، درسوا على أيديهم ، ويكون هؤلاء التلاميذ مراكز وعمد للفكر الاستشراقى العدائى للاسلام والعرب .

ثانيا ـ العداء النابع من التاريخ الحديث ، وهو خدمة الاستعمار الذى كان فى فترة مسيطرا على أغلب العالم العربى والاسلامى .

وفى هذا الأمر يحاولون أن يفككوا وحدة العالم الاسلامى عامة والعربى خاصة ، وذلك بتغريب لغة السكان وتحويلها الى مجموعة اللغات اللاتينية بأمل وضع أساس للتفرقة بين وحدة سكان العالم العربى فضلا عن القضاء على الثقافة العربية الاسلامية ، الكبيرة العريقة ، ومن ثم الفكر العربى القائم على الأساس الدينى والدنيوى .

ولقد اتخذ هؤلاء المستشرقون بعض ما قرأوه فى واحد من أعظم كتب تراثنا العربى ، واستندوا فى آرائهم على ما أورده المؤلف العربى الاسلامى الكبير الذى كتب هذا الكتاب ، هذا المؤلف الذى فرض نفسه على فكر العالم كله . سواء فى العصور الوسطى أو الحديثة ـ بمؤلفه وآرائه بما فيها من قيمة ثرية أفادت العلم الانسانى ، وخدمت الانسانية كلها ، فضلا عن أنه فى خلال موضوعات هذا الكتاب وضع أسس علوم جديدة استفاد منها العالم الانسانى عامة . فصارت تقام له المؤتمرات ، ويجرى فى أجزائه بل وجزئياته الدراسات والأبحاث ، وأحنى له الغربيون رؤوسهم اعترافا بموسوعته ؛ الا وهو العلامة الشيخ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) (ت ٨٠٨ هـ) ، خاصة مقدمة موسوعته المعنونة باسم « العبر وديوان المبتدأ والخبر » والتى طبعت منها عدة طبعات فى أماكن متعددة ، وترجم منها ما ترجم الى لغات عديدة ، ومازالت الطبعات تخرج بصور وشروح جديدة ومختلفة حتى أصبح لا يخلو منه أى المكتبات العامة ، والخاصة بالمثقفين والدارسين والقارئين ، بل ومن يفتخرون بملكيتهم لأمهات الكتب النفيسة .

ومما يؤسف له أن بعض من العلماء العرب والدارسين نحى نحو ابن خلدون وفات هؤلاء جميعا ما سيتعرض له التراث من الهجمات استنادا الى آرائهم .

يقول ابن خلدون فى مقدمته « ان حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم من العجم ، لا من العلوم الشرعية . ولا من العلوم العقلية ، الا فى القليل النادر وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى » (١) واستطرديستعرض تأكيد نظريته الى أن وصل الى ما هو أخطر بقوله « فلم يزل ذلك فى الأمصار ما دامت الحضارة فى العجم وبلادهم من العراق وخراسان ، فلما غربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التى هى سر فى حصول العلم والصنائع ، وذهب العلم من العجم جبلة لما شملهم من البداوة ، واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة . ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع وبقى بعض الحضارة فيما وراء النهر (٢) .

الرد على ابن خلدون

أى أن القضية التى يعرضها ابن خلدون تشمل أكثر من موضوع :

١ ــ اقتصار العلم فى العجم .

٢ ــ اقتصار ذلك على أهل العراق وخراسان وما وراء النهر .

٣ ــ ارجاع الحضارة الى بعض الأقاليم دون سواها وكأنها بمعزل عن نهر الحضارة العربية الاسلامية .

والموضوع كما وضعه ابن خلدون أصبح شاقا ، فضلا عن أن تفنيده والرد عليه أصبح أشق فكلمة العرب هذه ولدت أغرب الالتباسات وانتجت أسوأ النتائج ، ومع ذلك فلقد تصدى له أحد الباحثين الشامخين من المحدثين وقبل أن يفند الموضوع درسه دراسة مستفيضة وعميقة ، رجع فيها الى مصادر تاريخية أساسية مؤكدة وغير مشكوك فيما أتت فيها من معلومات ، ثم راجع مصادر أخرى مراجعة الواعى لما تحمله ، ثم قرأ الكثير من العبارات التى وردت فى كل هذه المصادر ليعى ما وراءها ويوضحه ويفسره ، ليستند عليها فى رده ، وبعد ذلك خرج علينا ببحث كبير شيق عميق واعى ، رد فيه على قول ابن خلدون ومن شايع قوله من بعده أمثال حاجى خليفة (٣) الذى أورد فى كتابه حول هذا

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥١٢ .

(٣) كشف الظنون : ج ١ ، المقدمة الخاصة بالكتاب المصنف .

الأمر العبارة : « وان كان منهم العربى فى نسبه ، فهو أعجمى فى لغته ، دون أن يذكر المربى والمشيخة » أى أن حاجى خليفة أراد أن يؤكد على ما جاء فى كتاب ابن خلدون ، بل ويزيد الأمر صعوبة ، لأنه أضاف عنصرا جديدا الى الموضوع الذى أصبح قضية تاريخية من الضرورى دراستها والحكم فيها حكما يستند على المصادر ، ويحفظ للتراث حقه ، وهذا العنصر من شقين :

١ — أعجمية لغة العلماء رغم نسبهم العربى .
٢ — غموض المربى والمشيخة للعلماء .

وقدم الدكتور ناجى معروف — رحمه الله — بحثه الذى رد وفند فيه قول ابن خلدون وحاجى خليفة ومن شايعهما بعدهما ، فى سلسلة من الكتب (١) ، عرض فيها الرد والتفنيد باستفاضة كاملة ، واستعرض أسماء العلماء المسلمين الذين ينتسبون الى مدن مختلفة — سواء فى المشرق أو المغرب الاسلامى — وأعادهم الى نسبهم العربى رغم أعجمية واقليمية أسماءهم المشهورين بها لنا ، وأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن العلم والحضارة من نتاج رواد عرب مسلمين ، وبفكر عربى مسلم ، وأن لغة الحضارة والفكر العربى الذى كون هذا التراث عربى صريح ، وما كتب بالأعجمية ما هو الا ترجمات نقلت عن أصول عربية ، أو محاولة من العلماء الوصول الى العجم الذين كان منهم من لم يتعلم أو يهضم العربية بعد .

وبداية ذى بدء ، فنرد من واقع ما جاء بالبحث على ما جاء بأمر النسب ، فالملاحظ أن العرب هاجروا الى المشرق الاسلامى والمغرب الاسلامى بأسرهم وذراريهم ، ومنهم من تزوج بنساء من أهل هذه البلاد . ولكن هؤلاء العرب عامة والعلماء خاصة كانوا لا يكنون أنفسهم — على عادة العرب — حتى يولد لهم مولود ، وبمرور الزمن بعد الاستقرار كانوا يكنون أنفسهم الى بلدان أعجمية ، لأسباب عديدة سنتناولها فيما بعد ، ولكنهم ينحدرون من أصول عربية . ومن العلماء العرب من استقر فى هذه البلاد ، ومنهم من لم يمكث بها طويلا مثل أحمد بن حنبل المروزى الشيبانى ، وأبو الفرج الاصبهانى الأموى ببغداد ، وآل المراغى بالحجاز ، وآل الشيرازى الحنابلة بدمشق ، وهذه الحركة الدائبة بين

(١) المرجع السابق .

المشرق والقلب والمغرب تدلل على الوحدة الفكرية والثقافية ووحدة اللغة التى تربطها جميعا وحدة الدين .

وبمرور الزمن وبعد انحسار سيادة العرب على كثير من بلدان المشرق تحرفت أسماء القبائل حتى ليظن القارىء أو السامع أنها مسميات أعجميـــة ، فاليزيدية وغيرهم من سكان شمالى العراق يرجعون أسرهم ـــ حتى اليوم ـــ الى ثلاثة أصول عربية هى :

١ ـــ أدانى : وهو تعبير عن « عدنانى » أى نسبة الى عدنان جد الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ ـــ شمسانى : وهو تعبير عن « أبناء عبد شمس » وهو جد الأمويين ، وأخو هاشم بن عبد مناف جد الرسول صلى الله عليه وسلم .

٣ ـــ قانانى : وهو تعبير عن « قحطانى » أى نسبه الى قحطان جد العرب العاربة وفقا لما جاء فى كتب الانساب .

بالاضافة الى هذه التحريفات ، فان هنـــاك كلمات فى النسب تحرفت عن مدلولاتها الأصلية ، وعلى سبيل المثال :

مضرى : وتحرفت هذه الكلمة فى شمال العراق الى « مزورى » .

قيس : وتحرفت هذه الكلمة فى أماكن أخرى من المشرق الاســـلامى الى « كيشى » .

ذمار : وتحرف هذا الاسم الى تعبير فى النسب آخر وهو « زمار » .

وضرار : وكذا تحرفت الى كلمة « زرار » .

واستمرت التحريفات على مدى الزمن حتى صارت غريبة فى النسب وتدعو الى الدهشة ، فكثيرا من الذين ينحدرون من ذرية الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، أكرادا ، أو أتراكا ، أو فرسا ، أو هنودا وما الى ذلك ، وينسون أصولهم الحقيقية فى العرب ، فى أغلب الأحيان (١).

على أن هناك ضوء هام على النسب ، وهذا الضوء الذى ظل عبر العصور الاسلامية ورغم ما مر بها من مؤثرات يحتفظ للنسب العربى الصريح عامة والنسب الشريف خاصة بنقائه ، فضلا عن عبارات اسلامية ، أو كلمات اسلامية فرضت نفسها على القبائل المهاجرة والمهاجر اليها من العرب وغير العرب .

(١) ناجى معروف : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٨٧ ـــ ٨٩ .

فقد استعملت كلمة « الشريف » لكل من ينتسب الى قريش (١) من الأمويين والعباسيين والهاشميين ، والى من كان من ذرية على بن أبى طالب من أبناء الحسن والحسين وجعفر الطيار رضى الله عنهم الى من كان من ذرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، والى ذرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعثمان بن عفان رضى الله عنه ، ونجد ذلك فى معظم كتب التراجم .

أما الكلمات التى ظلت مستعملة :

سيدى المولى : فى شمال افريقيا تعنى رئيس الجماعة .

الرسول : تعنى فى شرق أفريقيا المنتسب الى الرسول .

مير : ويقصد بها أمير فى بلاد الترك والفرس .

كما أن النقابات التى عرفت فى البيوتات العربية الكبيرة فى البلاد الاسلامية تكفى للدلالة على أن النقباء وذواتهم هم من العرب ، وقد كانت فى بلاد المشرق وفى الشام نقابات للطالبيين وللبكريين ، وللعباسيين وغيرهم .

بل اننا نجد فى أنساب بعض العلماء أسماء عربية صرفة ، هى أصلا من أرض الجزيرة العربية ، ومن تسميات العرب أنفسهم ، وكان بعضها متداولا فى العصر الجاهلى مثل حوثرة ومجزأه ، ومجاشع ، وصخر ، ومرداس ، وعتبة ، وخزيمة ، وهذا يدلل على عروبة نسبهم وتمسكهم بها .

ومن فحص عبارات المصادر التاريخية وغيرها ، أى كتب التراث بصفة عامة ، وخاصة الكتب التى تعرضت للانساب من خلال الطبقات ، أو كتبت فى الأنساب مباشرة مثل كتب : أبو سعد السمعانى ، وخليفة بن خياط ، والخطيب البغدادى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن خلكان ، وابن الأثير ، وأبو الفدا ، وحمزة السهمى وغيرهم نجد دوما فى ترجمة الشخص ونسبة لفظ «الشريف » أو اذا لم يكن من العرب مثلا يتبع الترجمة « مولاهم » أو « مولى فلان » أو « مولى بنى فلان » وهذا معناه عربيا بالولاء ، واذا كان فارسيا يشيرون بل يذكرون ذلك صراحة (٢) ، واذا كان سبيا ووقع عليه الشراء والعتق قالوا : من سبى سمرقند

---

(١) التحبير فى المعجم الكبير . ترجمات ١١٠ ، ٢٧٨ ، ٧٢٣ .
ـ المنذرى : التكملة لوفيات النقله ، ج٤ ، ص ١٦٣ .
(٢) البغدادى : تاريخ بغداد ج ٨ ، ص ١٦٨ .

مثلا وقع لفلانة أو فلان ،ثم اشتراه فلان فأعتقه (١) .

وهذه المسبيات كانت وفقا لما كان بين العرب فى صدر الاسلام ، والعصر الجاهلى . فمن صدر الاسلام كان ولاء زيد بن الحارث الكلبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم « فذكر مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكذا عمار بن ياسر من « موالى بنى مخزوم » وكان بشر بن وادع من بنى خليفة ، وابنه صالح ابن بشر مملوكا لامرأة من « مرة » ولاؤه لها . وكان سلم الخاسر عربيا من حمير صليبة ، سبى فى الردة هو وابنه عمه محمد بن عمرو فاعتقهم أبو بكر رضى الله عنه ، فهم مواليه . وكان ولاءهم له أحب عليهم من نسبهم فى حمير .

وعلى ضوء ذلك استندت كتب الطبقات ، فجاءت عباراتها فى النسب قياسا على نسب أو ، ولاء ، أو رق معتق أو غيره . وباستعراض العلماء التى وردت بها نجد أمثلة عديدة . فمثلا نجد البغدادى يكثر بعد ذكر النسبة الى القبيلة من قوله «من أنفسهم» : « العجلى من أنفسهم » أو «الوادعى من أنفسهم» و « أبوالحكم الليثى من أنفسهم » أ ى من بنى عجل ، ومن « وادعة » ، ومن « بنى الليث » . صليبة لاولاء دون الشك (٢) .

ويشير حمزة السهمى فى « تاريخ جرجان » دوما الى « الولاء » . كما يذكر النيسابورى دوما فى كتابه « تاريخ نيسابور » ، وأبو سعد السمعانى فى كتابه « التحبر » ، وياقوت فى « معجم البلدان » ، جميعهم ينصون صراحة على كلمة « مولى » أو « مولاهم » أو « مولى فلان » .

بل ان كتب طبقات المذاهب أيضا لم تتخل عن هذا الأمر ، فينص عبد القادر القرشى فى كتابه « الجواهر المضية فى طبقات الحنفية » الى هذا النسب أو الولاء .

وهؤلاء المصادر جميعا كانت تضع تراجم لعلماء عرب ، يكتبون بالعربية ويفكرون بفكر الاسلام ، ويجمعهم هدف واحد هو خدمة الاسلام باللغة التى نزل

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٤٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، (نموذج رقم ٢ « تامين ومعاشات ـ موظفين »)

بها القرآن وهى اللغة العربية ، والعلماء التى وردت تراجمهم أغلبهم ان لم يكن جلهم أيضا من العرب .

ولا يقتصر الأمر على كلمات النسب ، بل تأكد ذلك أيضا من خلال بعض الصيغ العربية . وردت فى كتب النسب أيضا لعلماء عرب مثلا :

(أ) ابن رزقوية ، (٣٢٥ — ٤١٢ هـ) ، له نسبا فى همدانى ، أى القبيلة العربية المشهورة فى اليمن .

(ب) ابن علوية ، محمد بن بكن بن محمد بن مسعود بن علوية أبو النضر القرشى .

(جـ) ابن شبوئيه الخزاعى .

(د) فضلويه : الفضل بن اسحق الهاشمى ، وابن فضلوية المزكى النيسابورى .

(هـ) ابن فتحوية القرشى .

(و) كوهر ناز بنت مضر بن الياس التميمى البالكى . سمع منها عبد الرحيم السمعانى بهراة .

على أن هناك ردا على حاجى خليفة فى ادعائه السابق الاشارة اليه ، وهو أن بعض العلماء العرب كانوا أكثر اهتماما بذكر نسبهم ومشيختهم رغم أنهم كانوا يقيمون أيضا فى بلاد أعجمية وعلى سبيل المثال :

١ — فالقاضى أبى الفتح الهروى وضع نسبه العربى الصريح فى الاجازة التى منحها لأبى سعد السمعانى الذى ذكر أن القاضى دون نسبه فى الاجازة بنفسه ، فذكر النسب كما يلى :

القاضى أبو الفتح نصر بن سيار بن صاعد بن سيار بن يحيى بن محمد بن ادريس بن خلف بن حبيب بن رافع بن ليث بن نصر بن سيار بن رافع بن ربيعة بن جدير بن عامر بن هلال بن عوف بن جندع بن ليث بن بكر بن مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الكنانى الهروى .

٢ — وكذا فى اجازة شهاب الاسلام والمسلمين الكرمانى الرازى الأنصارى كتب المجاز على ظهر الاجازة ما يلى :

« من عناية الله تعالى أن يسر لى الاستسعاد بادراك ملازمة سامى مجلس مولانا وشيخنا الامام حجة الله على بن الانام ، شيخ شيوخ الاسلام المختص بفتوحات الملك العلام ... شهاب الاسلام والمسلمين الكرمانى التميمى الدارى الانصارى ، قرأت عليه كتاب « عوارف المعارف » . كتاب يتلألأ بين الكتب كالقمر بين الشهب من مصنفات .. شهاب الملة أبى حفص عمر بن محمد السهروردى قدس الله روحه ونور ضريحه قراءة مقرونة بتحقيق معانيه ، وتصحيح ألفاظه فى احدى وأربعين مجلسا كما رقم بخطه الشريف واسمه الميمون نسخة قراءتى هذه ، نفعنى الله بها ورزقنى العمل بما فيها مجلسا مجلسا فاستجزت من جانبه . رواية هـذا الكتاب من مقروءاته ومسموعاته واستجازاته من كل ما يصح فيه طريق الرواية .. وحرره العبد الضعيف اسحق بن على المشتهر « بنظام كوهلوى » (كوليلوى ؟ . . فى الرابع من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة » (١) .

يضاف الى ذلك كله . أن كلمة العرب فى مقدمة ابن خلدون قد استخدمها فى نحو ٣٣٠ موضعا ، فى حين أنه لم يستعمل كلمة الاعراب ـ والاعراب بمعنى البدو ـ الا فى بضعة مواضع ولكن كلها أو معظمها « العرب » كانت تستخدم عند دراسة الحياة البدوية . وهذا دليل واضح أن ابن خلدون لم يعمل بقاعـدة علماء اللغة فى وجوب تسمية ـ البدو بالاعراب ، لا بالعرب .

ومدلول كلمة العرب تطور تطورا كبيرا خلال أدوار التاريخ ، كما يلى :

أولا : كان مدلول كلمة العرب تختص بالبدو وحدهم .

ثانيا : صار يشمل المدلول من يسكن المدن والأمصار ، من غير أن يقطع صلته بالبادية .

ثالثا : تحول الى سكنة الأمصار ، يقطع صلاتهم بالبادية .

هذا فضلا عن أن ابن خلدون استخدم العرب اللفظ فى الفصـول التى تناقش أمور البدو كلها . ولعله استعمل مدلول العرب الحقيقى وميز بينه وبين البدو فيما قاله « كان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بنى أمية ، انما يسكنون

---

(١) ناجى معروف : المرجع السابق ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

بيوتهم التى كانت لهم خياما من الوبر والصوف . ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الا الأقل منهم ، فكانت أسفارهم لغزواتهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد » .

وفى مثال آخر « أعلم أن عرف التخاطب فى الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القسة ، ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة قائمة بنفسها » .

على أن هناك ملاحظة هامة يجب أن ننتبه اليها وهى أن ابن خلدون نفسه كان من العرب أى العرب المتحضرين سواء منذ ولادته أو رجوعا الى نسبه فهو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ، والمعروف عن الحضارمة من قديم الزمان أنهم من الشعوب التجارية الحضارية ذو رحلات متعددة فى سائر العالم المعاصر وداخل الجزيرة العربية . هذه واحدة ..

أما الثانية التى تؤكد أن ابن خلدون لم يقصد العرب الحضاريين ، أنه عاصر زمانه وقريبا منه علماء عرب لهم جهدا كبير فى الحضارة العلمية كالحساب والطب والهندسة وغيرها فضلا عن دراساتهم الاسلامية الواسعة المستنيرة منهم :

نصير الدين الطوسى (ت ٦٧٢ هـ) ، وعلاء الدين أبو الحسن على بن الحزم القرشى الملقب بابن النفيس (ت ٦٨٦ هـ) وغياث الدين بن مسعود بن محمد الكاشى (ت ٨٣٩ هـ) . وأبو الحسن علاء الدين على بن ابراهيم بن محمد الأنصارى المعروف بابن الشاطر (ت ٧٧٧ هـ) . وغيرهم ممن عاصروه واحتكوا به وناقشوه ودرسوا معه لأن كثير منهم من أهل المغرب والأندلس .

أما الثالثة فمن المحتمل أن هناك خطاطا أى نساخا من البربر حرف اللفظ من كلمة عرب الى الأعراب . وهذه النسخة قد تكون موضع تغيير الآن .

بل ان الأستاذ ناجى معروف أنكر ذكر عن قول ابن خلدون فى كتابه السابق لرأى جهل علماء العرب وسيادة العجم عليهم . وعجميتهم فهو يقول :

وأن رأى ابن خلدون ــ ان صحت نسبته اليه ــ هو السبب فى رفع الحملة الظالمة التى رفع لواءها الأعاجم والشعوبيون(١) . واننا نستبعد ذلك على ابن خلدون المؤرخ العالم المسلم لأن حركة الشعوبية أسبق فى زمنها من الرأى المذكور .

---

(١) ناجى معروف : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

وبعد هذا . واستكمالا لتفنيد قول ابن خلدون ، وحاجي خليفة ومن شياعهما من بعدهما : وتفنيد أقوالهما بكلماتها نستطيع القول أنه بالبحث والتحرى والاستقصاء الوصول الى أن العلماء المسلمين فى المشرق والمغرب العربى لا تنطبق عليهم أوصاف قول ابن خلدون : وقول حاجي خليفة ، بل ان العلماء العرب توارثوا العلم . وأخذ عنهم تلاميذهم العرب العلوم ، وقد بلغوا من الكثرة بحيث من العسير حصرهم واحصاؤهم . فاذا أضفنا اليهم العلماء العرب بالولاء ، زاد الأمر صعوبة فى الحصر والاحصاء . وكلا الطرفين كانت العربية لغتهم الأصلية الذين الفوا بها ، وأجازوا لطلبتهم دراساتهم بها أيضا .

فصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابعيهم يعتبرون من حملة العلم لأن كثيرا منهم كان من القراء ، ونقلة الحديث ، حفظوا الحديث وصانوه وأوصلوه الى تابعيهم ، وجميعهم كانوا عربا فى لغتهم وكتاباتهم ، وكان عدد الصحابة فقط ١١٤ ألف (مائة وأربعة عشر ألف صحابى) تقريبا . وتلقف منهم الأمانة العلمية والتأليف فى التفسير والتراث وغيره العرب فى عصر الدولة الأموية .

واذا كانت الرئاسة قد ضاعت منهم شطرا من العصر العباسى الأول ، والعصر العباسى الثانى ، فقد كان الخلفاء العباسيون أنفسهم علماء وأدباء ، وانصرف العرب الى العلم ــ الذين أشعلوا نوره ــ وكذا التجارة والحرف المختلفة(١) .

واذا كان هذا شأن المشرق ، فلا يختلف عنه المغرب ، حيث شجع الأمراء الأمويين والخلفاء منهم فيما بعد العلم والعلماء بصورة كبيرة . ورغم أنهم شغلوا بالدفاع عن أرض الاسلام والحضارة العربية ، واستقرار الدولة ، الا أنهم ــ بعد الاستقرار ــ اشتغلوا بالعمل على ازدهار فكرى كبير وخاصة فى القرن الرابع الهجرى . فعنى عبد الرحمن الناصر بحماية العلوم والفنون والآداب ، وشجع الأندلسيين على دراسة الرياضيات والفلك والحديث بجانب العلوم الدينية ، وتكونت فى مكتبة القصر (قصر الخلافة) مكتبة كبرى كانت تعد خير دليل على المنزلة العظيمة التى بلغتها الثقافة والعلم فى الأندلس . وزاد هذا الأمر فى عصر ابنه الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠/٣٦٦ هـ) ، حيث بلغ العلم قدرا غير

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥١ ــ ٥٢ .

يسير من الرقى والازدهار لم تبلغه فى أى وقت مضى ، « عكف الخليفة نفسه على الكتب يقرأها بنهم وشغف ، ويعلق عليها بتدبر وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها ، جماعة للكتب فى أنواعها وجمع مالم يجمعه أحد من الخلفاء والملوك من قبله(١) ، حتى صار فى طليعة العلماء . ولعلنا نلمس ذلك فيما بذله من الجهد والمال والوقت فى جمع أربعمائةألف كتاب فى مكتبته فى قرطبة. بلغ عددالفهارس التى حوت تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرين ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين فأقام للعلماء والعلم سلطان نفقت فيها بضائعه من كل قطر ، ووفد عليه أبو على القالى صاحب الأمالى من بغداد ، فأحسن اليه فاستفاد أهـــل الأندلس منه(٢) .

بل ان حكم ملوك الطوائف فى الأندلس نشر العلم فى سائر البلاد ، حيث استولى هؤلاء الملوك على بعض كتب مكتبة القصر ، ثم تنافسوا بعد ذلك على تشجيع العلم والفن ، وجمع الكتب وفتح المدارس . وكانوا على سنة أمرائهم وخلفائهم السابقين الذين كانوا يسيرون رجالا من التجار والسماسرة بالمال لشراء الكتب حتى جلب الى الأندلس مالم يعهده علمائها وأهلها . واشترى الحكم كتاب الأغانى من الأصبهانى أحد أحفاد بنى أمية بألف دينار ذهب ، والكتب أوفت حاجة ملوك الطوائف جميعا(٣) .

والأمراء والخلفاء وملوك الطوائف ممن شجعوا العلم العربى هم من أصول عربية ، وأغلب الذين ألفوا فى العلم والفن فى هذه النهضة من العرب أيضا ، بل ان الذين اقتنوا الكتب كانوا من العرب ، فضلا عن ذلك فان المؤلفات التى كانت تضمها مكتبة القصر . واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لاقليم من قبله ولا من بعده . ومن المؤسف أن نهبها البربر .

ومن الأمر المؤسف أن يرجع ابن خلدون وحاجى خليفة كل علماء الأصول الى الأعاجم وفات عليهما أن الامام الشافعى المطلبى عربى هاشمى ، وهو أول من

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٢ ، ص ١٤٦ .
(٢) المصدر السابق والصفحة
(٣) المصدر السابق والصفحة .

أصل أصول الفقه ، بل وقد انعقــدت الامامة فى الفقه لأربعــة من الأئمة هم : الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى . والامام أحمد بن حنبل الشيبانى ، والامام مالك بن أنس الأصبحى إمام دار الهجرة . والامام محمــد بن أدريس الشافعى المطلبى . والثلاثة الأخيرون من العرب الخلص ، والأول عربى الأصل فى عدة روايات ، وفى رواية أنه من أهل العراق الساميين من نسل ابراهيم الخليل، وبذلك يكون عربى أيضا .

ومما لا شك فيه أن الانتساب الى المدن الأعجمية هو الذى طمس على كثير من عروبة العلماء ، وصار الناس يتوهمون أو يظنون أن العلماء العرب المنسوبين الى المدن الأعجمية انما هم من الأعاجم ، فصاروا يعدون الفخر الرازى ، والمرغينانى، والفيروز أبادى من العجم من بلاد الرى ، ومرغينان ، وكذا وفيروز أباد بينما هم عرب خلص من سلالة أبى بكر الصديق. وعد الوطواط وهو رشيدالدين بن مردويه البلخى ، وأبو الفتــوح المروزى النيســابورى ، وأبو بكر الهروى ، والرضى الصاغانى من العجم والواقع أنهم عرب خلص من ذرية عمر بن الخطاب .

وعدوا عثمان المحمى النيسابورى ، والديباج الحرانى ، وأبا بكر المراغى ، والشيخ خالد النقشبندى من العجم ، بينمــا هم من العرب الصرحاء من ذرية عثمان بن عفان .

وعدوا ابن طباطبا الاصبهانى ، وأبا محمــد الصوفى الاســترابادى ، وأبا العباس الفرغانى ، وأبا البركات الملقباذى من العجم وهم من العرب الصــحراء أيضا من ذرية على بن أبى طالب .

واعتبروا الحارث بن سريج الخراسانى ، وأبا فروة الرهاوى ، وابراهيم بن أدهم البلخى من العجم وهم من بنى تميم .

كما اعتبروا أبا أيوب المراغى ، وابن شازان النيسابورى ، وابن زنجاويه النسائى من العجم بينما هم من الأزد .

وعدوا أيضا أبا حفص البلخى ، والخليل بن عمرو البغوى ، وحبيش الطوسى من العجم وهم من قبيل ثقيف التى خرجت من الطائف .

ومثل ذلك يقال عن ألوف من أعلام العرب الذين ينتسبون الى البلدان الأعجمية وهم من العرب من مختلف قبائلهم(١) .

عروبة المربى والمشيخة

أما عن المربى فهى البيئة التى وجد فيها هؤلاء العلماء كالمشرق الاسلامى وكذا المغرب الاسلامى ، وظل هذين الجناحين بيئة عربية طوال العصور الاسلامية، بل حتى بعد سقوط الدولة العباسية (٦٥٦ هـ) ، وخروج العرب من الأندلس سنة ٨٨٩ هـ . ولم يحول العرب فى الأندلس ولم يغير البيئة الا بعد الهجمة الشرسة النصرانية فى الغرب التى أجبرت من استقر وبقى فى الأندلس على التنصر . أما المشرق فلا تزال الدماء العربية يشار اليها بالتقديس والاحترام . ولا يزال حتى عصرنا هذا يعتز قسم كبير من العرب الفرس ، والعرب الترك ، والعرب الهنود ، والعرب الأفغان ، والعرب الأكراد وغيرهم يعتزون بنسبهم العربى ويفاخرون به ، ولا يزال كثير منهم يتكلمون العربية ويتقنونها ويؤلفون بها . بل أن بعض القبائل ذات الأصل الأوربى ، ترفض الانتساب الى أصولها وتصمم على الانتساب الى العرب ، ومن هؤلاء القبائل الرومية الأصل التى عرفت بـ « الحمراء » وقد اشتركت فى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص ومنها « بنو ينه » و « بنو الأزرق » و « بنو رسل » وكان حامل لوائهم جميعا « ابن ينه » الذى كانت تنسب اليه سقيفة بالفسطاط . وقد ذكر ابن دقماق فى كتابه (واسطة الانتصار) أن تلك الجماعات أسلمت من قبل « اليرموك » . وسميت الخطط التى أقاموا بها فى الفسطاط « الحمراوات الثلاث » وكانت تمتد بين جامع عمرو وجبل يشكر، وكانت خطتان منهما وهما : « الحمراء العليا » و « الحمراء الوسطى » تقعان داخل حدود المدينة أما الثالثة وهى « الحمراء الدنيا » فكانت تقع وراء حدودها من الشمال . وذكر ابن عبد الحكم فى كتابه (فتوح مصر والمغرب وأخبارها) أن عمرو بن العاص ، قدم بأولئك الروم من الشام . ولا شك أن مصيرهم كان كمصير غيرهم من أبناء القبائل الأخرى التى اشتركت فى الفتح ، اذ تخلوا مع الأيام عن نظمهم القبلية ، وتقاليدهم البدوية ، وتحضروا ، وتحولت البيئة الى عربية ، وصار المربى عربيا كله . أى أن العرب بما نزلوا به من لغة ، وفيما استقروا فيه من أماكن صارت مربى عربيا لكل العرب ، والفكر العربى .

---

(١) الانساب ، جـ ٥ ، ص ١٨٠ .

والمربى تكون من :

(أ) القبائل العربية التى شاركت فى تحرير وفتح هذه البلاد واستوطنت فيها خلال العصور .

(ب) ان الدولة العربية والاسلامية التى نشأت فى الأقطار شجعت العربية والآداب العربية والعلوم العربية . بل واشتد التنافس فيما بينها على احتضان العلماء والأداب والشعراء ، وعنيت بنتاجهم العربى حتى كان يقال على خراسان : انها بلاد العرب(١) .

وينتهى الأمر الى أنه اذا كان هناك بعض من العلماء من العجم فقد كان عجميتهم نسبا بحكم بلادهم ومولدهم فقط ولكنهم عرب مسلمون تعلموا على أيدى العرب الصرحاء نسبا والمستقرين فى هذه البلاد .

* * *

والنقطة الأخيرة التى أثارها ابن خلدون وشايعه حاجى خليفة هى « عروبة المشيخة » وهذا أمر لا يحتاج الى دليل كبير ، لأن المشايخ كانوا أصلا أما العرب الخلص الذين ينتسبون الى المدن الأعجمية أو الى المواطن العربية ، أو المهاجرين والأنصار ، أو القبائل العربية المختلفة ، أو من غير العرب الذين كانوا يحذقون العربية ويتخاطبون بها ، ويعتزون بها لأنها لغة القرآن والعلم والسياسة والحياة . وقد سبق الاشارة الى أمثلة عديدة حول هذه الأمور سواء فى اجازة التدريس ، أو فى بعض العلماء العرب الذين ينتسبون الى بلاد أعجمية ، وكانوا أيضا شيوخا لتلاميذهم ، بعد أن كانوا تلاميذ لشيوخهم من علماء العرب الصرحاء .

وابن خلدون يناقض نفسه فى المقدمة فى هذه النقطة فيقول « فكان صاحب النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم وانما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفقا لمن بعدهم .

ان هؤلاء العلماء فى نسبتهم كانوا عربا فى لغتهم ، بدليل أن جميع مؤلفاتهم وضعوها باللغة العربية كما جاء فى تراجمهم التى حوتها كتب الطبقات والانساب ،

---

(١) الانساب ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

وندر فيهم من ألف بغير العربية ، وقد طبع كثير . آثارهم العربية ، وما يزال أكثرها مخطوطا ، علاوة على ما فقد لمختلف الأسباب . والعلماء الذين ينسبون الى العجم كانوا عربا فى لغتهم ، وتركوا لنا آثارهم من المؤلفات باللغة العربية ، ودليل ذلك نجده فى الألوف المؤلفة من المصنفات التى يحتويها كتاب « الفهرست» لابن النديم ، وكتاب « التحبير فى المعجم الكبير » لأبى سعد السمعانى ، بل فى كتاب « كشف الظنون » لحاجى خليفه نفسه . بل ان فهارس العالم حاليا التى تسجل المخطوطات تؤكد ذلك. ومن الغريب أن حاجى خليفة التركى نفسه سجل كتابه العظيم « كشف الظنون » باللغة العربية ، وما جاء بمؤلفه كله كانت مؤلفات عربية أو مكتوبة بالعربية ، ولم يذكر الا القليل جدا من المؤلفات باللغة التركية ، أو اللغة الفارسية ، واذا ذكرها يتبعها بقوله تركى أو فارسى فكيف يناقض نفسه بقوله « واذا كان العربى فى نسبه فهو أعجمى فى لغته » بل ان بعضا ان لم يكن كثيرا من الكتب كانت بالعربية أساسا وابتداءا ثم ترجمت الى الفارسية كما ذكر حاجى خليفة نفسه فى كل من الصفحات ٣٦ ، ٩٠ ، أو الى التركية كما ورد فى صفحات ٢٢٤ ، ٢٤٦ .

وسنورد مثلا على كتب عربية من مشيخة عربية ، وتلاميذ عجم وعرب فى علم التاريخ ، فقد بلغ عددها فى عهد حاجى خليفة (ت ١٠٦٧) حوالى ١٣٠٠ كتاب .

ونختتم كلامنا ودراساتنا فى هذا الأمر ، أو هذه القضية بسؤال استنكارى وهو . كيف يكون العربى أعجميا أو مستعجما اذا كان أصله عربيا ، وعلمه القرآن والدراسات الدينية الاسلامية والقرآن نزل عربيا ، والدراسات الاسلامية ابتداءا وما زالت ، تقوم بدراساتها باللغة العربية ، هذا فضلا عن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كتبت بخط عربى أيضا ؟ ولماذا لا يكون الأعجمى حينئذ عربيا فى لغته ولسانه وكذا عربى المشيخة والبيئة والمربى والعلم والثقافة مثل سيبويه ، والزجاج ، وابن سينا ، وأبى بكر الرازى ؟ ومن أحق بالعروبة من هؤلاء وأمثالهم ؟ وعلى أى الأسس بنو علومهم ، أليس على العلم العربى سواء قبل الاسلام أو بعده . ومن المدهش أن ابن خلدون يرى رابطة اللغة ، والسمات والشعائر أساسى العروبة .

* * *

وأخيرا يمكننا القـول أن ابن خلدون كان يرى أن حملة العلم جميعـا فى الحضارة الاسلامية انتاجهم صب فى اللغة العربية(١) .

مكانة الدراسات الحديثة

على أن هناك موضوع آخر يثار عند تحديد التراث العربى الاسـلامى وتعريفه بأبعاده الثلاث الزمانية والمكانية واللغوية وهو موضـوع « الدراسات الحديثة » التى تتناول الموضوعات القديمة الواردة فى ذخيرة التراث ، سـواء كانت هذه الدراسات عربية أم أجنبية (انجليزية ، فرنسية ، اسبانية ، المـانية .. الخ ..) ، وهل يمكن أن تلحق بالتراث ؟ (٢) .

والرد على ذلك واسع ومتنوع ، ويمكن أن نعرض بعضـه فيما يلى من نقاط :

الأولى ــ أن هذه الأبحاث ، مهما بلغت ما بلغ ، لم تكن موروثة لنا ، وانما محل تحقيق ودراسة هادفة لمن قام بها . وهى تعود على الباحث بفائدة شخصية قبل خدمة التراث ، بمعنى أنها ليست خدمة للتراث بقدر ما تكون خدمة شخصية فضلا عن ذلك أن كثير منها لا يتخذ منهج التراث منهجا للدراسة التى قام بها .

الثانية ــ وان كانت انتماءات الدارسين ، ومن ثم الدراسـات مكانا الى الوطن العربى والعالم الاسـلامى عامة ، أو بلاد اسـلامية كانت عربية الا أنها لا تدخل زمانا فى فترات أو زمن التراث ، والذى ينتهى ــ فى رأى البعض ــ عند العصر الحديث تقريبا ، ونحن نلح فى دراسة وطرح قضية نهاية فترة التراث ، وان كنا تنفق مع الرأى الذى يعتبر النهاية عند العصر الحديث حيث كانت هناك بعض الدراسات القليلة فى عصر الدولة الاسلامية التى جرى الأمر على اطلاق « الدولة العثمانية » عليها .

الثالثة ــ هناك دراسات فى التراث أعدها أجانب من جنسيات أوربية مختلفة شرقية كانت أم غربيـة ، لا تدخل فى التراث زمانا ومكانا ولا لغـة ، أى أنها لا تنتسب الى أى الأبعاد الثلاث ، لذا انتفى عنها التراث كلية . بل ان كثير من هذه الدراسات تخدم أهداف هدامة ومنحرفة كما سنعرض فيما بعد . ورغم أن

---

(١) عبد العزيز الدورى : ابن خلدون والعرب، مقال فى أعمال مهرجان ابن خلدون : ص ٤١٢ .
(٢) د. عبد الوهاب ابو النور : مقال « قضية التراث » المرجع السابق .

الذى سبق وأثار القضية ، ورفض ادراجهـا فى اا ا ث عاد فيما بعـد بنفسه ، وناقض رأيه وذلك باضافتها الى التعريف (١) .

والواقع أن التراث نصوص كتبها مفكرون فى زمن معين ، ونهجوا منهجا معينا ، وكانوا يستظلون تحت مظلة معينة ، كما كتبوه بلغة محددة . وأن الأعمال الحديثة التى كتبها مسلمون ومستشرقون لا تكمل التراث وانما تحقق بعضه وتبحث فى الآخر ، ولا يمكننا اطلاقا أن نرى أنهما امتدادا ، وانما عطشا وحاجة لما يحتويه من موضوعات ما زالت فى حاجة الى دراسة ،وباعتبارها مرجعا للباحثين حين يستشكل عليهم أمرا فى علوم العصر الحديث . واذا كان هناك من يحقق من كتبه ومخطوطاته ، ويلحق صفحات للتفسير اللغوى والعلمى بما حققه ، فليس معنى ذلك أن هذا البحث امتدادا للتراث ، ولا اكمالا له .

والمعروف لنا جميعا أن نصوص التراث المسجلة يجب أن تتوخى فى تحقيقها وعرضها ، الأمانة الدينية والأمانة العلمية ، والأمانة القومية ، ونحافظ عليها ولا نحرف فيها سواء عن وعى أن عن غير قصد ، ونعمل ـ بكل جهد ممكن ـ كل ما يقوم على خدمتها ، بأى شكل من الأشكال ، والا اعترفنا بقصورنا ، وأسأنا الى التراث فى انقاصه أو تحريفه . ولنا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديثه أسوة حسنة . فحينما خاف الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختلط النص القرآنى المنزل ، بأحاديثه وتعليماته التى يسجلها الصحابة والكتاب ، وذلك بمرور الزمن أمور وأحاديث مع القرآن ، نهى صراحة كتابة شىء سوى القرآن ، عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم (لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غـير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى فـلاح ومن كذب على متعمـدا فليتبوأ مقعـده على النار) (٢) .

وقد يلتبس على هؤلاء الذين يقومون بدراسة وتحقيق التراث اكمال بعض العبارات ، ويعطى نفسه حرية التصرف فيما بعد ، فيكون نصيب الأصل أخطاء لغوية ، واضافات من كتب أخرى وخلط للمعانى . وقد أورد أحد المتخصصين

---

(١) د. عبد الوهاب ابو النور : مقال « مقترحات لجمع وخدمة التراث » .
(٢) حديث نبوى .

ما سبق أن حدث فى مثل هذا ، فيقول (كذلك يفعل الأقدمون ، ينقلون نصوصا أحيانا ، وتكون لهم الحرية التامة فى التصرف وترجمتها بلغتهم أيضا ، الا اذا حققوا نقل ونصوا على أن هذا هو نقل النقول . فيقولون « انتهى بنصه » فتكون مسئوليتهم فى ذلك خطيرة : اذ حملوا أنفسهم أمانة النقل) .

وحكم على نشر مثل هذه النصوص ، والدعوى أنها محققة : يعد خطأ جسيما فى فن تحقيق وفى ضمير التاريخ . بل ووصف أمثال هذه المخطوطات بالابقاء الأدعياء منها ما فعله ابن أبى الحديد فى شرحه منهج البلاغة ، حيث ضمنه كتبا أخرى أو أجزاء كبيرة منها ، وكذا ما أورده البغدادى صاحب خزانة الأدب من صغار الكتب الذى يمكن الاستعانة به فى التحقيق ، ولا يصلح أن يكون كتابا محققا (١) .

ولقد أدرك أحد المستشرقين أهمية النص ، وما يمكن أن يذهب اليه البعض تشويه ، فعرفه المستشرق دوزى فى كتابه :

Supplement aux Dictionnaire arabes

بما تعارفت عليه المعاجم الحديثة المختلطة ، حيث ذكر « النصوص : هى أقوال المؤلف الأصلية تذكر بهذا اللفظ لتمييزها من الشرح والتفسير والايضاح ») .

ولذلك يمكن اطلاق لفظ « خدمات النصوص » أو « دراسات نصوص ولكن ابتعد نهائيا « مكملات النصوص » .

فمن المتفق تحديد ما عنى به الباحث للتراث بما يلى (٢) :

١ ــ التراث العلمى فقط ، ويقصد بالعلمى المعنى الواسع بما يضم كل

---

(١) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها ــ الطبعة الرابعة ، ص سنة ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٨ م ــ القاهرة .

(٢) عبد الوهاب ابو النور : مقال « مقترحات فى خدمة التراث » المرجع السابق ص ١٩٨ .

ما دون فى المخطـوطات العربية ، وبهذا يخرج منه الجوانب الأخـرى للتراث الحضارى من آثار ومباذ .. الخ .

٢ ــ ماكتبه المؤلفون للكتب الذين كانوا يقطنون من حيث المكان ، أقطار الدولة الاسلامية ، والذين عاشوا من حيث الزمان فى القرون الاحدى عشر الأولى ان لم يكن أكثر ــ للهجرة .

يتبقى أمرين هامين لما لهما من صلة بالتعريف بالتراث .

الأول ــ ويختص بالقضية التى آثارها ابن خلدون ، وهو أمر توضيحى هام عن انتماء العرب الى المواطن الأعجمية .

الثانى ــ ويختص بما وصـلنا من كتب التراث وكتب فهرستها وحفظهـا وأماكن وجودها حتى يتعرف أى باحث الى ما يحتاجه من هذه المخطوطات .

أما عن الموضوع الأول ، فيبدأ بسؤال هام وهو : ما هى دواعى انتمـاء العرب الى المواطن الأعجمية ؟ والرد على ذلك من واقع كتـاب الدكتور ناجى معروف حيث يقول :

«قلم يسمع بوجه عام أن أحدا من العرب فى الجاهلية ، وصدر الاسـلام ، وخلافة الأمويين ، وسنوات من خلافة العباسيين ، انتمى أو انتسب الى المدن وانما كانوا ينتسبون الى قبائلهم وعشائرهم والى أفخاذها وبطونها فنسمع على الدوام : القرشى ، المخزومى ، الزهرى ، والسلمى ، والتيمى ، والتميمى ، والسهمى ، والعدوى ، والباهلى ، والأسدى . وأما الأعاجم فينتسبون الى المـدن والقرى والقبائل ولا يعتزون كالعرب بانتسابهم الى الآباء أو الأمهات أو القبائل وبطونها وأفخاذها .

وظل الأمر كذلك الى أن خف وتضاءل فى الدولة العباسية عندما أصبحت بغداد أممية كبيرة تضم أناسا من كل الأجناس والقوميات ، ومن مختلف الملل والنحل . وأصبحنا مع الزمن نجد الكثير من العرب الصرحاء ينتمون مثل الأعاجم الى المدن والقرى والدروب والسكك والمحال والأماكن المختلفة ، وبخاصة أولئك الذين عاشوا بين ظهرانى المسلمين من غير العرب . وصار المنتسبون الى المدن من العرب ومن غيرهم

كثيرين جدا ، فكان من المنتسبين الى بغداد مثلا « كثرة من كل جنس وفن » كما يقول أبو سعد السمعانى وصار ينسب اليها من ليس من أهلها لأنهم أقاموا زمنا طويلا ، أضف الى ما تقدم أن العرب صاروا ينتسبون أيضا الى الأماكن والحرف والصنايع،وأصبح سواء فى هذه النسبة:العرب الصرحاء والموالى وصارت وانتظمت البلاد الاسلامية وحدة دينية وثقافية ، وبذلك أصبح التمايز بين العرب وغيرهم من المسلمين أمرا صعبا . ويشير ابن خلدون فى مقدمته(١) الى أن عمر بن الخطاب قال « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا قال أحدهم عن أصله قال : من قرية كذا ، هذا الى مالحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعى الخصبة ، فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب .

وقد وقع فى صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال : جند قنسرين ، جند دمشق ، جند العواصم ، وانتقل ذلك الى الأندلس . ولم يكن ذلك لاطـراح العرب أمر النسب ، ولكن كان لاختصاصهم المواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها ، وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم ، ثم وقع الاختلاط فى الحواضر مع العجم وغيرهم ، ونسبت الانساب بالجملة ، وفقدت حريتها من العصبية فاطرحت ، ثم تلاشت القبائل ودثرت ، فدثرت العصبية بدثورها ، وبقى ذلك فى البدو كما كان(٢) .

ولكن رغم ذلك استمر الكثير كان جمع من الغالبية من العرب يحفظـون أنسابهم ويرجعونها الى القبائل ، وان كان قد دخلها بعض التحريف فى اللفظ ، كما سبق الإشارة .

على أنى فان العرب ساحوا فى المدن الأعجمية ، وكثيرا ما ذكر العلماء منهم عن هويته العربية وقبيلته ، بل واعتز مشايخهم بذكرها فى رسائل تلاميذهم .

أما الموضوع الثانى ، فقد بلغ عـدد الكتب التى وصلتنا من كتب التراث بالملايين ، رغم ما تعرضت له المخطوطات من محن كثيرة ، نتيجة تعرضه لموجات

---

(١) ص ١٣٠

(٢) ناجى معروف : المرجع السابق ، ص ٧٣- ٧٥ .

من التعصب او العزو للعالم الاسلامى . ا. من العلماء انفسهم . وخلال هذه المحن تعرض التراث للحرق والاتلاف .

ومن الأمور الذى تعرض لها التراث ما كان نتيجة خطأ غير متعمد مثل ما حدث للعالم العربى الذى سقط النور على كتبه وأحرقها أو وذلك لقلة جدواها ــ كما يرى ــ وصنا بها على من لا يعرف قدره الا بعد وفاته واعتذر لمن سبقه من الأئمة والعلماء فى الأمر(١) .

ومن الحوادث التى كانت عن قصد ما فعله أبو حيان التوحيدى ، وله تصانيف كثيرة أحرق بعضها وغسل آخر فى أواخر عمره ألما وحزنا لأنه لم ينل فى حياته التقدير الواجب .

وكذلك ما فعل الصاحب بن عباد الوزير البويهى فى كتب أبو حيان التوحيدى فى احدى نوبات حمقة(٢) ، وتعرضت الكتب التى كان يملكها الصاحب بن عباد لنفس المصير ، وخاصة كتب علوم الأوائل ، وعلم الكلام على أيدى محمود الغزنوى فيما بعد حين احتل الأخير الرى سنة ٤٠٠ هـ وذلك بعد حوالى ٥٠٠ سنة (خمس مائة سنة) من وفاة الصاحب بن عياد(٣) .

وتعرضت كتب التراث فى المغرب والأندلس لنفس المصير(٤) ، ولنفس الأسباب .

أما الحادثة الثانية فهو حريق مكتبة الاسكوريال سنة ١٦٧١ م . وكانت المكتبة تحتوى على نحو عشرة آلاف مجلد من المخطوطات الأندلسية والمغربية زهاء نصف قرن ، فشبت النار فى الاسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه أكثر من ألفين مازالت فى هذه المكتبة حتى اليوم(٥) .

وفى أيام الحروب الصليبية تعرضت كتب التراث للنهب والتلف والاحراق ، وكانت الطامة الكبرى لها حين دخل المغول بغداد ٦٥٦ هـ واسقطوا الدولة

---

(١) ياقوت : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٨٨

(٢) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ص ١١٠ .

(٣) ياقوت : المصدر السابق ج ٦ ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

(٤) محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ــ ٢١٦ .

(٥) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ط ٤ ، ص ٣٢٦ ــ ٢٣٩ .

العباسية . واستخدموا الكتب كقنطرة مائية يعبرون عليها . وكذا عند سقوط الأندلس فى أيدى النصرانيين فى سنة ٨٨٩ هـ وقبلها أيضا بسنوات .

بل ان تراثنا العربى الاسلامى لم يسلم من تدمير العصور الحديثة خاصة فى القرن الخامس عشر الميلادى . فلم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) حتى ارتكبت أسبانيا ـــ النصرانية المتعصبة والتى تحركها الكنيسة ـــ جريمة كبرى فى حق هذا التراث ومن ثم الفكر الاسلامى وهى لا تدرى ـــ بفعل التعصب ـــ أنها تدمر أيضا الفكر الانسانى . ففى ١٤٩٩ أمر الكردنيال فمنيس مطران طليطلة التى كانت قبل سقوطها (١٠٨٥) مركزا اشعاعيا للأوربيين ليتعلموا ويتحضروا فيها من علوم العرب والاسلام . آمر هذا المتعصب الأعمى بجمع جميع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة وأرباضها وتنظيمها اكداسا فى ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، وكان يضمها المصاحف البديعة الزخرف والآلاف المؤلفة من كتب الآداب والعلوم ، واحتفل باحراقها مدعيا ذلك عملا من أعمال الايمان ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتب الطب . وهلك فى هذه المحنة معظم تراث الأندلس العظيم ، وقدر بعض أعداد الكتب الهالكة ما بين ثمانين ألف ومليون .

ولنعرف قيمة ما وصل الينا فقط من الكتب ، وأهميتها ، فضلا عن ضخامتها يمكننا أن نراجع هذه القائمة لبعض فهارس الكتب المنشورة بواسطة جهات علمية وحضارية وثقافية مختلفة فى العالم كله ، ونذكر فيها المكتبات والمتاحف التى تحتفظ بها(١) .

١ ـــ المكتبة الشرقية Bibiotheco oriantala باللغة الفرنسية ، اعداد ، زنكو ، ١٨٤٦ ـــ ١٨٦١ ، يضم أسماء الكتب العربية المطبوعة وغيرها منذ اختراع الطباعة حتى سنة ١٨٦٠ م .

٢ ـــ فهرست دار الكتب المصرية المنشور سنة ١٣٠٨ هـ ـــ ١٨٩٠ م .

٣ ـــ فهرست المكتبة الآصفية بالقاهرة المنشور سنة ١٩٠٠ م .

---

(٢) القصلى : تحقيق النصوص ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

٤ — فهارس الكتب العربية المخزونة فى مكاتب القسطنطينية ، نشر الحكومة العثمانية سنة ١٢٧٩ — ١٣١٣ هـ .

٥ — عقود الجمان فى تراجم من لهم خمسون تصنيفا فمائة فأكثر ، جميل العظم ، نشر سنة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م .

٦ — جامع التصانيف المصرية الحديثة ، عبد الله الأنصارى ، يحتوى على أسماء الكتب الصادرة بين سنتى ١٣٠١ — ١٣١٠ هـ = ١٨٨٣ — ١٨٩٢ م ، القاهرة ١٣١٢ هـ — ١٨٩٢ م .

٧ — اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التآليف العربية فى المطابع الشرقية والغربية ، ادوارد فنديك ، القاهرة ١٨٩٧ م .

٨ — معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف اليان سركيس ، يحتوى على أسماء الكتب الصادرة منذ ظهور الطباعة حتى نهاية عام ١٣٣٩ هـ — ١٩١٩ م ، نشر بالقاهرة ١٣٤٦ — ١٣٤٩ هـ — ١٩٢٨ — ١٩٣٠ م .

٩ — مراجع ما نشر بعد الحرب العظمى عن بلدان الانتداب فى الشرق الأدنى، أنيس فريحة .

١٠ — جامع التصانيف الحديثة التى طبعت فى البلاد الشرقية والغربية والأمريكية من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٦ ، يوسف اليان سركيس ، نشر بمصر سنة ١٩٢٧ م ، وهو ذيل لكتابه المتقدم .

١١ — معجم المطبوعات العراقية ومؤلفيها منذ سنة ١٨٠٠ م الى سنة ١٩٧٠ م نشر ببغداد ١٩٧٠ م .

١٢ — فهرس الكتب العربية المطبوعة فى مجلس دائرة المعارف ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٣ هـ .

١٣ — فهرست الخزانة الملكية فى حيدر آباد ، الهند .

١٤ — فهرس مطبوعات مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ١٣٥١ هـ .

١٥ ــ فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية (دار الكتب المصرية) . بولاق ١٣١٠ هـ .

١٦ ــ المكتبة العربية الحديثة : جورج شحاته قنواتى وشارل كونس ، القاهرة. المعهد العلمى الفرنسى ١٩٤٩ م ، فهرس تحليلى لما طبع فى مصر من الكتب العربية فى السنوات ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ م .

١٧ ــ فهرست الكتب العربية الموجودة بالدار (دار الكتب المصرية) حتى غاية سنة ١٩٢٨ م نشر فى القاهرة ١٩٣١ م .

١٨ ــ فهرس الكتب التى وردت الى الدار (دار الكتب المصرية) من سنة ١٩٢٩ م الى ١٩٣٥ م .

١٩ ــ فهرست المطبوعات العراقية من ١٨٥٦ ــ ١٩٧٢ م ، عبد الجبار عبد الرحمن .

٢٠ ــ المستدرك على فهرست المطبوعات العراقية ١٨٥٦ ــ ١٩٧٢ ، فؤاد قزانجى ، مجلة المورد ، بغداد ١٩٨٠ م .

٢١ ــ قائمة بأوائل المطبوعات العربية المحفوظة بدار الكتب (المصرية) حتى سنة ١٨٦٢ م ، محمد جمال الدين الشوربجى ، القاهرة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م .

٢٢ ــ معجم المطبوعات النجفية منذ دخول الطباعة الى النجف حتى الآن ، محمد هادى الامينى ، النجف ط ١ ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م .

٢٣ ــ الكتب التى نشرت فى مصر ١٩٢٦ ــ ١٩٣٩ م ، عايدة نصير ، القاهرة : الجامعة الأمريكية ١٩٦٩ م .

٢٤ ــ دليل الكتاب المصرى ١٩٤٠ ــ ١٩٥٥ م ، شعبان خليفة وزملاؤه ، القاهرة : الجامعة الأمريكية ١٩٧٥ م .

٢٥ ــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٥٤ ــ ١٩٦٠ م ، د. صلاح الدين المنجد .
٢٦ ــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٦١ ــ ١٩٦٥ م ، د. صلاح الدين المنجد .
٢٧ ــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٦٦ ــ ١٩٧٠ م ، د. صلاح الدين المنجد .
٢٨ ــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٧١ ــ ١٩٧٥ م ، د. صلاح الدين المنجد .
٢٩ ــ حركة التأليف والنشر فى المملكة العربية السعودية ، يحيى محمود ساعاتى ، الرياض : ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
٣٠ ــ معجم المطبوعات السعودية ، شكرى العنانى ، الرياض : ١٣٩٣ هـ .
٣١ ــ الدراسات العربية الاسلامية فى الجامعات الألمانية ، رودى يارت ، ترجمة د. مصطفى ماهر ، القاهرة .
٣٢ ــ الدراسات العربية فى أوربا منذ البداية الى مطلع القرن العشرين ، ريشارد هوتمان وهلموت شيل ، لايتسك ١٩٥٥ م (بالألمانية) .
٣٣ ــ فهارس مطبوعات المجمع العلمى العراقى ، ابراهيم ارسلان ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، المجلد التاسع عشر ١٣٩٨ هـ = ١٩٨٧ م .
٣٤ ــ فهرس مطبوعات جامعة دمشق ، دمشق ١٩٥٩ م .
٣٥ ــ مطابع العراق وثمراتها من سنة ١٨٥٦ الى ١٩٢٦ م ، روفائيل بطى ، مجلة لغة العرب (بغداد) مجلد ٤ ــ ٥ ، ١٩٢٦ م .
٣٦ ــ المطبوعات العربية القديمة فى السنوات ١٩٣٩ ــ ١٩٤٢ م ، كوركيس عواد ، مجلة الرسالة (القاهرة) الاعداد : ٣٥٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٥٢١ .
٣٧ ــ مشاركة العراق فى نشر التراث العربى ، كوركيس عواد ، مجلة المجمع العلمى العراقى (بغداد) المجلد ١٧ ، ١٩٦٩ م .

٣٨ ـــ تاريخ فن الطباعة فى الشرق : لويس شيخو (١٨٥٩ ـــ ١٩٢٨ م) مجلة المشرق (بيروت) المجلد ٣ ، ٥ سنة ١٩٠٠ ـــ ١٩٠٢ م « سلسلة مقالات ضمنها كل ما انتجته المطابع فى شتى الأقطار من الكتب العربية وأثبت أسماء مؤلفيها أو ناشريها منذ ظهور الطباعة الى أوائل القرن العشرين».

٣٩ ـــ المكتبة ، د. جمال المحاسب ، لبنان ١٩٥٦ ـــ ١٩٥٧ م « مراجع منتقاة من الكتب العربية الصادرة فى الأردن ، سورية ، العراق ولبنان» .

٤٠ ـــ المكتبة الشرقية ، باريس ١٦٩٧ م : Herbelot, Biliotheque orientale.

٤١ ـــ معجم الاسلام ، لندن ١٨٨٥ م : T.P. Hughes, Pictionary of Isam.

٤٢ ـــ مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، دمشق ١٩٦٦ م .

٤٣ ـــ بريد المطبوعات الحديثة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٤٤ ـــ مصادر الفكر العربى الاسلامى فى اليمن ، عبد الله محمد الجشى ، صنعاء .

٤٥ ـــ الاعلام ، خير الدين الزركلى .

٤٦ ـــ معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة .

٤٧ ـــ المكتبة العربية « فهرس للمطبوعات العربية التى ظهرت فى أوربا بين ١٥٠٥ ـــ ١٨١٠ م » ، المستشرق الألمانى فردريك شنورير (١٧٤٢ ـــ ١٨٢٢ م) نشر بمدينة هالة سنة ١٨١١ م :
Schnurrer, F, Biblioteca Arabica, .Halae 1811

٤٨ ـــ فهرس المطبوعات الاسلامية ، جوزيى جابر بيلى ، روما ١٩١٥ م .

٤٩ ـــ معجم الكتب العربية (باللغة الفرنسية) : « فهرس للمطبوعات التى تبحث عن العرب مما طبع فى أوربا بين ١٨١٠ ـــ ١٨٨٥ م » ، المستشرق البلجيكى فيكتور شوفين (١٨٤٤ ـــ ١٩١٣ م) .
V. Chauvin, bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes publiés dans I, Europe chrétienne de 1810 - 1885.

٥٠ ــــ فهرست الكتب العربية بالمتحف البريطانى :

Ellis, A.G. Cataloyue of the Arabic books in the British Museum,)
.London, I 1894, II 1901, III Indexes by A.S. Fulton 1935

٥١ ــــ ذيل فهرست المتحف البريطانى الخاص بالكتب العربية المطبوعة ، لندن ١٩٢٦ م :

A.S. Fulton and A.G. Ellis, Supplementary catalogue of Arabic
.Printed books in the British Museum Losdon 1926

٥٢ ــــ الصحيفة الأدبية للدراسات اللغوية والشرقية : اعــداد : كون ، ليبزج ١٨٨٣ ــ ١٨٨٥ م :

Literaturblatt Für orientale Philolgie, hs.g U.E. Kuhn, Leipzig,
.1883 - 85

٥٣ ــــ فهرست الكتب والبحوث الشرقية واللغوية التى طبعت فى ألمانيا من سنة ١٨٥٠ الى سنة ١٨٦٨ م ، تأليف هرمان ١٨٧٠ م :

C.H. Hermann, Bibliotheca orientalis et linguistica, verzeirhnis der
vom jaher 1850 bis incl. 1868 in Demtschland erschienen

Bücher, Schriften usd Abhandlungen orientalicher u. sprachver
.gleichender Literatur, Hallea saale 1870.

٥٤ ــــ مصادر الثقافة العربية ، يوسف أسعد داغر .

٥٥ ــــ تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان (وسيأتى التعريف به) .

٥٦ ــــ فهرست كامل لجميع الكتب الشرقيــة التى طبعت فى ألمانيا وفرنســا وانجلترا والمســتعمرات من ســنة ١٨٧٦ حتى ســنة ١٨٨٣ م ، ليبزج ١٨٧٧ ــ ١٨٨٤ م :

Fricdricik, Bibbliotheca orientalis oder vollstandige Liste aller
1876-1883 in Deutschland, Fraskreich, England u. den kolonion

٥٧ ــــ تاريخ التراث العربى ، فؤاد سزكين .

٥٨ ــــ تاريخ الآداب العربية الى نهاية القرن الثانى عشر للهجــرة (باللغــة الألمانية) ، هامر برغشتال (١٧٧٤ ــ ١٨٥٦ م) ٧ مجلدات :

Hammer Purgstall, Litraturgeschite der Arab thre Beginne bis
ende .de XII

٥٩ ــ المستشرقون ، نجيب العقيقى ، ط ٤ سنة ١٩٨٠ م .

٦٠ ــ المكتبة الشرقية (باللغة الفرنسية) ، ج. ت. زنكر ، ليبسك ط ١ : ١٨٤٠ م . ط ٢ فى مجلدين ١٨٤٦ ــ ١٨٦١ م .

Zenker, J.th: Bibliotheca orientalis. Manuel de Bibliographie orientale.

٦١ ــ فهرست الكتب الاسلامية ، جيوسه غبرييلى (١٨٧٢ ــ ١٩٤٢ م) ، روما ١٩١٦ م :

Gabrieli, G: Manuel di bibliografia Musulmana.

٦٢ ــ موجز فى أدب العلوم الاسلامية (باللغة الألمانية) . كوستاف فان مولر ، ليبسك ١٩٢٣ م .

Pfannmuller, Gustav: Handbuch der Islam Literatur.

٦٣ ــ المكتبة الشرقية (باللغة الألمانية) ، اوغست مولر (١٨٤٨ ــ ١٨٩٢ م)، برلين ١٨٨٧ وما بعدها . « وهو نشرة دورية » .

Orientaliche Bibliographie. A. Muller.

٦٤ ــ فهرست كتابهاى جابى عربى : ايران آز آغاز جاب تاكنون مدير كشور : بيشتر ، آزسال ١٣٤٠ هـ ببعد . تأليف خانبا بامشار ، تهران : جاب رنكلين رسن ١٣٤٤ ش :
وفهرست الكتب العربية المطبوعة فى ايران من ظهور الطباعة الى العصر الحاضر .

٦٥ ــ البيليوغرافيا الوطنية الأردنية : السجل السنوى للانتاج الفكرى فى الأردن ١٩٧٩ م ، عمان ١٩٨٠ م . وغيرها .
و (الدوريات) المعنية بنشر المخطوطات العربية على صفحاتها أو بالاشارة الى نشرها هى أمثال ما فى البيانين التاليين :

المحاضرة الثانية

أهمية التراث

أهمية التراث

الافتراءات ..وحادثة مكتبة الاسكندرية

كتاب التراث

الدوريات العربية

الدوريات الأجنبية

عندما نتحدث عن التراث العربى الاسلامى ، لابد أن نشـير الى ما ورثه العرب قبل الاسلام من أجيال متتابعة ، فكل خلف وراءه ، ينتفع به بما وصل اليه السلف ، ويضيف بعد ذلك الجيل الذى انتفع الى التراث ما يزيد اليه ويسهم فى زيادة الانتفاع بحصيلة التراث الجديدة .

وقد أثبت العرب أنهم كانوا أهل حضارة عريقة ، فضلا عن أن حياتهم المتنقلة سواء للتجارة أو نتيجة الحركة القبلية لبعض البطـون الى الخـارج ، جعلتهم يقتبسون ما يناسبهم ، ويضيف الى حضارتهم وهذا يؤكد أنهم أهـل اقتبـاس وعطـاء .

والعرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن ، وبدافع وسر عقيدة التوحيد وهو الاسلام أن يقيموا دولة ، ويبدعوا حضارة عالمية جديدة ، هم لا ريب من ذوى القرائح والتجارب الحضارية التى لا تتم الا بتوالى الوراثة ، وأصحاب ثقـافة سابقة ومستمرة ، بل استطاعوا أن يقيموا مدنا زاهرة قامت على الأسس المـادية والفكرية للحضارة الاسلامية ، وظلت هذه المدن مع غيرها من المدن الاسلامية لمدة عشرة قرون مراكز للعلوم والآداب والفنـون فى كل من آسـيا وافريقيـا وأوربا(١) ، وهذا ما كشفت عنه التنقيبـات الأثرية ، وأثبتته الدراسـات التى مازالت تبحث عن أبرز مصدر للتراث وهى المخطوطات ، فضلا عما تبحث فيما وصل الينا منها .

ولعل أبرز ما ورثه العرب قبل البعثة المحمدية أمور هامة منها :

أولا ــ احترامهم وتقديسهم للكعبة ، والقيام بباقى الشعائر المقدسة فيها ، ولم يكن ذلك قاصرا على عرب الشمال ، بل على العرب جميعـا وحيثما كانوا وحلوا . ولنا فى كسوة « تبع » للكعبة ، وحادثة الفيل لدليل على ذلك ..

ثانيا ــ اللغة العربية البليغة ، التى تعتبر معجزة العرب ، وما ترتب عنها من شعر وفن ونثر ، فهى من أرقى لغات العالم فى أساليبها ، ومعانيها ، وتراكيبها ، بل تمتاز مفردات حروفها بحروف لا تتوفر فى اللغات الأخرى قاطبة .

---

(١) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

ثالثا — الآثار والمخلفات الأثرية : وقد عثر على عديد منها يرجع تاريخه قبل الاسلام سواء فى الشمال أو الشرق . أو الغرب : أو الجنوب من الجزيرة العربية . ومنها ما عثر عليه فى منطقة « الفاو » وجميعها تعبر عن التراث الفكرى والعمل الذى وصل اليه العرب ، وما تركه الخلف للسلف ، هذا التراث الذى يحتوى على مجموعات من النظم السياسية والدينية والقوانين التجارية والمدنية.. وما الى ذلك من تراث فكرى متقدم ، فضلا عن العلوم الهندسية مثل (شق الطرق داخل الجبال لتسهيل عملية العبور بين المراكز التجارية).

ونزلت الديانة الخاتمة « الاسلام » . وحمل الدعوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دين للعالمين جميعا . واستطاع الرسول أن يبصر المؤمنين والمسلمين بمسئولية نشر الدعوة ، فحملها من خلفوه ، ونشروها ، ولم تمض سنوات حتى لاقت شغف الآملين فى الهداية ، والباحثين عن الأمان الروحى والفكرى فى المشرق والمغرب ، وكسبت أرض فارس والشام ومصر الاسلام ، وصارت كل منها مركزا لنشر الدعوة بالفكر والعمل ، وأقام الدين الاسلامى فى العالمين حضارة دهش لها المعاصرون ومن خلفهم من بعدهم ، واعترف بها المنصفون من المفكرين والعلماء فى العصر الحديث وأدرك الجميع أن وراء ذلك كله الايمان بالله واعتناق دين الاسلام .

ولقد أدركت الدول فى العصر الحديث أهمية التراث ، لذلك أولت الأمم الناهضة تراثها عامة . والعلمى منه خاصة اهتماما كبيرا باعتباره ميراث الأجداد . ورأى الجميع أن المتنكر لتراثه أو الغافل عنه يصبح بلا هوية حضارية . فالتراث الحامل للقيم كلها يعطى حياة الشعوب طابعا ولونا مميزا ، وتكتسب منه أسس بناء الانسان فيها ، ومن ثم يتحدد على أساسها نوع ومجال فكرها الدينى والدنيوى الذى تعتنقه .

فما التراث الا حصيلة ضخمة من التجارب والممارسات بأشكالها المختلفة ومناحيها المتعددة التى تهتم بالحياة الفكرية ، الدينية والدنيوية . فهو عميق الجذور فى الأمم ، لذلك فانه يمثل فكرها وعقلها ، وشخصيتها ، بل هو الذى يميز أمة عن غيرها من الأمم ، أى أنه ذات الأمة . ولعل أكثر شيء ادراكا فى أهمية التراث ووجوب الاهتمام به ودراسته أمرين :

(١) يرجع فى ذلك الى كتاب جواد على : العرب قبل الاسلام .

الأول : أنه يربط شخصية الأمة بماضيها ويجعلها بارزة بين الأمم .

الثاني : أنه يكشف أشياء جديدة تستنير بها الأفكار المعاصرة ، بل كثيرا ما تفتح الأذهان منها وتؤدي الى ابتكار أشياء جديدة مستندة الى أصول قديمة، فيكون لها من التفريعات ما يتناسب مع واقع الأمة وواقع البيئة الجديدة التى يعيشها الانسان(١) .

واذا كان هذا حال الأمم عامة ، فالعرب والمسلمون أولى البشر اهتماما بتراثهم ، لأنه ليس تراث الأجداد فحسب ، بل هو ثمرة ونتاج الفكر الدينى الاسلامى ، والعلماء المعتنقون والمؤمنون بالاسلام دينا وعقيدة ، الاسلام الذى جاء للعالمين والبشر جميعا ، أى جاء انسانيا شاملا ، ومن ثم كان التراث العربى الاسلامى يحتوى على الفكر الانسانى بشموله العام .

اهمية التراث

والتراث العربى الاسلامى ــ شأن كل تراث ــ يعبر عن شخصية الأمة التى تنفرد بها عن غيرها . وفى عصر الحضارة الاسلامية الزاهر كان العرب هم القواد والرواد ، ثم تبعهم من دخل الاسلام . لأن أهمية التراث العربى الاسلامى ترجع الى ايمان المسلمين منذ عصورهم الأولى بأهمية العلم ، ولقد أبرز « معاذ بن جبل» رضى الله عليه هذه الأهمية فيما نسبه بعض الرواة عن سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم . فقال معاذ . قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم فان تعلمه حسنة ، وطلبه عبادة ، وبذله لأهله قربة ، العلم مدار سبيل أهل الجنة ، والأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخاوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الاخلاء ، والسلاح على الأعداء ، ويرفع الله به قوما فيجعلهم قادة أئمة تقتفى آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، والعلم حياة القلب من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف . يبلغ بالعبد منازل الأحياء ، والدرجات العلا فى الدنيا والآخرة . الفكر فيه يعدل الصيام ، ومذكراته القيام ، وبه توصل الأرحام ، ويعرف الحلال من الحرام » ويرى ابن عبد ربه أنه من قول معاذ بن جبل(٢) .

---

(٢) قضايا وآراء ، سلسلة ندوات أعدها الدكتور عبد الله عبد الرحيم ١٩٨٥/١٤٠٥ ص٢١٢،٠ .

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

ــ حاجى خليفة : « كشف الظنون » جـ ١ ، ص ١٨ ١٩ .

(كشف الظنون عن اسامى الكتب والظنون) تحقيق محمد شرف الدين يالتقيايا ورفعت بيلكة الكليبى ، استانبول ، وكالة المعارف ١٩٤١ ــ ١٩٤٣ م .

وكما أن الوطن هو المهد الأول للانسان ، يحن اليه كلما بعد عنه المطاف في بلاد الله تعالى ، ويشعر في قرارة نفسه بحبه وفدائه من أجله ، والاستهانة ببذل المال والنفس في سبيل الحفاظ عليه ، ويدين له أبدا بالولاء والاعتزاز ، كذلك يعد التراث الفكرى هو المهد الأول لتفكيره ولنفسه وروحه ، وأى انفكاك بين المرء وتراثه ، يخلق منه امرءا تتجاذبه أطراف الضياع وفقدان الشخصية والنفس . وضياع الشخصية والنفس مدعاة للتفكك والتخلخل ، والشعور بالبؤس والمذلة اللتين لا تطيب معهما الحياة(١) .

ولقد صحب ما لحق المسلمين من تأخر في العصر الحديث ، دعوات هدفها الأساسى طمس معالم الشخصية العربية الاسلامية عامة والاسلامية خاصة ، وربطوا بين هذا التأخر - وخاصة المادي - وبين استمرارنا في الاعتزاز بالتراث في الوقت ، وينهل أصحاب الدعوات أنفسهم بما في تراثنا من قيم وعلم ، ثم تطويره بأسلوبهم ، وتقديمه للأمة العربية على أنه من صنعهم ومن ابتكاراتهم ، وعلى سبيل المثال اكتشاف دورة الدم الصغرى ، فقد كشفها الطبيب المسلم ابن النفيس ، فاقتبسها الانجليزى وليام هرفى ونسبها الى نفسه ، وتجاهل صاحبها .

وهذه محاولة لمناقشة أهمية التراث ، سوف نعرض فيها لبعض اعترافات علماء الغرب عند عرض عنصر من عناصر الأهمية حتى يكون دليلا .

أولا - التراث العربى الاسلامى ، المخطوط منه والمطبوع ، ضخم متنوع ، يشتمل على الشئون الدينية واللغوية والأدبية والتاريخ ، كما هو غنى أيضا بكتب الطب ، والصيدلة ، والفلك والرياضيات ، والفزياء والكيمياء والجغرافيا والفلاحة، والانشاءات والتعدين ... الخ . كما يلحق به بعض مؤلفات في التنجيم والطلسمات والسحر .. ولكل كتاب في هذه العلوم نصيب من الأهمية ، ويستحق الاهتمام والدراسة ، لما قد تتكشف عنه من حقائق(٢) .

نتتهى الى أنه تراث انسانى دينى وحضارى ، دينى ودنيوى . أى هو متكامل يجمع بين أحكام الوحى الالهى ، ونتاج العقل البشرى ، وفى ظله التقى العلم

(١) عبد السلام هارون : المرجع السابق ، ص ١٤ .
(٢) د. احمد سعيدان : مقال التراث العربى ، المرجع السابق ، ص ٨ .

والايمان : فلم ينفصم قلب عن فكر ، ولا روح عن مادة ، ولا دين عن دولة ، ولا آدب عن علم .

كما أن أبرز سمة فى هذا التراث كله أنه مكتوب باللغة العربية ، هذه اللغة التى ينادى أعدائها الآن بأنها لغة الدين الاسلامى والأدب فحسب ، ويهدم هذا الادعاء هذا التراث الذى يبلغ ملايين الكتب ــ كما سيأتى فيما بعد ــ منها ما خرج الى النور ، ومنها ما هو حبيس المكتبات والمتاحف لهدف أو آخر .

ومن واقع تأييدنا لتعريب جميع العلوم التى تدرسها معاهدنا والكليات الجامعية فى الوطن العربى ، يجب أن يمتد اهتمامنا بما يتجاوز المخطوطات العربية الى ما سبق نقله الى اللاتينية عن طريق من اعتنوا بأهمية التراث العربى فى فجر عصر التنوير والنهضة فى العالم الغربى ، وليس هذا فحسب ، بل يمتد الى المخطوطات الفارسية والتركية التى كتبت فى أواخر عهد الوحدة الاسلامية فى العالم الاسلامى العربى ، وذلك لاعادة الغريب الى وطنه ، وتصحيح المنحول المشوه الى صحته ، ووضع الأمور فى نصابها الصحيح .

٤

ثانيا ــ التراث العربى الاسلامى عامة ، بكل فروعه كان ومازال وسيلة مؤثرة لغرس الاسلام وآمال فى قلوب عدد كبير من المسلمين وغير المسلمين . وحينما نقول (مازال) نقصد أن نشير الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الأنبياء » والعلماء فى هذا العالم المادى ركن فى التقدم ، فعندما يصلون من خلال دراساتهم وتجاربهم فى موقف نص عليه كتاب الله الكريم من ألف وخمسمائة سنة ، أو تستعص عليهم مشكلة لا يجدون حلا الا فى القرآن الكريم ، أو كتب التراث العربى الاسلامى ، هنا يدركون أن الاسلام حق ، وأنهم أولى الناس باتباعه مهما بلغت الضغوط ، وأن عليهم أمانة الدعوة اليه . مثلهم فى ذلك ما جاء فى كتاب الله الكريم فى حوار الكهنة وفرعون وموسى : (قال ألقوا فلما القوا سحروا أعين الناس وأسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبو هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون)(١) . ولما حاول فرعون ارهابهم بالقتل

(١) سورة الاعراف ، آية ١١٦ ــ ١٢٢ .

والتمثيل بالجثث ، رد عليه السحرة بايمان شديد أمام الملأ ، وكانما ينادون هذا الملأ باتباع الديانة الحق (قالوا انا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا وتوفنا مسلمين (١) .

وهكذا العالم المادى الآن ، يحاول ارهابنا بما توصل اليه من أمور مادية مهولة ، بعد أن اقتبس أساسها من تراثنا العربى الاسلامى . ولو رجعنا الى هذا التراث فى تفسير القرآن ، وعلوم الاسـلام لنجد فيها ما لا يجعلنا نقبل هـذا الارهاب ، ولوجدنا عندنا من العلوم العملية ما يساعدنا على بناء قاعدة علمية قد تكون أكثر تقدما فيما لم يصل اليه العالم المادى ، بل ستقيم القاعدة العلمية على أساس انسانى يفرض نفسه على الارهاب . كما سيأتى فى النماذج التى سـوف نوردها فيما بعد .

هذا فضلا عن آن تراثنا لا يؤمن بفصل الأخلاق عن العمل والعلم ، سواء فى العلوم العلمية أو الفن أو السياسة أو الاقتصاد ، بل والحرب أيضا ، فهو تراث يعبر عن رسالة هدفها أن تتمم مكارم الأخلاق .

وأمامنا فى العصر الحديث مثال لأثر التراث العربى الاسلامى الذى يحمل الحضارة الاسلامية بين سطوره ، ويشع بها على العالم . فيرى السيد الفيلسوف « روجيه جارودى » فى حديثه من الاسلام أن حضارة الغرب ــ فى عصرنا هذا ــ حضارة بلا أهداف ، وأن الاسلام يمثل الحياة الكاملة التى تعرف أهدافها .

ورغم أن السيد جارودى له مكانة عليا فى الفكر المعاصر ، وفكره ليس من ذلك النوع المجرد الأجرد الخالى من الروح والحيوية ، بل فكرا فعالا مستجيبا للحياة وظروفها ، ولم يكن يتحرج من الانتقال بفكره من طرف الى طرف ، اذا وجد متابعة الحق ــ وفق رأيه ــ تقتضيه مثل ذلك الانتقال ، وهذا ما حـدث فعلا ، فقد كان شيوعيا ، ثم تحول الى الاسلام ، وهيهات بين الاسـلام الدين المنزل ، والشيوعية الفكر الموضوعى على أسس نفعية غير واقعية آو انسانية .

على أن أهم ما يلاحظ على اسلام « جارودى » هـو قيامه على أسـاس « الحضارة » التى قرأها فى كتب التراث ، وليس على آساس العقيدة ، وذلك

(١) سورة الاعـراف ، آية ١٢٥ ــ ١٢٦ .

لما وجده ــ بعد دراسة ــ من نقص وعيب فى حضارة الغرب ، اذ وجد أنها حضارة بلا هدف ، تعمل دون أن تؤدى الى ارتقاء الانسان من حيث هو انسان . هذا مع ملاحظة أن « جارودى » رغم معارضته وهجومه على حضارة الغرب فهو مسلح بثقافة الغرب نفسه ، وهذا الموقف المنطوى على مفارقة ، كثيرا ما نراه عند أعداء العصر وحضارته (١) .

على أننا نصل فى النهاية الى أن كتب التراث العربى الاسلامى كان لها دورها فى وضع السيد جارودى وأمثاله على أعتاب ومدخل أبواب الاسلام ، ونرجو أن يستكمل هؤلاء دراساتهم لفهم الحضارة الاسلامية على حقيقتها ، وهى حضارة أساسها « العقيدة الاسلامية » ونأمل أن يتأكد اسلامهم بتسلحهم بالعقيدة لا بالحضارة فحسب . ولكتب التراث العربى الاسلامى دورها فى ذلك أيضا .

ثالثا ــ الرجوع الى الماضى يعتبر ارواءا للجذور الأصلية ومنها ، وهو أمر ضرورى لاستمرار الحيوية فى الفكر والتراث العلمى بشموله الأوسع ، لانهما سلسلة متصلة الحلقات اللاحق منها متمم للسابق . فالحضارة الجديدة ــ أيا كان نوعها ــ لا تولد من العدم ، وانما تقتبس من القديم ، وتسهم فيه بالاضافة والتعديل ، ثم تقدم حلقة جديدة من السلسلة الحضارية والفكرية .

فحضارة الاغريق تأثرت بحضارات الرافدين والمصريين والعراقيين ، ثم أضافت اليها . وفى عصر الاحياء أو التنوير أو فجر عصر النهضة الأوربية الحديثة، قام الأوربيون بالاقتباس من الحضارة العربية الاسلامية فى الأندلس وغيرها ، ثم رجعوا الى تراثهم أيضا أو التراث اليونانى واللاتينى وعملوا على احيائه .

ومن عظمة تراثنا أنه كان يحتوى على هذا التراث الاغريقى اللاتينى ، وكان مكتوبا باللغة العربية ، فرجع الأوربيون اليه لتحقيق ما فقدوه من التراث المنشود لهم ، وترجموا من تراثنا الكثير من أجزائه الى لغاتهم اللاتينية ، بل وبنوا على هذا وذاك أسس انطلاقهم الى الحضارة الحديثة التى يعايشها العالم الآن (٢) .

---

(١) د. عبد الوهاب أبو النور : مقال « مقترحات لجمع وخدمة التراث » المرجع السابق ، ص.٢٠
(٢) د. زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ١٢٤ ــ ١٢٧ ، دار الشروق ــ القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

فالرجوع الى التراث ليس نقطة ضعف ، أو سبب نقص فينا ، بل هو الأسلوب الأمثل لاحياء الشخصية الفكرية ، ومن ثم الحضارة الحاوية على أسس ثابتة وذاتية .

رابعا — الوصول الى حقيقة هامة ، وهو أن التراث العربى الاسلامى لم يقم أساسه على الحضارة الاغريقية ، أو أنه ناقلا — فقط — لبعض هذه الحضارة أو عنها كما يدعى طائفة من المستشرقين ومن تتلمذ على أيديهم من العرب أمثال طنطاوى جوهرى . وأحمد رضا ، وفريد وجدى وغيرهم ممن كانت تغلب على مؤلفاتهم شكل دائرة المعارف ، ويعتمدون فى مؤلفاتهم على الفكر الذى يتصف بالمدح والتمجيد ، فهذا الفكر يخدر ضمير الشعوب الاسلامية ويسليها . فهم يرون مع أساتذتهم المستشرقون على وضع الحضارة الاسلامية العربية أمام تحديات واستشارات وذلك باعلانهم أن ما ساهم به العرب فى تنمية العلوم ابان حضارتهم لا يعدو مجرد تبليغ ما أنتجه اليونان والرومان . فمن المؤسف أن يعزى وينسب أحد تلاميذ المستشرقين وهو محمد فريد وجدى ، علم الجبر الى اليونانى « ديوفانت » ، ولو تحرى الحقيقة بين كتب التراث ، وتعمق فى الدراسة بصفته عربى مسلم لتيقن تماما أن الجبر أتى الى الوجود فى المناخ الذى أوجده القرآن الكريم(١) والمنهج الاسلامى . وسنكتفى بالرد على ذلك من نفس المستشرقين الأوربيين ، وهى سيدة مستشرقة تسمى « زيغريد هونكة » ، فرغم أنها كانت احدى وسائل الاستشراق وتعبر عن أسلوب منه ، من الأساليب التى تخصصت فى الصراع الفكرى فى العالم العربى ، الا أنها عرضت فى كتابها المشهور(٢) اعتراف هام ، يمكن أن نوجزه فيما يلى :

لقد اعترف الجميع للعرب بفضلهم فى ايصال أعمال الفلسفة وانتاج العلماء القدامى وآثارهم الى العلوم الحديثة .

وبهذا الثناء الجزئى الذى يهمل الدور الكبير الذى قام به العرب فى تأسيس العلوم وابتكار تخصصات فيها ووضع طرق وأساليب لدراستها والبحث فيها ، وأثر ذلك على الثقافة الغربية عبر المعابر المختلفة فى الأندلس وصقلية والحروب

---

(١) مالك بن نبى : انتاج المستشرقين واثره فى الفكر الاسلامى ، ص ٣٤ ، ٣٦ ، القاهرة ، ١٩٧٠.

(٢) زيغريد هونكة : شمس العرب تستطع على الغرب « اثر الحضارة العربية فى اوربة ، ص ٣٩٩ نقله عن الالمانية فاروق بيضونى ، وكمال دسوقى ، بيروت — الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ م.

الصليبية .. وغيرها .. كل ذلك أنكره الأوربيون ويمثلهم المستشرقون المتحاملون ويرون مع مؤرخيهم أنهم تخلصوا من واجبهم تجاه الصرح الكبير الذى تركه العرب المسلمون ، وان كنا نرى ونؤيد رأى المستشرقة أنهم بذلك يرتكبون ظلما صارخا بسكوتهم عن أفضال العرب الأخرى سوى النقل .

ولقد عادت المستشرقة فى مكان آخر من كتابها لتوضيح قيمة التراث الاغريقى ، ودور العرب وفضلهم عليه ، ثم فضلهم على العالم الغربى . فبدأت بالاشارة الى أن العلماء الاغريق عملوا رغبة فى البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات، ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة الآراء النظرية . ولم يبدأ البحث العلمى التجريبى الحق القائم على الملاحظة والتجربة الا عند العرب (١) .

٦

خامسا ــ التراث العربى الاسلامى يكشف للعلماء الغرب أن العرب صانعوا البحث العلمى التجريبى الحق القائم على الملاحظة والتجربة ، ولذلك ففى كتب التراث يكتشف الباحث أنه فقط التراث الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه . فالبحوث التى يشملها كتب التراث الأولى وضح فيها أنها بدأت تندرج من الجزئيات الى الكليات ــ كما سيوضح فيما بعد ــ ، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين ، ولعل ذلك أساسه الفكر الدينى الاسلامى الذى يأمر بالتأصل والاستنتاج ، بل والاجتهاد الدينى كان مثل أمام العلماء العمليين .

ومن مسجلات التراث تبرز الحقائق العلمية كثمرة لمجهودات مضنية فى القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الكلل ، كما أنه مملوء بالتجارب العلمية الدقيقة التى لا تحصى ، وأن العرب العلماء المسلمين اختبروا النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارا وتكرارا ، فأثبتوا صحة الصحيح ، وعدلوا الخطأ فى بعضها ، ووضعوا بديلا للخاطىء منها متمتعين فى ذلك بحرية كاملة فى البحث والفكر ، وكان شعارهم (الشك هو أول طريق المعرفة) ، تلك الكلمات التى عرفها الغرب بعدهم ثمانية قرون (٢) وقال فى ذلك قبة بن فضفلة « الشك محاماة عن اليقين »(٣) .

---

(١) زيفريد عوتكة : المرجع السابق ، ص ١ ــ ٤ ــ ٤٠٢ .
(٢) زيفريد هوتكة : المرجع السابق ، ص ٤٠١ .
(٣) ابن عبدربه : العقد ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

وكثيرا من النماذج الهامة التى يحولها التراث ، يجيلها العلمـــاء العرب فى العصر الحديث : فيروى أحد العلماء المتخصصين فى التحقيق والدراسة المتأنيــة ما قابله من مثل ذاك :

اذكر انني كنت فى مجلس ضم طائفة من المشتغلين بالفلسفة ، فانبرى أحـد الأساتذة يقول : أن أحدث العلوم الفلسفية الآن أصبح يستخدم الرموز فى حل مشاكل الفلسفة ، وأن مشاكل الفلسفة أضحت شبيهة بمسائل الجبر والمعادلات الرياضية . فقلت ــ عالم التحقيق ــ له : أن أسلافنا العرب قد سبقوا فلاسفتنا المعاصرين فى هذا الاتجاه الذى نوهت عنه . وذكرت له أننى قمت بنشر رسـالة للرئيس ابن سينا عنوانها « الرسالة النوروزية » تكلم ابن سينا فيها عن فلسفة الوجود مستخدما حروف الهجاء (ا ب جـ د ، هـ و ز ، ح ط ى ، ك ل م ن ، س ع ف ، ص ق ر) فى معادلات رياضية ينتهى بكل منها الى أحكام فلسفية خاصة ، وهذه الرسالة ضمن نوادر المخطوطات التى قمت بنشرها سنة ١٩٥٤ م ، فأخذت الدهشة صاحبى فى السبق الفنى .

وأوضح المتخصص والعالم فى التحقيق : ان فى التراث العربى الكثير من المعجزات الفريدة التى لم تتكرر فى عالم التأليف الى الآن(١) .

وهناك مثل حكى أمامى فى العصر الحديث أن أحد الرجال الدبلوماسيين مما يشهد له بالدراسة الدينية والعلمية سأل أحد المفكرين المصريين المعاصرين بعد أن أصبح رئيسا لاحدى دور النشر باستكمال كتاب « تفسير القرآن » للطبرى ، فرد عليه أن أحد المفكرين المعاصرين كتب تفسير شامل وللأسف أن الأخير غير متخصص فى هذا العلم .

ولعل هذا يوضح لعلمائنا قلة وعيهم بل وجهل بعضهم لأهمية التراث العربى الاسلامى ، وأن الأوربيين يحبسون مجلداته فى المتاحف والمستودعات ، ويخفون النادر منه وذلك ليحصلوا على ما فيه من علم ، ثم يصدرونه لنا على انه من صنعهم. وهذا مثال من آلاف الأمثلة التى يصعب حصرها نتيجة لجهل من تتلمذ على أيديهم أيضــا .

سادسا ــ هناك طريقتان فى النظر الى تراث أمة من الأمم ، فاما أن ينظر

(١) عبد السلام هارون : التراث العربى ، ص ٨ .

اليه من حيث تأثيره على غيره ، أو من ناحيــة منجزاته(١) . والتراث العــربى الاسلامى غنى بالطرقين .

فيعجب « ول ديورانت » مؤرخ الحضارة بتراث العرب أشد الاعجاب فى مجلده الرابع من كتاب الموسوعى « تاريخ الحضارة » ، ويأسف أشد الأسف لأن علم الباحثين بهذا التراث ناقص أشد النقص ، وحاول أن يرجع ذلك بسبب دفن مخطوطاته أو حبسها فى مكتبات اسطنبول ودمشــق والقاهرة والموصــل وبغدادها ودلهى ، هذا فوق ما يوجد من مخطوطات بالاسكوريال قرب مدريد ، وأن ما نعرفه ليس الا قدرا ضئيلا مما تكشفت عنه قرائح مؤلفى التراث العربى الاســلامى (٢) .

أما « سارتون » مؤرخ العلم وصاحب المجلدات فيه ، فيذكر أنه أغفل شأن العرب مجاراة لمن يرون أن تراثهم هو تراث اليونان فى ثوب عربى ، فلما نهض بدراسة التراث العربى الاسلامى أدرك خطأه وعدل منهجه ، ثم أولى العرب من التقدير البالغ مما جعله يصف تراءهم « بالمعجزة العربية » (٣) .

فاذا كان هذا حال التراث العربى الاسلامى ، فأولى الناس باعطائه ــ وليس منحه ــ الأهمية والبذل والدراسة العرب أنفسهم ، وليعلموا أن الاهتمــام به مفخرة لهم ، كما أن هذا التراث يمثل مركز بعث لهم لتحــديدا مكانا قويا فى العالم المعاصر . لا كما يدعى صاحب المثال الأخير .

ويرى « بارنز » أن حضارة المسلمين كانت أكثر الحضارات تقدما فى العصر الوسيط ، كما يرى ــ على سبيل المثال ــ أن أقدر مؤرخى هذا العصر كانوا من المؤرخين المسلمين حيث وصل بعضهم فى عرضه ودراسته وتأريخه الى ما لا يصل اليه غــيره الا فى القرن الثامن عشر الميــلادى ، ومنهم ابن خلدون الذى فاق مؤرخى العصر كله فى العالم العربى الاسلامى والغرب المسيحى ، هــذا التفوق الذى وضح فى تفهمه لمبادىء التقدم الانسانى(٥) والتطورات التى مر بها ، بعد نظر وتحقيق ، وتقديمه التعليلات الدقيقة بكيفيات مراحل كل حلقة من سلسلة التطورات الحالية ، رغم ان العرب والمسلمين كانوا من مؤسسى هذه النظم ، بل المجتمعــات .

---

(١) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ، القسم الثانى ، تعريب حسين مؤنس واحسان صدق العمد (سلسلة عالم المعرفة) الكويت ، ذى الحجة ١٣٩٨ هـ ، ص ١٣ .

(٢) توفيق الطويل : العرب والعلم ، ص ٨٤ ــ ٨٥ ، القاهرة ١٩٦٨ م .

(٣) توفيق الطويل : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٤) انظر المقدمة حول علم الاجتماع .

واذا نظرنا أيضا الى التكنولوجيا الحديثة ، فسوف يعترضنا سؤال هام ، ما هو دور التراث العربى الاسلامى فيه ، وهل كان للعلم العربى الذى يحتويه التراث أثر أو دور فيه ؟؟ ..

وللاجابة على السؤال ، نكتفى بوضع ابتكارين ضمهما التراث العربى الاسلامى ، وكلاهما من صنع علماء عرب مسلمين ، هذين الابتكارين لولاهما لم كان للتقدم التكنولوجى فى القرن العشرين فى علم الطبيعة وعلم الرياضيات بصفة خاصة ، والتطور العلمى بصفة عامة دور فعال هام . فالتقدم التكنولوجى فى العصر الحديث يشمخ فى فصل العلم النووى ، الذى لا يمكن للباحثين فى هذا المجال أن يحصلوا فيه على طائل لو فصلوا دراساتهم عن الطبيعة وعلومها ، كما لا يمكن أن يستفيدوا أن يحصلوا على ما يحتاجونه أيضا لولا ما يجدونه مهيئا تحت أيديهم من طرق حساب سرعتها فوق كل سرعة ، يمكن تصورها فى عمليات الآلات الحاسبة الالكترونية .

فهل يمكن لهذه الآلات أن تقوم بعملياتها الحسابية لو لم يهيىء قبل النظام العشرى الذى نستطيع به كتابة رقم (أفوجدرو) ـ على سبيل المثال ـ بخمسة رموز فقط ، أو سبعة اذا تحرينا دقة أكثر ؟

ونستكمل الاجابة بتساؤل ثانى ، أليس الفكر العربى الاسلامى والتطبيق له منهم صاحب الفضل فى وضع هذا النظام العبقرى لذلك المناخ العقلى الذى كونته القيمة القرآنية فى المجتمع الاسلامى ؟ كما أننا لو تساءلنا عن دور « الجبر » فى تطوير علم الحساب ، بحيث يتحول من علم الأرقام المحسوسة الى علم الرموز المجردة ، لأدركنا بعد الأخذ فى حسابنا أن اسم الجبر نفسه عربى من ناحية الصيغة والاشتقاق ، ولأدركنا ما يدين به العقل الانسانى الى العقل الاسلامى من وسيلة لا يستطيع بدونها السير والتقدم فى ميدان علوم التقدير والضبط(١) .

هذه الأمثلة ، وهذه الاستنتاجات للمستشرقين الدارسين لبعض نشاطات التراث العربى الاسلامى توضح لنا أن هذا التراث ذا الأصول الدينية ، والجذور الأخلاقية ، هو من الثراء والخصوبة الداخلية ما يجعله صالحا للنماء والتجدد الذاتى ، وله من المرونة ما يجعله قادرا على مواجهة التطور . وهذا يعنى أيضا أنه

(١) مالك بن نبى : انتاج المستشرقين ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

مرن له قدرة فائقة على التأثير ، وأنه غنى بالمنجزات ما يجعله يعطى أكثر مما يأخذ مع الثبات فى الأصول والجذور . [٨]

سابعا ــ للتراث العربى أهمية فى تحديد شخصية الأمة العربية ودورها فى العالم المعاصر ، فهو عالم تتصارع فيه الآراء والأفكار والمذاهب ، وتقف الأمة العربية وسط هذا الصراع فى حيرة من أمرها . ولو عادت هذه الأمة الى تراثها وخاصة الدينى والتاريخى والاجتماعى ، ليجد بين الكتب ما ينير فكرها ووعى أبنائها ، فكم من فئة سواء من أهل الكتاب (النصارى واليهود) قد سبق لهم الوصول الى نظريات فكرية هدامة ، وتحوير وتزييف لنصــوص من الأحاديث والتفاسير ، اكتشفها العلماء المسلمون وسجلوها فى الكتب لتكون هداية للدارسين العرب والمسلمين فيما بعد ، وكم من حركات هدامة ظهرت فى العصر العبــاسى كشف العلماء المسلمون أهدافها وخلفياتها والجماعات التى حركتها فى الخفاء ، وسجلوها فى الكتب حتى لا يقع خلفائهم من شباب العرب والمسلمين فى مثلها ، مثل حركات الراوندية المزدكية والبابية .

الافتراءات .. وحادثة مكتبة الاســكندرية

ولم تسلم الكتب التاريخية من تزييف حقائق ، والقاء التهم لتشويه العالم الاسلامى والعربى ، وعلى سبيل المثال المؤرخ ابن العبرى الذى ادعى أن العرب أحرقوا مكتبة مدينة الاسكندرية حين فتحها ، ومما يؤسف له أن تتناقلها عنه بعض الكتب التاريخية ، ويقع فى الخطأ بعض المؤرخين بنقلهم للرواية دون نقدها نقدا موضوعيا ، ثم تناقلها بعض المحدثين أصحاب الأغراض المعادية للاســلام أمثال المستشرق العربى جورجى زيدان ومن على شاكلته ، وظلت هكذا الى أن نقدها بعض المؤرخين المستشرقين بطريقة موضوعية ، وأثبت كذبها بأدلة تاريخية قاطعة ومؤكـــدة .

والخبر الذى تناقلته الكتب هــو أن « يحيى النحوى » تكلم عن (عمرو ابن العاص) فى شأن المكتبة التى أنشــأها (بطــولا ماوس فلادلفــوس) أى (بطليموس فيلادلفيوس) ، وطلب منه الافراج عن كتب الحكمة فى الخــزائن الملوكية للحاجة اليها ، فاستأذن عمرو الخليفة فى شأنها فجاءه الأمر باعدامها ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية ، فاستغرق حرقهــا ستة أشهر .

هذه الرواية أول من افترى بها ابن العبرى فى القرن السابع الهجرى ، شأنها شأن روايات أخرى مزيفة ، ولقد نقدها المستشرق الايطالى بما يلى[1] :

(أ) ان يحيى النحوى (القراماطيقى) لم تكتحل عيناه بالفتح الاسلامى ، فمات قبل أن يصل عمرو بن العاص الى مصر بأكثر من ربع قرن .

(ب) ان الاستنادات التى أقامها ابن العبرى من خوف عمرو من انتشارها ، أمر لم يثبته التاريخ على العرب .

(حـ) اذا كان عمرو قد أمر بتوزيعها على حمامات مصر ، فمن الذى يضمن عدم تسلل الأيدى الى هذه الحمامات لتأخذ منها ما تريد ، وأن هذا الاجراء لا يبعد عن ذكاء عمرو وفطنته .

(د) لم يسمع بهذا الخبر الا فى القرن السابع الهجرى ، وحاول بعض المؤرخين المتأخرين ارجاعه الى اسحق الراهب ، بيد أن ابن النديم تكلم عن اسحق الراهب ، ونقل عنه خبر بناء المكتبة فى عصر بطليموس ولم ينقل عنه خبر عن حرقها .

(هـ) أن الخبر كله لا يوجد فى النص السريانى لكتـاب ابن العبرى (مختصر الدول) . وهذا يؤكد أنه دس على النسخة العربية .

(و) عرفنا من بعض المـؤرخين العرب أن ينيل اسمه باليهـودى ، والمسيحى ، والعجمى .. وغيرهم ، ولكن دائما هناك محاولة لصبغ هؤلاء بالصـبغة الصهيونية كما فعل مع البطريق (أوتيخيوس) مؤرخ الاسـكندرية ، و (يوحنا أسقف نقيوس) الذى كتب فى فتح العرب لمصر .

والآن نحن أحوج الى الرجوع الى تراثنا ودراسته لمواجهة ما يشوهه ، لأن تشويهه تشويه لفكر وقيم الأمة العربية الاسلامية ، ومن ثم ضعف لشخصيتها، وهو ما تنفيه كتب التراث ، وحتى نعتز بشخصيتنا يجب أن نعيد تجديدها وفقا للأسس التى بنيت عليه فكريا وعقليا وروحيا .

نكبات التراث

ثامنا — لن نكون مغالين فى أهمية التراث العربى الاسـلامى اذا قلنا أن الاضطرابات السياسية والفوضى الفكرية التى ضربت أطنابها فى آرجاء أراضى العالم العربى اليوم نتيجة لأن الشباب عامة والمثقفين خاصة لم تتح لهم الظروف

(١) امين معنى : التاريخ العربى ومصادره ، ج ١ ، ص ٢١٩ — ٢٢١ عن سلسلة العرب فى احقاب التاريخ .

فى سلسلة « العرب فى احقاب التاريخ » ص ٢١٩ — ٢٢١ .

الاتصال بما تحتويه كتب التراث فى الأدب العربى القديم خاصة ، وكـذا العلم العربى الذى استفاد منه صاحبو الحضارات والتكنولوجيا الحديثة ، بل من المؤسف أنهم ينظرون الى هذا اللون الثقافى والتنوع العلمى الى أنه شيء غريب عنهم .

والأدب العربى القديم يشمل الانتاج الخصب المخطوط فى التراث ، والذى يبدأ من عهد الجاهلية حتى آفاق الخامس الهجرى(١) .

أما العلم النظرى والعملى ، ويشمل علوم التفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الدينية ، وأيضا العلوم العملية مثل الطب والكيمياء والفلاحة والطبيعة والرياضيات والفلك فضلا عن علوم الكلام والتاريخ والجغرافيا . فهى الانتاج الواسع الوفير الذى يحتويه التراث منذ بداية القرن الثانى ، ان لم يكن منذ القرن الأول الهجرى الى القرن العاشر الهجرى .

وهذا التحديد لا يعنى تحديدا قطعيا ، وانما يشتمل على فترة اعداد قبلها ، وفترة تقلص متدرجة بعدها . وما هى الا الفترة التى ينضج فيها التراث بشـكل واسـع .

لقد نسى بعض أبناء العالم العربى والاسلامى أن الاسلام جاء كيانا متكاملا هدفا ووسيلة ، لذلك غزر الانتاج لعلماء العصور الاسلامية على تواليها ، بعد أن فهموا الهدف .

وان اعجاب البعض بأن حضارة الغرب فيها علم للعلم ، وآلة للآلة نفسـها دون هدف يستهدفه العلم وتستهدفه الآلة ، راجع أيضا الى عدم فهمهم ووعيهم بمعنى « التكامل فى الهدف والوسيلة » مما دفعهم الى رفض الحضارة الغربية المعـاصرة .

ولكن فات هؤلاء وغيرهم أن حياتهم الفعلية الآن ، ومنذ أربعة قرون على الأقل أصبحت أمامهم فى أهداف الاسلام ، دون أن يعيشوا وسائلها ، وكان الأمل أننا اذا ما قويت أعوارنا علما وصناعة ، ووضعنا التعاليم الاسلامية هدفا ، ازددنا اقترابا من حياة القوة عند المسلمين الأوائل(٢) ، والتراث ما هو الا تعبـير عن

---

(١) عبد السلام هارون : التراث العربى ، ص ١٦ .

(٢) زكى نجيب محمود : المرجع السـابق ، ص ١٢٩ .

هذه القوة التى تتكامل بها الحياة هدفا ووسيلة ، وما على علماء المسلمين الآن وغيرهم من أبناء العقيدة الاسلامية الا أن يعملوا على ابراز ذلك للشباب ، واعطاء الأمثلة الواقعية من سطور التراث العربى الاسلامى .

تاسعا — يتعرض المسلمون فى حياتهم المعاصرة لكثير من القضايا والمشكلات الحضارية والاقتصادية والاجتماعية مثل البنوك ، والتأمين ، والسفور والحجاب ، والعلاقات مع الدول الأخرى (١) ، والتى دائما ما تتغير وتتبدل . ولم تترك هذا الجانب كتب التراث العربى الاسلامى ، سواء فى كتب فقه المعاملات أو كتب الخراج الذى ألف فيه المحتسبون ، مثل « الأحكام السلطانية ، والولايات الدينية » للماوردى ، و « الأحكام السلطانية » لأبى يعلى الفراء ، و « السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية » لابن تيمية ، و « وكتاب الخراج » ليحيى ابن آدم ، و « كتاب الخراج » لأبى يوسف ، وكتاب « قوانين الدولة » لابن أسعد مماتى ، وكتاب « الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرها من الكتب التى تناولت هذه القضايا والمشكلات ، فضلا عما احتوته الكتب التاريخية وكتب الخطط وغيرها .

وليس معنى هذا أننا نطالب بالعودة كلية لكتب الخراج ومؤلفات المحتسبين وغيرها لتنفيذها حرفيا أو كلية ، ولكن اتخاذها أساسا ومرتكزا للدراسة ، واستخدام محاولاتها فى حل المشاكل نموذجا لتقييم قضايا ومشكلات العصر الحديث كما فعل الغربيون بعد أن نسبوا فكرها اليهم ، ولنا الحق فيما يصادفنا أن نعدل من بعض أحكام الحلول والتطبيقات بما يتناسب والعصر الحديث ، حيث أن أمر الاجتهاد نادى به الاسلام ، خاصة فى الحياة اليومية للبشر .

نقول وننبه الى أن علماءنا رسموا وهذبوا وناقشوا قضايا كثيرة من هذه القضايا بل أكثر منها ، وتعب علماؤنا فى تحريرها ووضعها بمقاييس أصولية مهذبة ومنظمة .. وكل ما نطلبه البحث عن هذه الأصول وفيها اختصار المسافة والاسراع فى التقدم استنادا على أسس حضارية قام عليها مجد الامة الاسلامية (٢) .

---

(١) عبد الوهاب ابو النور : مقال (مقترحات لجمع وخدمة التراث) الرجع السابق ، ص ٢٠١

(٢) قضايا وآراء ، ص ١٧

فلم يكن نظام البنوك نظاما حديثا ، انما جاءت به كتب التراث ، بل كان فيها أسلوب التعامل بين البنوك بما هو أدق من العصر الحاضر ، وكانت لدى الدولة الاسلامية من المنشآت والمصارف الاسلامية ما كان يقوم به البنوك فى عالمنا ، ومن هذه المنشآت الصيارف والأسواق ، والشروط الواجبة فى التعامل فيها ، والشروط الواجبة فى انشائها (١) .

ومن المؤسسات والمنشآت فى عصر الدولة الاسلامية ، والتى انشئت لخدمة الحركة التجارية : القياسر (٢) ، والخانات (٣) ، والفنادق (٤) ، والوكالات (٥) ، وغيرها(٦) .

كما كان فى الموانى نظام أشبه بنظام الجمارك الحالى ، وتبادل العملات المختلفة سواء الاسلامية منها ، أو الأجنبية ، وثم التعامل أيضا بنظام الصكوك الذى يشبه حاليا نظام الشيكات ، هذا النظام الذى كان معمولا به منذ أيام عمر بن الخطاب(٧) .

وكل هذه النظم والمعاملات سجلتها كتب التراث العربى الاسلامى ، وبشىء من العناية والدقة فى الدراسة ، ونظرة لهذه الكتب يبرز لنا أننا نعيش عالة على التطورات الحالية ، رغم ان العرب والمسلمين كانوا من مؤسسى هذه النظم ، بل ان ما نعيش عليه مقتبس فى أساسه من تراثنا .

ولعل أبرز الكتب التراثية التى تناولت أمر التجارة ومنشآتها ونظمها « الاشارة الى محاسن التجارة » للدمشقى ، وكتب الرحلات مثل رحلة سليمان

---

(١) تحدث الشيزرى ـ ت ٥٨٩ هـ عن طبيعة الاسواق الاسلامية ، وما ينبغى أن تكون عليه من الارتفاع والاتساع ، حيث كان لكل صنف موضعا خاصا ، وان تبنى السقوف فوق مواضعها لتكون حماية للمارة من الشمس والامطار .

(الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ص ١١ ، القاهرة ١٩٤٦ م) .

(٢) القياسر : مبانى بها حوانيت ومصانع ومخازن للتجار .

(٣) الخانات : مبانى كبيرة أشبه بسوق الجمله .

(٤) الفنادق : مبانى لمبيت التجار (أشبه بالفنادق الحالية) ، وقد اعدت التجار الذين يفدون الى الاسواق من خارج العالم الاسلامى .

(٥) الوكالات : مبانى لمبيت تجار العالم الاسلامى .

(٦) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر فى سقوط الخلافة العباسية ، ص ١٨٢ ، ص ١٩٢

(٧) انظر عطية القوصى : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ وما بعدها .

التاجر ، ورحلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير ، وأبو زيد السيرافى فى كتابه « أخبار الصين والهند » وغيرها .

عاشرا — ان كتب التراث العربى الاسلامى قد سجلت التغييرات الاجتماعية العميقة وأثرها فى سير التاريخ والتطور البشرى فى العالم الاسلامى وغيره ، هذه التغييرات التى كانت دافعها اجتماعيا أو اقتصاديا أو فكريا ، ونحن أكثر حاجة الى الرجوع اليها لفهم سير الأحداث العالمية فى عالمنا المعاصر وفق فكر عريق مسجل فى التراث . وما المشكلات البشرية ، والأسباب الدولية فى التعامل بين الدول الكبرى بعضها البعض من ناحية ، وعلاقتها بالدول الصغرى من ناحية أخرى الا صورة متطورة بعض الشىء بل يسيرا من الشىء من المشكلات والصور القديمة التى سجلها التراث .

على أننا يجب أن ندرك أن التراث يتسع لكل مشاكل الحياة ، كما يتسع لكل الأديان . بل ان منه من قام يعرض الحلول التى يمكن الاضافة اليها أو تعديلها بما يتناسب العالم الحالى . ولقد فسر التراث فى بعض كتبه أمرا هاما ، وهو أن الاسلام يتسع لكل الأديان من أهل الكتاب ، ويؤمن بكل الكتب السماوية المنزلة ، وبكل الرسل الذين بعثهم الله عز وجل . ويؤمن — من هذا المنطلق — أن اختلاف الناس واقع بارادة الله عز وجل .

وأخيرا فان من أبرز القضايا التى يواجهها المسلمون فى عصرهم الحاضر « قضية التشريع » وعلاقة ذلك بوضع الدساتير للدول الاسلامية عامة والعربية خاصة ، بمعنى هل يعتمد الدستور (المطلق عليه بالدائم) لدولة ما على الشريعة الاسلامية باعتبارها المصدر الوحيد له ؟ أم تكون الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى ، وهى ما تنادى به بعض دول العالم الاسلامى ؟ أم يكون أحد المصادر الرئيسية بجانب القوانين الوضعية ، وهى ما تطالب به وتعمل بموجبه بعض الدول الأخرى من هذا العالم ؟

والحقيقة أن هناك دولة رائدة فى اعتبار الشريعة الاسلامية — التى مصدرها القرآن والحديث والاجتهاد — دستورا لها ، وتطبقه بصورة تدهش الجميع .

وكتب التراث العربى الاسلامى تناولت الكثير من أمر الاجتهادات لأئمة الاسلام ، وكيفية الاجتهاد .

ولو تم الاتفاق بين دول العالم العربى الاسلامى المعاصر على الحد الأدنى ، فان الشريعة الاسلامية يجب أن تكون مصدرا أساسيا ورئيسيا من مصادر التشريع لديها ، والتراث الفقهى غنى بكل الأمور التى تحتاج الى تشريع التعامل اليومى .

ولعل من أخص وأهم واجباتنا نحو التراث الفقهى بصفة خاصة ، والتراث العربى الاسلامى بصفة عامة أن نعمل على فهرسة وتحليل هذه الكتب بصورة ميسرة للبحث منها ، والكشف عن جزئياتها الكثيرة وآرائها الطيبة(١) .

فاذا كان المفكرون فى العصر الحديث يوعون حفظ كرامة الانسان وتحريره هدفهم فى التشريع ؛ فان تراثنا ذاخر بما يحويه من تحقيق هذه الرسالة . فالاسلام جاء ليحرر الانسان ويحفظ كرامته ويستخدم عقله ، وينشط تصوره البناء ، وهو يدعو الى الاله الواحد الحق الذى له العبودية وحده ، كما جاء فى كتاب الله المنزل « القرآن الكريم » المحفوظ ، وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجلتها كتب التفسير والاجتهاد وغيرها من كتب التراث ، كما يطالبه بالواجبات اللازمة نحو العبودية .

والتراث الاسلامى انسانى ، يطالب للانسان بالحقوق ، ويحفظ له حريته بما يفسره ويوضحه فى الآيات الكريمة مثل : (لا اكراه فى الدين) ، وأيضا (لقد كرمنا بنى آدم) . ولذلك فالتراث هذا تعبير عن الانسانية والحرية ، أنتجته العقول الاسلامية بدوافع اسلامية على أرض اسلامية وبمنهج اسلامى ، واشترك فى بعضه بعض المسيحيين الذين كانوا يعيشون على هذه الأرض الطيبة تحت التسامح الاسلامى .

وتستنتج مما سبق أن التراث العربى الاسلامى ليس مسألة (متخفية) أو مجالا للبحث الأكاديمى فحسب ، يتم التعامل معها وفق نفس الطرائق التى ينقب فيها عن قبر من قبور الآراميين ، أو حدث من أحداث الفراعنة ، أو زيارة قبة من

---

(١) عبد الوهاب ابو النور : مقال (مقترحات لجمع وخدمة التراث) المرجع السابق ص ٢٠١ .

قباب العصر المملوكى ، أو حجر مكتوب من أحجار الأمم السابقة كقوم سبأ وغيرهم ، كما يفهم البعض .

كما أنه – من جهة أخرى – ليس متعة تزجى للناس فى أوقات فراغهم باحياء تراثهم الشعبى (الفولكلور) بأشكاله ، وليس أيضا حقلا (انتاجيا) للسياحة والدخل .

أى ليس آثارا عمرانية مادية وحاجيات يومية ، بل هو أعمق من هـذا . فهو اللغة والأفكار والعادات والتقاليد والأذواق والآداب والعلوم والعلاقات الاجتماعية والمواقف النفسية والرؤى الذهنية للكون والعالم والحياة(١) .

وهذا التراث الذى ارتوى بالاسلام وعاش فى ظل تعاليمه وأنسه ، قد أتبع مناهج محددة جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتمل على ما ورد فى القرآن أو فى السنة النبوية أو ما استنبطه علماء الاسلام من هذه النصوص :

فالاسلام منهج متكامل للحياة ، يسير مع الأمة فى جميع حياتها .

لا ينظر الدين الاسلامى الى الحضارة المادية نظرة ذم شاملة ، انما ينادى بالأخذ بما يصلح منها ، وما يخدم الخلق الكريم ، وما يخدم الحياة الاجتماعية الفاضلة الراقية ، وما يخدم مصالح الناس .

أى أنه يبنى المجتمعات الراقية المؤسسة على الأخلاق الفاضلة ، بشكل منظم ومتكامل . فلا يمكن لنا أن نفصل حياتنا فى الحاضر والمستقبل عن التراث الاسلامى .

والله تبارك وتعالى خلق الأمة ، ووضع هذا النظام وهو أعلم بمصالح خلقه وعباده ، فدين الاسلام دين متكامل . والرسالة عالمية وختامية ، فلابد أن تكون شاملة لجميع مطالب الحياة ، وبالتالى فالنظم والأصول مشتملة على حياة الناس ، والحياة الاجتماعية التى جاء بها الاسلام(٢) .

واذا كان البعض فى العصر الحديث يدعون الى نبذ التراث فذلك لتأثرهم بمن تتلمذوا على أيديهم ، أو تأثروا بأفكارهم من المستشرقين الذين يعملون

---

(١) عماد الدين خليل : موقف ازاء التراث ، ١٧ – ١٨ .

(٢) قضايا وآراء : ص ٢٠ .

لخدمة الاستعمار والهيمنة ، والعرب الذين ينادون بذلك ما هم الى أبواق لهؤلاء المستشرقين ، يحققون هدفهم بلا وعى . فهم مفتتنون افتتانا شديدا بالحضارة الغربية الحديثة ، وهم يركزون على الجانب المادى فقط ، ولا يلتفتون الى الجانب الروحى الذى هو الأساس والدافع فى الحضارات الانسانية عامة ، والحضارة الاسلامية العربية خاصة . واذا كانت الحضارة الغربية تعتمد على الجانب المادى، فاتباعنا لها دون وعى سوف يجعلنا صورة ماسخة وضعيفة منها . واذا كان جوهر تراثنا العربى الاسلامى هو الدين فان تخلينا عن تراثنا يهز علاقاتنا بيننا .

وقد وقع هؤلاء الأبواق الذين يدعون العلم والثقافة ومن تأثر بهم فى خطأ جسيم ، حيث أنهم شطوا فى آرائهم وانحرفوا بها حتى شاع بينهم أن الاسلام لا يعدو أن يكون جزءا من تراث أمتنا ، ومساحة من مساحاته الممتدة فى الزمان والمكان ، ويتحتم علينا حمايته وصيانة لكى نحمى ونصون مكتبة موقوفة ، أو مصحفا خطيا جميلا . ومن ثم فان أقصى ما يطمح اليه انسان هو ألا يتجاوز تعاملنا المعاصر مع الاسلام حدود العلاقة بين أمة وبين تراثها الماضى . وهذا يدل على أنهم وقعوا فى الفكر الاستعمارى بجناحيه الامبريالى والصهيونى ، ويودون منا أن نسير معهم ، ونترك مصدر قوتنا الكامنة فى تراثنا .

ان هذا الأمر يقودنا ــ عن علم أو دون علم ــ لو اتبعناه ، الى الزاوية الضيقة التى نقطع فيها كل علاقاتنا العضوية الحيوية مع الاسلام ، ونجمد كل اتصالاتنا الحركية بقيمه ومبادئه(١) .

وللرد على هؤلاء ، فلن تدخل معهم فى مناقشة جدلية سفسطائية لا نتيجة نهائية من ورائها ، ولكن نوجههم الى أمر هام ، وهو أن فكرهم لم يغ بعد ، ولم يدرك بعد أهمية التراث العربى الاسلامى ، وما يمكن أن تستفيد ــ كما استفادت فيما سبق ــ الحضارة الانسانية . والأهمية ترجع الى نوعية هذا التراث ، وما يتعلق به من تطور حضارى سواء كان فى العلوم الدينية مثل ما يتعلق منها بالقرآن الكريم من تفسير وأصول تفسير وعلوم قرآن ، وكذا ما يتعلق بالسنة النبوية ، أو ما يتعلق باللغة العربية والآداب ، وكذا ما يتعلق بالعلوم العملية مثل الطب والكيمياء والهندسة . وأهمية هذا ترجع الى أن الأمة وسجلته من تراث يسيران

---

(١) عماد الدين خليل : موقف ازاء التراث ، ص ٢٠ ــ ٢١ .

على منهج متكامل فى الحياة ، يستفيد مما جد فيها وما ابتكره الفكر الانسانى من الأنظمة والأساليب . وكلاهما تختلف من عصر الى آخر .

وعلى ذلك فأهمية دراسة التراث للأمة يجعلها تثبت وجودها وكيانها بين الأمم الأخرى ، بالاضافة الى أنه يكشف لها أشـياء جديدة تستنير بها ، ويؤدى غالبا الى فتح أذهان أبنائها الى ابتكار أشياء جديدة مستندة الى الأصول القديمة التى يحتويها التراث ، وبذلك يربطها بماضيها ، ويرسم لها منهجا حضاريا لمستقبلها ، وتعيشه فى حياتها الاجتماعية المعاصرة .

وعندئذ تسير الأمة فى نوع من الاستقرار ، وفى مستوى حضارى معين ؛ فيه التوازن ، تشعر بالحياة الحضارية المعاصرة ، ولا تنفلت من ماضيها ، وانما ترتكز عليه ، ويقع التناسب بينهما ، ويمكن أن يكون أساسا للمستقبل (١) .

وغنى عن البيان أن مجمل التراث الذى نتكلم عنه ــ بعد أن نال بعضه الكثير من المحن والمآسى التى انتهت بفقده وحرقه ــ بضعة ملايين من المخطوطات، قدرها البعض بثلاث ملايين مخطوطة (٢) ، وهـذا تقدير وليس حصر . وحصر البعض الأماكن التى تحتبسه أو تحفظه بحوالى ١٦٧٣ مكتبة ومتحفا ومدرسة ومعهدا ، موضحا محتويات كل منها (٣) ومتبعثرة بين الشرق والغرب ، بعضها فى مكتبات معرفة ، مفهرسة بشكل أو بآخر ، وبعضها فى مكتبات خاصـة وفردية فتكشف بين حين وآخر (٤) ، وأكثر هذه المخطوطات من النوع الأخير فى الشئون الدينية واللغوية والأدبية . وهى ما تعبر عن شخصيتنا العربية الاسلامية والأسس التى قامت عليها . والنوع الأول يحتوى على آلاف قد تقرب المليون فى العلوم ، ونعنى الطب والفلك والرياضيات ، والفيزياء والكيمياء ، والجغرافيا والتاريخ ، والانشاءات (الهندسة) والفلاحة والتعدين ... الخ .. وهى الكتب التى تخص العالم الانسانى كله ، والتى مازالت الحضارة الأوربية تستقى منها الكثير بعد أن بنت عليها أسس نهضة العلوم . ويلحق بهذه الكتب أيضا مخطوطات لها نصيب من الاهتمام ، رغم أنها تبدو ترهات وأباطيل ، كالسينما والطلسمات . والاهتمام

---

(١) قضايا وآراء ، ص ٢٠ ــ ٢١ .

(٢) صلاح المنجد : معجم المخطوطات المطبوع .

(٣) فؤاد سزكين : التراث ، ج ص .

(٤) احمد سعيدان : مقال (التراث) ، المرجع السابق ، ص ٨

بها ودراستها ناجم عما قد تكشف عنه من حقائق جانبية تخـدم الفكر النظرى والفكر العملى .

وبعد ، فان استعراض بعض أهمية التراث ، وما يمكن أن نصل اليه من نتائج ، تحتم الاهتمام به ، تدفعنا الى القاء الضوء على أمور يجب ألا تغيب عن أذهاننا جميعا ، خاصة المنادون بالرجوع الى التراث العربى القديم الذين درسوه، وكذا الذين يقودون عملية الاهتمام ، بالاضـافة الى القائمون بعملية الاهتمام فعلا به وذلك بالتحقيق والدراسة الدقيقة ، هـذه الأمور يمكن أن نلخصها فيما يلى :

الأمر الأول : البحث فى التراث العربى الاسلامى ، يجب ألا يقل عن بحث علماء الآثار فى التنقيب عنها ، ان لم يكن يحتاج الى أهمية أكبر وأعمق ، وذلك بما يتحلونه من الصبر والبذل والتضحية والدقة والدراسة ، كما يجب أن يتولى هذا الأمر رجال ذو مواهب قادرة على البحث الدءوب (١) .

الأمر الثانى : ان دور التراث فى تصـحيح سقم الفكر العربى المعـاصر ، أشبه بماضى المريض الصحى الذى يمكن أن يسـاعد فى تشخيص وتحـديد الدواء (٢) ، بل يكون عادة ضروريا له .

الأمر الثالث : وجود صعوبة فى اللغة المسجل بها التراث ، وهو يستلزم عند القراءة معرفة أصل الكلمة ، هل هى عربيـة ؟ أم دخيلة ؟ ، وكـذا ينطبق على الاسلوب . ومن الواجب توضـيح الألفاظ ، وحسن طريقـة العرض يتناسـب مسايرته للأساليب الحديثة ، وذلك حتى يتيسر لأبناء هذا التراث الوقوف على كنوزه (٣) .

الأمر الرابع : أن تكون الأبحاث فى التراث متصفة بالموضوعية والاصـالة والدقة ، هذا الأمر الذى يقدسه الباحثون جميعا ، وهى فى الاسلام أمانة يجب اتباعهـا .

---

(١) المرجع السـابق ، ص ١٥ (المقال)
(٢) عبد السلام هارون : المرجع السابق ، ص ١٦ ، ١٧ .
(٣) احمد سعيدان : المرجع السابق ، ص ١٦ .

وعلى ذلك يمكننا اقامة بنيان المعرفة العلمية لدى أجيالنا القـادمة ، على خلفية من انجازاتنا . وهى المهمة الفريدة للبحث فى التراث الفريد (١) .

لقد عرف العالم منذ أواخر العصور الوسطى ، وحتى عصرنا الحالى عرف أهمية ما يحويه التراث من علوم انسانية تسهم فى تقدم بناء الانسان ، وعلوم علمية تعمل على خير الانسان وتقدمه ، لذلك أنشئت المجـلات والدوريات المتخصصة التى تناولت الأبحاث لجميع أنشطة التراث ، بل وعملت على تحقيق بعض منه ، أو فصول من مخطوطاتها ، وتقديم الأبحاث عما يتناول التراث ، ولقد قام أحـد الباحثين بحصر بعض هذه المجلات والدوريات (٢) المعنية بمخطوطات هـذا التراث ، فى هذه القائمة .

أولا ــ الدوريات العربية :

١ ــ مجلة المشرق ــ بيروت .

٢ ــ مجلة الأديب ــ بيروت .

٣ ــ مجلة العرفان ــ صيدا .

٤ ــ مجلة الدراسات الأدبية ــ الجامعة اللبنانية ــ بيروت .

٥ ــ مجلة المجمع العلمى العربى = (مجمع اللغة العربية) ــ دمشق .

٦ ــ مجلس المقتبس ــ القاهرة ــ دمشق .

٧ ــ مجلة التراث العربى ــ دمشق .

٨ ــ مجلة تاريخ العلوم العربية ــ حلب .

٩ ــ مجلة المجمع العلمى العراقى ــ بغداد .

١٠ ــ مجلة المكتبة ــ بغداد .

١١ ــ مجلة مكتبة السلام ــ بغداد .

١٢ ــ مجلة لغة العرب ــ بغداد .

١٣ ــ مجلة العلم ــ بغداد .

---

(١) قضايا وآراء : ص ٢٠

(٢) الفضلى : تحقيق التراث ، ص ٤٨ ــ ٥٦ .

١٤ ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة بغداد .

١٥ ــ مجلة الأستاذ ــ جامعة بغداد .

١٦ ــ مجلة المورد ــ بغداد .

١٧ ــ مجلة جامعة المستنصرية ــ بغداد .

١٨ ــ مجلة كلية الآداب والعلوم ــ بغداد .

١٩ ــ مجلة سومر ــ بغداد .

٢٠ ــ مجلة كلية الشريعة ــ بغداد .

٢١ ــ مجلة كلية الدراسات الاسلامية ــ بغداد .

٢٢ ــ مجلة رسالة الاسلام ــ كلية أصول الدين ــ بغداد .

٢٣ ــ مجلة البلاغ ــ بغداد .

٢٤ ــ مجلة المؤرخ العربى ــ بغداد .

٢٥ ــ مجلة الغرى ــ النجف الأشرف .

٢٦ ــ مجلة البيان ــ النجف الأشرف .

٢٧ ــ مجلة الاعتدال ــ النجف الأشرف .

٢٨ ــ مجلة الدليل ــ النجف الأشرف .

٢٩ ــ مجلة النجف ــ النجف الأشرف .

٣٠ ــ مجلة المدير ــ جامعة البصرة .

٣١ ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة البصرة .

٣٢ ــ مجلة الرافدين ــ جامعة الموصل .

٣٣ ــ مجلة بين النهرين ــ الموصل .

٣٤ ــ مجلة للسان العربى ــ الرباط .

٣٥ ــ مجلة مجمع اللغة العربية ــ القاهرة .

٣٦ ــ مجلة الرسالة للزيات ــ القاهرة .

٣٧ ــ مجلة رسالة الاسلام لدار التقريب ــ القاهرة .

٣٨ ـــ مجلة الثقافة لأحمد أمين ـ القاهرة .
٣٩ ـــ مجلة المكتبة للحلبى ـ القاهرة .
٤٠ ـــ مجلة الأزهر ـ القاهرة .
٤١ ـــ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة .
٤٢ ـــ مجلة المكتبة العربية ـ القاهرة .
٤٣ ـــ مجلة عالم المكتبات ـ القاهرة .
٤٤ ـــ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .
٤٥ ـــ مجلة اليونسكو للمكتبات ـ القاهرة .
٤٦ ـــ مجلة الكلية = الجامعة ـ جامعة الخرطوم .
٤٧ ـــ مجلة الفكر ـ تونس .
٤٨ ـــ مجلة الحياة الثقافية ـ تونس .
٤٩ ـــ مجلة مجمع اللغة العربية ـ عمان .
٥٠ ـــ مجلة رسالة المكتبة ـ عمان .
٥١ ـــ مجلة جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة .
٥٢ ـــ مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ـ مكة المكرمة .
٥٣ ـــ مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى ـ مكة المكرمة .
٥٤ ـــ مجلة العرب ـ الرياض .
٥٥ ـــ مجلة جامعة الملك سعود ـ الرياض .
٥٦ ـــ مجلة كلية الآداب ـ الرياض .
٥٧ ـــ مجلة كلية اللغة العربية ـ الرياض .
٥٨ ـــ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ الرياض .
٥٩ ـــ مجلة الدارة ـ الرياض .
٦٠ ـــ مجلة عالم الكتب ـ الرياض .
٦١ ـــ مجلة كلية الشريعة واللغة العربية ـ أبها .

٦٢ ــ مجلة المكتبة ــ أبها .

٦٣ ــ نشرة أخبار التراث العربى ــ القاهرة .

٦٤ ــ النشرة العراقية للسطبوعات ــ المكتبة الوطنية ــ بغداد .

٦٥ ــ النشرة العراقية للسطبوعات ــ المكتبة المركزية بجامعة بغداد .

٦٦ ــ النشرة المصرية للمطبوعات ــ القاهرة .

٦٧ ــ النشرة الببليوغرافية اللبنانية ــ دار الكتب الوطنية ــ بيروت .

٦٨ ــ النشرة الثقافية المصرية ــ وزارة التربية والتعليم ــ القاهرة .

٦٩ ــ السجل الثقافى ــ وزارة المعارف العمومية ــ وزارة الثقافة والارشاد القومى ــ القاهرة .

٧٠ ــ نشرة معهد الآداب العربية ــ تونس .

٧١ ــ الببليوغرافيا الجزائرية ــ المكتبة الوطنية ــ الجزائر .

٧٢ ــ اعلامات بيبلوغرفية ــ دار الكتب الوطنية ــ تونس .

٧٣ ــ صفحة ألوان من التراث ــ جريدة المدينة ــ جدة . وغيرها .

ثانيا ــ الدوريات الأجنبية :

١ ــ المجلة الآسيوية الفرنسية . Journal Asiatique Français.

ورمزها : JAF

٢ ــ مجلة الجمعية الملكية الآسيوية :
Journal of the Royal Asiatic society of Gr. Britain.

ورمزها : JRAS

٣ ــ مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية :
Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Geselischaft.

ورمزها : ZDMG.

٤ ــ مجلة الدراسات الشرقية ــ ايطاليا : Rivista degli studi orientali.

ورمزها : RSO.

٥ ـــ مجلة الاسلام (بالألمانية) :

Der Islam zeitschrift Für Geschichte und kultur des islamichen orients.

ورمزها : ISI

٦ ـــ مجلة الدراسات الاسلامية :

Revue des Etudes Islamiques.

ورمزها : .REI

٧ ـــ مجلة الاسلاميات (اسلاميكا) :

Islamica. Ed. A. Fischer et E. Leipzig, 1927.

ورمزها : .ISICA

٨ ـــ مجلة الدراسات العربية (اربيكا) :

Arabica, Revue d'études arabes fondée par E. Levy-yrovencal, leiden, Brill 1954 FF.

ورمزها : .Arabica

٩ ـــ حولية معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر (باريس) :

Annales de l'Institut d'Etudes orientales de l'Usiversité d'Alger.

ورمزها : .AIEO

١٠ ـــ مجلة المعهد الشرقى :

Mélanges de la facultté orientale de l'Université st Joseph.

ورمزها : .MFOSJ

١١ ـــ الأندلس (مجلة مدرستى مدريد وغرناطة للدراسات العربية) :

Al - Asdalus Reviste de las escuelas de setudios arabes de Madrid y granada.

ورمزها : .Andalus

١٢ ـــ مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسى بدمشق :

Bulletii d'Etudes orientales de l'Instiut français de Damas.

ورمزها : .BEO

١٣ ـــ مجلة المعهد المصرى :

Bulletin de l'Institut d'Egypte.

ورمزها : .BIE

١٤ ـــ فصلية المتحف البريطاني : British Museum quarterly.

ورمزها : Br. Mus. qly

١٥ ـــ مجلة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية :

Bulletin of the school of oriental and Africa studies.

ورمزها : .BSOAS

١٦ ـــ نشرة كتبخانة مركزى دانشكاه تهران = مجلة المكتبة المركزية لجامعة طهران :

Bulletin de la bibliothèque centrale de l'Université de Téhéran concernant les manuscrits orientaux, sous la direction de M. T. Danesh - Pajouh. Iraj Afshar Téhéran.

ورمزها : Bull. Bibl. Un. Tehr

١٧ ـــ مجلة الاكاديمية (الامبراطورية) للعلوم في بطرسبورج ـ لينيغراد :

Bulletin de l'Académie (impériale) des sciences de st pétersbourg.

ورمزها : Bull. Acad. Sci

١٨ ـــ مجلة معهد الأبحاث بكلية الدكن (الهند) : واسمها :

Bulletin of Deccan College Research Institute.

ورمزها : Bull Deccan Coll Inst.

١٩ ـــ مجلة معهد الآداب العربية بتونس :

Revue de l'Institut des Belles lettre Arabes. Tunis

ورمزها : .IBLA

٢٠ ـــ مجلة الثقافة الاسلامية بحيدرآبار :

Islamic culture. The Hyderabad quarterly review.

ورمزها : ISl cult

٢١ ـــ المجلة الفصلية الاسلامية : Islamic quarterly.

ورمزها : ISl quart

٢٢ ـــ مجلة معهد الدراسات الاسلامية باستانبول :

Islam tetkikleri Enstitüusu Dergisi revew the institute of Islamic studies Istanbul.

ورمزها : ISl. Tetk. Enst Derg

٢٣ ـــ المجلة الآسيوية : Journal Asiatique

ورمزها : .JA

٢٤ ـــ مجلة الجمعية الآسيوية بالبنغال :
Journal of the Asiatic society of Bengal

ورمزها : JASB

٢٥ ـــ مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية :
Journal of the American oriestal society.

ورمزها : JAOS

٢٦ ـــ مجلة الجمعية الآسيوية (الملكية بالبنغال) :
Journal of the (Royal) Asiatic society of Bengal.

ورمزها : J (R) ASB/JASB

٢٧ ـــ مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ـ فرع بومباى :
Journal of the Bombay Branch of the royal Asiatic society.

ورمزها : JBBAS.

٢٨ ـــ مجلة معهد اللغات الشرقية ببرلين ـ قسم غرب آسيا :
Mitteilungen des seminars Für orientaliscme sprachen zu Berlin: Westasiatische studien.

ورمزها : MSOS.

٢٩ — Orientalische literatur zeitung.

ورمزها : OLZ.

٣٠ ـــ الشرق : مجلة الجمعية الدولية للبحوث الشرقية :
Oriens: Zeitschrift der internationalen Gesellschaft Für orient forschung.

٣١ ـــ مجلة عالم الاسلام : Revue du Monde Musulman.

ورمزها : RMM

٣٢ ـــ مجلة فيينا للدراسات الشرقية :
Wiener Zeitschrift Für die Kunde des Morgenlandes.

ورمزها : WZKM.

ثالثا : سلسلات المخطوطات هى مثل :

١ ـــ سلسلة (نوادر المخطوطات) اصدرها الاستاذ عبد السلام هارون فى القاهرة .

٢ ـــ سلسلة (نفائس المخطوطات) أصدرها الشيخ محمد حسن آل ياسين فى الكاظمية . ببغداد .

المحاضرة الثالثة

منهج التراث العربى الإسلامى

مصادر التراث

مراحل تكوين المنهج

الاسلوب العلمى للمنهج

من الأمور المسلم بها أن غزارة التراث العربى الاسلامى ودقته ، وسعة معلوماته وتنوعها قامت على أساس منهجى واضح ، هذا المنهج لابد أن يقوم على أسس عميقة صلبة دفعته وأيدته لاقامة هذا البنيان الشاهق العظيم .

ولما كانت مواضيع الدراسة فى التراث تقوم بعضها على أساس نظرى وبعضها الآخر على أساس علمى ، فمما لا شك فيه أن منهجه كان متنوع مرن يتناسب حسب احتياج موضوع الدراسة التى يتناوله المخطوط ، بل ومتطور وفق ظروف الأبحاث وما تتناوله من دراسات وتجارب وفكر .

والواقع أن بداية فهم المنهج يجب أن تقوم على عرض الأسس الذى قام عليها حتى يمكن فهمه ، ثم الاستفادة والأفادة منه .

مصادر التراث

ويقوم منهج التراث الاسلامى على الأسس التالية :

أولا ــ دراسة بالغة عن التدين بالديانة الاسلامية ، وشريعتها ، ومصادرها :

الديانة الاسلامية فى جوهرها تتكون من « وحى وتفسير » ، والوحى ثابت لا يتغير ، لأنه يمثل التعبير الفعلى عن الارادة الالهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة أبد الدهر .

وجاء عن طريق الوحى كتاب الله المحفوظ « القرآن الكريم » المنزل . هذا الكتاب المقدس هو هداية للجميع ، وبغية لكل باحث عن الحق .

ومنهج القرآن الكريم ، وهو المنهج الأقوم ، سار على طريقة أن يرسم ويحدد للناس عما هم فى حاجة اليه ، وما يستطيع العقل البشرى ادراكه وبلوغه ومعرفته فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله فيما لا ينتج ، ولا يثمر . ولنا فى الآية عبرة :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (١) .

---

(١) سورة الزمر آية ٩ .

فالقرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة فى الشعور والتفكير ، فهو يعصم العقل من الشطط . ويطلق له الحرية فى مجالاته المثمرة ، ويكفه عن انفاق طاقته فيما لا يجدى . أى يجعل النشاط العقلى منتجا مثمرا مأمونا .

أما التفسير فهو ما يثيره الوحى من رد فعل فى العقل الانسانى ، والمعنى اللفظى له كشف الغامض وتوضيحه ، والشرح وما تنطوى عليه الآيات من معان وأسرار وأحكام أى الشرح والبيان للفهم والادراك .

ونظرا لأن العقل داخل فى الزمان ، فهو مقيد به .

فالوحى يبقى على مر القرون دون تغيير ، ولا يخضع له نهائيا ومطلقا ، فى حين أن التفسير يتعرض على مر العصور لضغوط القوى الداخلية والخارجية ، تلك الضغوط تعطى الجماعة شخصيتها فى كل فترة من فترات التاريخ(١) أى ما تعارف بعنوان الفكر الانسانى ، وما ينتج عنه من علوم وتجارب .

والتفسير أيضا يوضح اعجاز القرآن ، والاستمرار فى معرفة مكنوناته عبر القرون ويقوم بعمل الاطار الذى ينظم علاقة الانسان بخالقه .

ثانيا ــ العلم والتأمل والدراسة :

لقد أوجد القرآن والدين الاسلامى المناخ للبحث العلمى ، والاهتمام بالعلم ، فقال الله تعالى فى كتابه « هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون » (٢) . فضلا عن أن لفظ العلم جاء فى القرآن الكريم فى أكثر من ثمانمائة موضع(٣) .

كما كانت لتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم أثرها فى الاهتمام بالعلم ، فلم يترك فرصة أو مناسبة لتعليم صحابته الا واغتنمها . وناشد المسلمين بضرورة الاتجاه اليه وهذا واضح من خلال قوله الشامل الجامع الموجز (العلماء ورثة الأنبياء)(٤) . ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة(٥) .

---

(١) شاخت وبوزورت : تراث الاسلام ، قسم ٢ : ص ١٩٥ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٩ .

(٣) فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، طبعة الشعب ، مادة علم ص ٤٦٠ ، ٤٨١ .

(٤) صحيح البخارى ، جـ١ ، ص ٢٦ .

(٥) الشيشانى : حقوق الانسان ، ص ٥٨٠ .

والعلم فى جوهره : البحث عن الحقيقة ، والعمل على ايجاد الوسائل المحققة لراحة وكرامة الانسان عامة .

والمعروف أن الحضارات ـ كيفما كان لونها وزمنها ـ تقوم على دعائم العمل فى صوره وأشكاله وفنونه التى أبدعها ويبدعها الفكر الانسانى منذ انطلق العقل البشرى جوابا فى أودية الحياة ، يمهد لها فى مدارج التقدم العملى ، يبنى ويشيد ويجدد .

والعلم هو أصل بناء الحضارات ، والعمل ثمرته وتطبيقه ، فلا وزن لعلم لا يثمر عملا ، ولا ثمرة لعلم لا يأخذ مجاله فى التطبيق الايجابى الذى يعطى الحياة قوتها الدافعة ويدفعها الى مداها المقدور لها فى آفاق الرقى الفكرى ، والاجتماعى ، والعمرانى ، ليسعد فى ظلها الذين يواكبونها فى سيرها(١) .

والتراث العربى الاسلامى تعبير عما وصلت اليه الحضارة العربية الاسلامية، بفضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا أحرص الناس عليه وجمهور علمائها المسلمين المؤمنين فى علاقاتهم بمالك العلم كله ، وحسبما رسمه لهم دينهم الاسلامى من دور فى التقدم الانسانى .

وعلى ذلك ، وتلخيصا لما سبق ، فالعلماء المسلمون الذين انتجوا الحضارة الاسلامية التى أبهرت العالم عبر العصور الوسطى والحديثة ، فمازالوا يفحصون فيها ويدرسون ، هؤلاء العلماء قاموا بدورهم على الأساسين :

الأول ــ الايمان بكل ضروبه وأنواعه ، بالله تعالى ، وعقيدته ، ورسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بكل شمائله وسائر ركائز الايمان .

الثانى ــ الايمان بالعلم والعمل الانسانى المثمر لصالح المسلمين والانسانية.

فصار انتاجهم ملتزما قويا صلدا ، عمل فى سائر مجالات الفكر والاجتماع ، وضع أسس التربية السلوكية للأفراد والجماعات ، والأمم والشعوب ، فصار فيما بعد تراثا كبيرا غزيرا ، يشمل كل مناحى العلم والعمل الانسانى .

ولعل أبرز ما يؤكد عظمة الحضارة العربية الاسلامية ، وما نجم عنه من تراث ، فضلا عن التزام العلماء بالمنهج الاسلامى . من أن هؤلاء العلماء أنفسهم

---

(١) الشيخ محمد الصادق عرجون : مقال «تراثنا الحضارى» مجلة الوعى الاسلامى ، السنة العاشرة ، العدد ١١٣ جمادى الاولى ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

صانعى الحضارة والتراث كانوا من علماء المسلمين الذين تعلموا أمور دينهم قبل أن ينتجوا فى الحضارة ، وقدموا لنا مخطوطات وفكر التراث العربى الاسلامى .

وهذا يتطلب منا استعراضا موجزا لهؤلاء العلماء الذين كانوا من فقهاء الدان الاسلامى ، فمن أمثلة التخصصات والعلماء :

أولا ــ التخصصات التى تناولها الكتاب والعلماء وحفظته كتب مخطوطات التراث من الفكر الدينى والنظرى :

(أ) التفسير والعلوم القرآنية .

(ب) الفقه بكافة مذاهبه .

(جـ) علم التاريخ والسير بكافة صوره من سيروطبقات .

(د) علم الجغرافيا الذى خرج من التاريخ نتيجة لوصف طرق الحج والتجارة ، وسجل الرحلات التى قام به علمائهم ، فصارت جمعا بين النظر والعمل .

(هـ) علم الاجتماع الذى تطور على يد المؤرخين والجغرافيين لوصفهم لعادات الشعوب والجماعات ، ووضع التبريرات والتفاسير لما ينتابها من تغير ، وانطبعت عليه من عادات وفق شهود العيان ، وقد كان المؤرخين والجغرافين شهود عيان معاصرين لهذه الجماعات .

(و) علم الكلام ، أو ما درج عليه علماء الغرب باسم « الفلسفة » . وينقسم الفلاسفة المسلمون الى : متكلمون (عقليون كالمعتزلة ، ونقليون كالأشاعرة) ، ومتصوفة وفلاسفة .

ثانيا ــ أمثلة من التخصصات والأفكار العملية والتجريبية :

(أ) علم الفلك .

(ب) علم الرياضة والهندسة التى قامت عليها النهضة العمرانية (علم الأرقام) .

(جـ) علم الكيمياء والنبات ثم ظهر فيما بعد علم الفلاحة .

(د) العلوم الطبيعية مثل الصوت والضوء .

(هـ) علم التاريخ الطبيعى .

(و) علم الطب والصيدلة .

هذا بخلاف أفكار أخرى تناولتها كتب وتخصصت فيها .

أما من ناحية العلماء ، فان جل من نبغ فى العلوم النظرية والتجريبية علماء من أصحاب الفقه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ ـــ الكندى : كان من الفلاسفة ، ونبغ فى الرياضة (الهندسة والحساب) ، والموسيقى والفلك والطب ومن مؤلفاته « رسالة فى العلة الغريبة فى الكون والفساد » .

ومن أبرز أقواله : « العاقل من يظن أن فوق علمه علما ، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة .. والجاهل من يظن أنه قد تناهى ، فتمقته النفوس لذلك »(١) .

٢ ـــ ابن مسكويه : المؤرخ ، وكان من ألمع الفلاسفة فى مجال الأخلاق ، واشتغل بالطب .

٣ ـــ ابن سينا : صاحب الدراسات فى الطب والفلسفة والرياضيات ومن مؤلفاته كتاب « الأدوية القلبية » ، ومقالة فى هيئة الأرض من السماء وكونها فى الوسط .

٤ ـــ ابن طفيل : الطبيب والفيلسوف .

٥ ـــ ابن رشد : الفيلسوف وصاحب التفسير المجازى للقرآن الكريم ، وصاحب موسوعة الطب الذى ظهر باسم « الكليات فى الطب » وصاحب كتابى « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة » .

٦ ـــ الرازى : الطبيب والكيميائى والفيلسوف ومن مؤلفاته « سر الأسرار فى الكيمياء » وكتاب « المدخل الى المنطق » وكتاب « فى وجع المفاصل » ، وكتاب « فى كيفية الابصار » .

٧ ـــ ابن يونس : الأديب والشاعر والرياضى .

٨ ـــ ابن الهيثم : الفيلسوف والمهندس ، وله مقال بعنوان « ما تدعو اليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية ولا يستغنى عنه بشىء سواه » ورسالة فيها أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى انتاج العلوم الفلسفية.

(١) على عبد الله الدفاع : الوجيز فى التراث العلمى ، ص ٩٧

٩ — البيرونى : الفيلسوف والرياضى والفلكى والجغرافى الرحالة والعملى فى العلوم ومن مؤلفاته : جداول رياضية للجيب والظل ، ورسالة فى الميكانيكا والايدروستانيكا وكتاب عن حركة الشمس وكتاب منازل القمر وغيرها كثيرة .

وبنظرة بسيطة الى ما سبق يتضح علاقة الاسلام الوثيقة بالفكر النظرى بل وعلاقته بالعلوم الاسلامية كالتفسير بالعلوم التجريبية .

ومن هذا المناخ انطلقت عبقرية المسلمين والعرب لتشييد الحضارة التى كانت منارة للعالم أجمع ، وعملوا نموذجا فريدا للتقدم الانسانى ، وقد استفاد الغرب سواء من النموذج أو من الحضارة جيدا ، فعمل على اتخاذها أساسا متينا لنهضته الحديثة ، والتى أصبحنا الآن نرى فيها نموذجا للتقدم العلمى يجب أن نحتذى به ، فأصبحنا نأخذ بدلا من أن نعطى ، وأصبح علمنا مأخوذا مقتبسا بعد أن كان صاحب عطاء لخير وفير ، ولكن ليس هذا عيبا أو مركب نقص اذا لم نكن نعتبر النموذج الغربى عامل مساعدا لكشف علومنا التى تضمها المخطوطات ، ووسيلة لاحياء طاقتنا الفكرية والعقلية ، ولاعادة كرامتنا وشخصيتنا العلمية لنا ، ولنسهم بقدر كبير فى حماية أمور ديننا ودنيانا .

مراحل تكوين المنهج

وللعلماء المسلمين الذين أنشأوا التراث العربى الاسلامى ، منهج خاص . هذا المنهج ، خاص بدراستهم ، وأساليبها والاطار الذى يقومون به من خلالها ، ومن ثم أصبح المنهج المتبع فى التراث العربى الاسلامى . وهذا المنهج وضح ، ووضع أساسه منذ نزلت أول آية فى القرآن الكريم ، هذه الآية التى أبرزت أهم ملامح المجتمع الاسلامى .

فملامح المجتمع الذى نزل فيه القرآن بدأت تتغير منذ نزول « اقرأ » ، وتولد عنها المناخ العقلى الجديد ، الذى طالبه القرآن بالعلم والدراسة « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون(١) » . هذه الآية الواردة على صورة سؤال على لسان النبى صلى الله عليه وسلم هى اختبار ، وتركيز فى الضمير الاسلامى لقيمة العلم ، ولفضل رجل العلم فى المجتمع الجديد الاسلامى(٢) .

(١) سورة الزمر آية ٩ .

(٢) مالك بن نبى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

ووضع القرآن الكريم حدود المناقشة ، ومن ثم حدود الوصول الى النتائج، فانه يأمر بتحرى الحقيقة فى جميع المعطيات حتى يصل الى الاقناع .

« ها أنتم حاججتم فيما لـكم به علم ، فلما تحـاجون فيمـا ليس لكم به علم[1] » .

وهـكذا يضـع القرآن الكريم الفكر الاسـلامى فى طريق العلم ، ويزوده لاكتسابه بأحسن التوجيهات المنهجية ، ويكون منهجا تربويا علميا .

والأحاديث النبوية وغيرها من التوجيهات تدعم عمليا البناءات العقلية التى أنشأها القرآن الكريم فى الفكر الاسلامى ، فينطلق محصنا ، ومزودا وموجهـا للقيام بمهمته العلمية والاجتماعية .

والأمثلة كثيرة على أثر هذا المنهج فى العلم الاسلامى منذ السنوات الأولى فى الاسلام ، ونجدها مدونة ومشروحة أحيانا ، ومتخذة كاملة من الأدلة التى يستشهد بها .

فهناك ما سجل عن مسند أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعلله وشواهده الذى وقع عند تحقيقه فيما بعد فى بضعة عشر مجلدا وخطـة الورافون فى نيف وستون جزءا .

فعمر بن الخطاب رضى الله عنه يمر يوما بدرب من دروب المدينة ، وهو يتلو الآية : « أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فانبتنا فيها حبا وعنبا ، وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا »[2] فيقف رضى الله عنه عند كلمة « أبا » ، ويشعر أنه لا يعرف معناها وهو ليس بالمفيد ، ولم يكن علم اللغة قد ظهر بعد ، فلا يتورط فيما لا اختصاص فيه ، والا وقع فيما حذر منه القرآن الكريم فى قوله لليهود « فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ » .

واننا لنرى عمر رضى الله عنه لا يقف الا هنيهه عند الكلمة التى أوقفته ، والتى لا تنقص شيئا ــ ان جهلناها ــ فى ضمير المؤمن ، فالمشكلة بالنسبة له ، فى هذه اللحظة ، ليست فى نطاق العلم ، ولكن فى نطاق السلوك ، ونراه فعلا يؤنب بها نفسه : « ما العمر والاب ، ان جهل ما الأب ، ان هذا الا لكلفة يا عمر » .

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٦ .

(٢) ابن عساكر التاريخ (تهذيب بدران) ، جـ ٤ ، ص ٣٥٢ .
ــ سـورة عبس ، آية ٢٦ ــ ٣١ ومعنـاها (محمد فريد وجدى ، ص ٧٩٢) .

وفى تجربة أخرى لعمر بن الخطاب مع الاجتهاد ، يحاول ويجتهد فى تحديد صداق المرأة ؛ لأنه فى نظره — فوق ما يناسب . ولكن تقف له امرأة وتعارضه لعلمها بأمور دينها ، فتقول له : « ما أعطاك الله ذلك يا عمر ، وتذكر الآية : وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا »(1) .

فسكت عمر ثم قال : ان كل الناس أعلم منك يا عمر حتى هذه المرأة العجوز .. وتراجع عن رأيه .

اننا نرى فى هذين الظرفين موقف العقل تجاه الاختبارات التى تعرض له ، الظرف الأول يوضح كيف يتحرر العقل فى المناخ الجديد من الشكليات ، من سلطان المفردات الذى تعوق تقدم العلم .

والظرف الثانى يوضح كيف يتحرر من المكابرة ، وهو شر عدو للحقيقة ، وأكبر معوق للفوز بها .

واستمر الراشدون فى تعليم المسلمين المنهج القرآنى فكرا وسلوكا ، فهذا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يحتقر يوم النهروان رأى المنجم — حتى لا يكون هذا الأمر سنة من بعده ، وهو معتمد على الايمان بالقدر خيره وشره — والذى يشير عليه بالانطلاق فى وقت معين ، فينطلق على غير هذا الوقت ، متعمدا ، ثم يقول على الملأ : « لو انطلقنا فى الوقت الذى أشار اليه المنجم لقال لنا اننا انتصرنا بما أشارت به النجوم » .

وبذلك يعيد الانسان الى الجاهلية ، ويقضى على الكفر واستخدام العقل الذى أمر به الاسلام ، ثم يؤدى الى نكسة وخطوة الى الخلف وفساد للمناخ الجديد الذى أوجده القرآن والاسلام .

وفى ظرف آخر يسلم الراية الى زياد بن النظر ، ويوصيه بتعليمات واضحة : « قد هذه الفئات ، واستفد برأى عالمهم ، وعلم جاهلهم » أى يعتمد على المعلومات والآراء ، ويفكر فيها ويوزن بينها الى أن يصل الى الحقيقة . وهذا هو المنهج العلمى القائم على معلومات المشاهدة وآراء أهل العلم وتجارب الجميع .

(1) سورة النساء آية ٢٠

(٢) مالك بن نبى : المرجع السابق ، ص ٥٠ ، وما بعدها .

وعلى ذلك نرى فى المناخ الجديد الفكر الاسلامى يضع سلما ، يتسلقه الفرد ، وهو يدلى بعلمه لمن دونه درجة . ويطلب العلم ممن فوقه ، فينطلق تيار العرفان فى الاتجاهين ، ومن أسفل الى أعلى أحيانا . هذا السلم هو الذى أتاح له الانطلاق من عصر الشيئية فى العصر الجاهلى ، للوصول الى تلك القمم الشامخة التى أشع منها العلم على العالم ، الذى كانت تخيم عليه الظلمات ، فوصل الى تلك الانجازات الكبرى التى تهيمن حتى اليوم على التقدم الانسانى فى سائر الأنشطة . وأخرجت لنا ملايين الكتب التى تسجل هذا التقدم ، وهو ما نطلق عليها التراث العربى الاسلامى .

ولعل المناخ الذى أوجده القرآن الكريم يتضح فيما تم فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وهو جمع الآى الكريم (القرآن) لحفظها من التلف ،ولحصرها نهائيا فى صورة لا تقبل التغيير ، أى تغيير ، بعد أن ظهر فى المجتمع الاسلامى بعد الفتوحات من كثرة الاختلاف فى وجوه القراءة ، وشاهد هذا الاختلاف فى الامصار ، وخطأ بعضهم بعضا ، فأمر عثمان بجمع القرآن وأن ينسخ على حرف واحد من الحروف السبعة ، حتى يجمع المسلمون على مصحف واحد ، بعد أن خشى تفاقم أمر الخلاف بين المسلمين ، وفى سائر الامصار الاسلامية ، بل ونسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبا لسوره(1) .

وشكل عثمان لجنة اتبعت الأسلوب العلمى ، وتحرت فى عملها الدقة المتناهية ، وما يزال عملها موضع دهشة واعجاب من العلماء فى العصر الحديث . وكانت اللجنة من أكثر وأدق الصحابة حفظا للقرآن الكريم ، وهم : زيد بن حارثة ، عبد الله بن الزبير ، سعيد بن العاص ، عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأعطاهم عثمان رضى الله عنه الصحف التى كانت عند السيدة حفصة رضى الله عنها ، زوج رسول الله ، وطلب منهم أن ينسخوا نسخة موحدة . وأعطاهم التوجيهات المساعدة لهم فقال : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش . أى أنهم كانوا يجمع من صحف حفصة رضى الله عنها ، أى الصحف التى كانت فى بيت النبى ، ويعيدوا ما حفظه كل منهم وخاصة

---

(1) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ، ص ١٣٢ - ٣٣ - الطبعة السابقة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م - مؤسسة الرسالة - بيروت .

أكثرهم حفظا وهو سيدنا زيد بن ثابت ، وان اختلفوا فيتخذوا على لغة قريش دليلا لهم .

وكان عمل اللجنة سنة لمن يعملون فى العلم فيما بعد ، أى فى جمعهم المادة من مصادرها ، ثم فحصها فحصا جيدا ، ثم نسخها أخيرا ، وهذا هو أسلوب العمل العلمى الذى بدأه المسلمون ، وساروا على نهجه ، وأخذه العلم الحديث عنهم ، وصار أسلوبا عاما متبعا فى العلوم كلها مهما اختلف مكانة الذين يقومون به .

لقد كان عمل لجنة نسخ المصحف أول عمل علمى للفكر الاسلامى ، بل أول علمى للفكر البشرى من نوعه الذى تعمد فى تاريخه على مبدأ التسليم للقدوة ، بل لا زال يعتمد عليه حتى الآن أحيانا ، كما هو حادث فعلا فى الدول التى تقوم فكرها على هذا المبدأ .

واتبع علماء التراث المسلمين والعرب التوجيهات التى أخذوها من القرآن والهدى الذى اهتدوا اليه من سنة الخلفاء الراشدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل ابن خلدون عمل عمله الخالد لزيادة حرصه على تلخيص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة والقصص المدسوس .

ونستخلص مما سبق حقيقتين هامتين لفهم العلاقة بين الدين والتراث ، وفى بحثنا هذا نعنى بين الاسلام والتراث ، وخاصة فى أمر المنهج .

الحقيقة الأولى : أن الاسلام عقيدة ومنهاج صاغتها يد الله الحكيمة القادرة العالمة ، ومنحتها صفة الدوام التى تتجاوز حدود الزمان والمكان وأطروحاتهما الموقوتة الزائلة المتغيرة النسبية ، لكى تكون بمثابة استشراق كامل ، مرن ، يتسع لكل حالة ، ويحتوى على كل تجربة بغض النظر عن موقعها فى الزمان والمكان .

الحقيقة الثانية : أن تراث أمتنا ليس الاسلام بالشكل الرياضى كتطابق المثلثين تناظرت زواياهما . انما التراث نتاج تفاعل مع الاسلام ، ومع عدد آخر من المبادىء والمذاهب ، فهو حشد من المعطيات تتمخض عن طبيعة التجربة الانسانية والتى أحدثتها المواقف ، نتائجها معرضة للخطأ والصواب ، ومتغيرة فى الزمان والمكان[1] .

---

(1) عماد خليل : موقف ازاء التراث ، ص ٢١ - ٢٢ .

وفرق بين الذى يصنعه الانسان ، وبين عمل صانع الانسان نفسه ، وهى العقيدة التى جاءت من (صنع الله الذى أتقن كل شىء) (١) .

والنشاط العلمى عند المسلمين والعلماء منهم كان منبثقا من الاسلام ، وكان بالدرجة الأولى لخدمة الدين ، ولخدمة جماعة المسلمين ، فضلا عن خدمة الانسان لأن الاسلام دين العالمين وهذا يعنى أن الاسلام المصـدر الدائم والمستمر لمنهج التراث حيثما كان وظهر وأنتج .

والانسانية ــ على العموم ــ تمر بثلاثة أعمار من حيث تطورها النفسى(٢):

الأول ــ طور الطفولة ، وفيه تصبغ كل أحكامها طبقا لمقاييس تتعلق بعالم الأشـياء ، بحيث تكون أحكامها طبقـا لمقـاييس بحيث تـكون أحكامها فى أبسط صورها ، معتمدة على الحاسة ، أو ناتجة عن الحاجة البدائية .

الثانى ــ الطور الثانى من الحياة ، وفيه تصبغ أحكامها طبقـا لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة ، أى صادرة من عالم الأشخاص . وفى هذا الطور لا تكون الفكرة حرة من تجسيد ، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذى يجسدها فى نظرنا .

الثالث ــ طور الرشد : تصبح الفكرة فيه ذات قيمة فى حد ذاتها ، دون أيما تأييد من طرف عالم الأشياء أو عالم الأشخاص ، أى أن الانسانية فى العمر فى عمر النضج ، تصبح الفكرة لا تحتاج الى ضمان قيمتها من طرف الأشخاص أو الأشياء .

ولعلنا نجد فى تأملنا فى آيات القرآن ما يساعدنا ، ويوضح للجميع المنهج القرآنى الذى أمر به القرآن العلماء من المسلمين خاصـة ، والمؤمنين المسلمين عامة بانتهاجه .

فالفكرة الاسلامية مرتبطة بذات النبى « صلى الله عليه وسـلم » الارتباط المعروف ، كأنها المجسدة فى شخصه فى نظر ذلك المجتمع البسيط الذى وجهت اليه الدعوة .

ولكن القرآن الكريم أراد أن يتحرر هذا المجتمع الجديد أن يعـود الى باعث الرسول عز وجل ، وأن يعلم هذا المجتمع منهجا سليما فى الحياة ، ويحرره

(١) سورة النمل آية ٨٨ .

(٢) مالك بن نبى : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

من القيود المعطلة لتقدم الفكر والعلم فنزلت الآية الكريمة ، مؤكدة ذلك ، وآمرة باتباع المنهج . فقد قال الله تعالى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) (١) .

ان هذه الآية نزلت بمثابة الدفعة التى دفعت للمجتمع البدائى الذى نزلت فيه ، من عصر « الشيء » والشيئية ، مباشرة الى عصر الفكر . وأن أبرز وأعظم وأعلى القدوة المتمثلة فى الرسول يجب أن تتبع فى اطار الايمان والرسالة المنوط بها ، وأن يصبح الفكر والتأمل مرجعه الى الله تعالى ، وهذا النوع من الفكر هو الذى يطور الانسانية والبشرية

ان المنهج القرآنى يقوم على التصوير ، وهو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، والقاعدة الأولى فيه للبيان .

والتصوير يقوم على قاعدة اتبعها التراث الاسلامى العربى وعلماؤه الذين أثروه ، فهو يعبر بالصورة المحسسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية ، كما يعبر عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، ثم يرتقى بالصورة التى رسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فاذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، واذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، واذا النموذج الانسانى شاخص حى (٢) .

ولقد علم الأسلوب القرآنى العلماء المسلمون كيفية اتباع المنهج القرآنى ، وكيف يتبعون الأسلوب فى التعبير ، فعلمهم أن عليهم التنسيق فى العبارات بتمييز الألفاظ ، ثم نظمها فى نسق يبلغ من الفصاحة رقيا ميسرا ، وهذا النسق ذا ايقاع موسيقى يتناسب مع المناخ الذى يجرى فيه البحث . كما يجب أن يكون النسق تسلسل معنوى ، وتناسب فى الانتقال من غرض الى غرض ، دون تكلف ممقوت وأن تكون الموضوعات التى طرقوها حقيقية وقيمة . أى يخرج البحث فى تناسق ينير المعانى والأغراض ، ومصورا جيدا ، ليفيد الانسان .

وقد سبق أن أشرنا أنه لا وزن لعلم لا يثمر عملا ، ولا ثمرة لعلم لا يأخذ مجالها فى التطبيق الايجابى الذى يعطى الحياة قوتها الدافعة نحو آفاق الرقى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

(٢) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٦٢ دار المعارف الطبعة التاسعة .

الفكرى والاجتماعى والعمرانى . وهذا ما اتبعه الباحثين وعلماء العرب المسلمين غير هيابين أو مندفعين ، وغير منزلقين الى متاهات . فخرج التراث العربى الاسلامى مجددا ، ودعما لركائز الحياة الكريمة التى ترتكز على دعائم الايمان ، ومؤكدا أن ما علموه قليل من صاحب العلم كله ، وهو الله جلت قدرته عز وجلا : (وما أوتيتم من العلم الاقليلا) (١) .

والتراث العربى الاسلامى سجل فى بحر مخطوطاته المنهج العقلى ، الذى اتبعه العلماء المسلمين وجعلهم رواد فى مجال البحث عامة ، علميا كان أم نظريا . هذا المنهج متنوع الدراسة ، والتنوع يقوم حسب احتياجات موضوعات البحوث وهو مرن ومتطور وفق ظروف مادة كل بحث ، لذلك فهم تفردوا بهذا المنهج الذى اقتبسه أصحاب العلوم فى عصرنا الحاضر .

وقبل أن نعرض لمنهج التراث العربى الاسلامى ، يجب أن نضع فى مفاهيمنا، وأبصارنا الواعية ، أنه من العبث أن نطابق بين الآيات الكريمة المنزهة ، والنظريات العلمية التى يتوصل اليها العلماء ، بل ومن الحماقة أن نربط الصلة بينهما عن طريقة ما يسمى « تاريخ تطور العلوم » فالقرآن أرشد الى المنهج الواجب اتباعه ، وأوجد المناخ العقلى الذى يتيح للعلم والحياة التطور فالعلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب ، بل بكل الظروف النفسية والاجتماعية التى تتكون فى مناخ معين ، لأن مراكز الاهتمامات العقلية تتغير من عصر الى عصر وحسبما تفرضه الظروف المتغيرة .

ونعرض لبعض جوانب المنهج المتبع فى التراث العربى الاسلامى .

فالمعروف أن العلم ساحة واحدة تقوم على قسمين :

الأول : قسم الحياة الخلقية والجمالية سوء فى علوم الدين أو اللغة أو الأخلاق أو التاريخ أو غيرها من العلوم التى تعتمد على التصور العقلى ، والتسجيل الحدثى ، وهى ما اتفق على تسميتها بالعلوم النظرية .

الثانى : قسم للعلوم العملية وما يتفرع عنها من صناعات ، ويكون منهجه قائما على تقصى الوقائع قبل صياغة القوانين مثل الطب والهندسة والكيمياء ، وهى ما اتفق عليه بالعلوم العملية .

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٥ .

واذا نظرنا الى هذا التقسيم المتبع ، نرى أن جزء من القسم الأول يعتمد على أساسيات مسلم بها لدى المؤمن ؛ ومن ثم كانت أبحاثه دون أن يقترب منها بل لتوضيحها ، وهذا يستدعى التأمل والتفكير ، والقسم الثانى يعتمد على التفكير والتأمل ثم الوصول الى النتائج . وكلا الطرفين يعتمد على التأمل والنظر والتعلم والاحاطة بكل معلوم يصدر عن المعقول ، وهو ما علم به المنهج القرآنى وما سجله العلماء فى كتب التراث الاسلامى .

ولكن من الواجب الملزم أن نـدرك أنه ليس من الحـق أن نزعم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب ، مندرج فى ألفاظه ونواهيه ، فان كثيرا من آراء العلماء التى يستنبطونها أول الامر لا يعدو أن يحسب من النظريات التى يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل ، فعلى قدر مرونة التكيف مع سلوكنا العملى بهذه النظريات أو النتائج(1) يبرز أمر المراجعة المستمرة لها ، لمسايرة الأحداث المتجددة، وبذلك لا نستغنى على الدوام عن التعديل واعادة النظر من حين الى حين . وبهذا يكون تطور الحياة وتجددها نحو ما هو أصلح وأبقى . وهذا ما جعـل التراث العربى الاسلامى متجددا دائما عبر سنوات انتاجه ، ومؤثرا فى شتى الحياة والفكر وخاصة فى ميدان العلوم العملية ، حيث أن هذا الميدان لا حيلة للانسان فيها الا أن يلتزم منهج التفكير العملى .

وبعد ، نبدأ بدراسة منهج التراث العربى الاسلامى فى كل من القسمين .

فالقسم الاول : يعتمد فيه العالم ، بل والمتأمل ، والباحث ، على الاهتـداء بمبادىء مسلم بها ، أو أوليه قبل الخوض فى التفصيلات ، وهى فئة كانت موجودة فى التفكير فى مؤلفات التراث العربى الاسلامى ، ويلزم أن نبقى عليها فى ميادين الحياة الخلقية والفقهية .

وهذا القسم يعتمد على الطريقة الادراكية فى البحث . هذه الطريقة يرى أنها كانت نهجا مأثورا عن العرب المسلمين ، ووضحت فى تراثهم .

والطريقة لا تصعد من الشواهد الجزئية ، والأحداث الجارية الى المبدأ العام الذى يستقطبها ، بل كانت تهبط مسلمات ومبدأ تفرض نفسـها عليهم فرضـا ، ليستخرج منها ما يستخرج من قواعد للفكر والسلوك . على أن مصادر الالزام قد تتعدد فاما أن يكون ملزما لكونه وحيا من السماء . أو أن يكون الهاما بفكرة ،

(1) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، الطبعة الأولى بدون تاريخ ، ص ٩٠.

أو حدسا لها (بالمعنى الاصطلاحى لكلمة حدس ، وهو أن يـكون الادراك عيانا عقليا مباشرا) ، أو يكون ملزما لأنه تقليد راسخ ، أو عرف بين الناس تواترت به الاعـوام .

هذا يعنى أن العقل العربى المسلم يلسع أولا بالمبدأ العام ، ثم يتدرج الى تفصيلات التطبيق لا فرق بين أن يكون المجال فى ذلك : مجال علم رياضى أو طبيعى، أو أدب أو فن ، أو مجال لغة (١) .

فمن ناحية الوحى ، فقد سبق الاشارة اليه ، هو ثابت لا يتغير ، يمثل التعبير الفعلى عن الارادة الالهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة ، وما على الانسان الا العمل على ادراك المقاصد منه ، وفهمه ، ومحاولة تفسـيره ، ويعبر عن الوحى القـرآن الكريم ، كتاب الله المنزل .

أما من ناحية الافكار ، والحدس ، أو العرف المتواتر بين الناس ، فالأمثلة عليه كثيرة ، ونأخذ منها المثل الأول فى مجال اللغة العربية ، معجزة الانسان العربى، والتى تعبر عن أبرز وأخلد شىء فى التراث العربى الاسلامى ، خاصة بعد أن كرمها الله تعالى بنزول القرآن الكريم بها ، فهو اعجاز ببلاغته للمعجزة التراثية العربية .

فأول ما يميز العربى ــ بداهة ــ هو أن لسانه عربى واذا كان ذلك سحيحا بالنسبة الى كل لغة وأصحابها ، فهو صحيح بصفة خاصة الى العربى ، وذلك لأن عبقرية العرب الأولى فى لسـانهم ، فهم لم يعتزوا بشىء اعتزازهم بلغتهم ، وهى المجال الأساسى الذى انصبت عليه طاقتهم الفنية ، ولا عجب أن يكون القـرآن الكريم هو معجزة الاسلام ، والذى أدركه العربى قبل الاسلام وبعده . فهؤلاء كفار قريش فى لجاجة الأنكار : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليـه بكرة وأصيلا » (٢) الا أن قائدهم الوليد بن المغيرة ــ رغم انكاره يعترف فيقول عن القرآن « فماذا أقول فيه ؟ والله ما منكم ــ كفار قريش ــ أعلم منى بالشعر ولا برجزه ولا بقصيدة ولا بأشعار الجن ، ولله ما يشبه الذى يقوله ــ الرسول صلى الله عليه وسلم عند قراءة القرآن ــ شيئا من هذا . والله : ان لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه ليحطم ما تحته ، وانه ليعلو وما يعلى » ، ثم ادراك أكثر من هذا

---

(١) زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ٨ .
(٢) سـورة الفـرقان آية ٥ .

بعد الاسلام والايمان بالدين ، ادرك المعانى الذهنية التى تخرج فى صورة حسية والمعانى المجردة التى تصور الحالات النفسية للانسان ، وما يرسم عنها من نموذجا انسانيا واضح المعالم . ندرك ذلك فى الآية « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، فأنقذكم منها (١) » وهى جمال فى التصوير وتعبير عن حالات نفسية وأخيرا جمال فى التعبير (٢) .

وصفات اللغة نظل قائمة ، طالما احتفظ أهلها بنفس عاداتهم فى التفكير ، ومن الخطأ أن تعتبر اللغة كائنا مثاليا ، تتطور مستقلة عن البشر ، انها لا توجد خارج أهلها الذين يفكرون ويتكلمون بها . فان جذورها متأصلة فى أعماق الضمير الفردى ، حيث تستمد قوتها لتورق وتزدهر على شفاه الناس . والضمير الفردى هو عنصر من عناصر الضمير الجماعى الذى يفرض قوانينه على كل فرد . وليس تطور اللغة الا مظهرا من مظاهر تطور الجماعة (٣) ، وهى وفقا لمنهج التفكير العربى الاسلامى ، تقليد راسخ وعرف تواترت به الاعلام .

فاذا نظرنا اليها نجد أن مفرداتها جاءت انبثاقا من ينابيع تدفقت منها مجموعات ، وكأن هذه المجموعات انعكاس للقبائل والعشائر يرتد كل منها الى حد كبير ، وأما تلك الينابيع الدفاقة بمجموعات الألفاظ ، فهى الأصول الثلاثية ، ويكفيك الأصل الثلاثى لتظل تخرج من جوفه مشتقات ، فيكون لك فى هذه المشتقات ما تواجه بين مواقف الحياة الواقعية جميعا ، انك فى اللغات الأخرى قد تضطر — فى حالات كثيرة — الى حفظ المفردات كما هى ، وبغير تعليل ، لأنها هكذا جاءت ، وأما فى العربية فعندك أصل واحد — هو الثلاثى فى معظم الأحيان — ولا ضرورة بعد ذلك لحفظ المفردات ، وكل ما عليك أن تفعله ، هو أن تشتق من ذلك الجذر أى فرع تشاء ، فهى لغة تنسقها قواعد مطردة لا يشذ فيها الا أقل من القليل ، والقواعد بدورها تنحدر من مبدأ يضمها ، فاذا عرفت المبدأ ، نزلت منه الى القواعد ، ومن القواعد تنزل الى مواقف التطبيق .

ولنأخذ مثلا كلمة « عقد » ، فاذا بدأت بها أنبتت لك فروع قد تبدو متباعدة المعانى ، لكنها معان من أسرة واحدة ، جدها الأول هو هذا الثلاثى فمنه تخرج :

---

(١) آل عمران آية ١٣٠

(٢) يرجع الى سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٣٦ — ٤٥ .

(٣) مراد كامل : تقديم كتاب اللغة العربية كائن حى ، ص ١٢ القاهرة ، دار الهلال .

عاقد ، ومعقود ، وعقد (بسكون القاف) وعقد (بكسر العين ، وعقيدة ، وعقدة ، ومعقد ... الخ) .. وهذا يعنى أنك اذا عرفت الجد (بكسر الجيم) عرفت الرحم وشجرة الأسرة كلها بكل فروعها .. وبسبب هذه الروابط فى مفردات اللغة العربية ، كان فى مقدور بعض علماء اللغة الأول أن تضع القواعد « العقلية » العلمية التى يقاس اليها فى معرفة الصواب والخطأ ، وفى صياغة كلمات جديدة للمواقف الجديدة، دون الخروج على أصول اللغة وروحها . هذه القواعد والكلمات الجديد ومشتقاتها تمتلىء بها كتب التراث العربى الاسلامى فى شتى نواحى المعرفة ، بل هذا التراث الذى لا يضيع جهد علمائه ، ويذكرهم دائما حيث كانت مكانتهم العلمية .

وهذا عكس اللغات الأجنبية الأخرى ، فالانجليزية مثلا تجد كل معنى قد جاء من ناحية وعليك أن تحفظ كل كلمة بمعناها مستقلة عن الأخرى ، وما يقال على لانجليزية يقال على سائر اللغات الاوربية .

وبذلك كان المنهج العربى الاسلامى أكثر واقعية فى الحياة ، لكون الحركة الهابطة من العام الى الخاص ضرورة الانطلاق للتطور فيها ، وهذا يؤكد بلاغتها التعبيرية والتصويرية (١) .

ومثال آخر وهو ما يخص الجانب الاخبارى ــ وهو قسم كبير من القرآن الكريم ــ لا يمارى عاقل فى أنه لا يعتمد الا على التلقى والتعلم ، بل، هو يعتمد أيضا على الذكاء والاستنباط والشعور ، ونهج العلماء العرب المسلمين فى هذا الجانب الأخبارى من العام الق الخاص .

فقد ذكر القرآن آنباء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكرها شاهد العيان مع طول الزمن الذى يضرب فى أغوار التاريخ (٢) ، ولم يعاصر الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الأمم ، وهذه الأحداث ، ولم يعاصرها أى من الاخباريين الذين كتبوا فيما بعد (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم

---

(١) زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ٨ ــ ١٠ .

(٢) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ، ص ٤٣ .

آياتنا ولكنا كنا مرسلين) (١) . ولم يقتصر على ذكر الأمم ، بل علم الاخباريين ، كيف يتخذون التوقيت أساسا لذكر أخبارهم . ففى قصة نوح (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) (٢) وفى قصة أصحاب الكهف (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) (٣). وكلا التوقيتين عند أهل الكتاب. فالأولى فى سفر التكوين من التوراه ، والثانية يذكرون عنها ثلاثمائة سنة شمسية ، وما جاء بالقرآن الكريم هو فرق عدد السنين الشمسية بالقمرية التى كان يعتمد عليها العرب .

فاذا انتقلنا الى العصر الاسلامى ، فنجد أن ما من اخبارى كبير كتب الكتب التاريخية الأمهات التى هى رمز للتراث العربى الاسلامى ، قد عاصر مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ان بعض الصحابة والاخباريين الأول لم يكونوا ضمن الجيش الاسلامى فى بعض المغازى ولم تعرف وضحة فترة تسجيل المغازى الا بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى يروى أن رجلا قدم عليه من اليمن فقال له : رأيت شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام وشهر ، فأعجب عمر ذلك وقال (هذا حسن فأرخو) ، أى استخدموا (٤) هذا الأمر كتحديد الفترات (٥) .

وهكذا كان على الاخباريين أن يهبطوا من العام الى الخاص ، فيتناولوا الأحداث القديمة التى وردت فى القرآن باعتبارها قضية مسلمة ، وما عليهم الى أن يصلوا الى تفصيلات لها أو تفسير أو تعليل للأحداث ، والتفصيلات الصغيرة يمكن أن يحصلوا عليها ممن أسلم من أهل الكتاب ومن كتبهم السابقة ، والتفسير والتعليل باعتبار أن ذلك أمرا من أوامر القرآن الكريم ، وهى الوفاء لأمانة الكتاب فى حثهم على طلب المعرفة حيثما وجدوها . فاذا انتقلنا الى المغازى ، فأصحاب التاريخ والاخباريين من العرب المسلمين لا يناقشوا الحدث فهو أمر مؤكد غير قابل للمناقشة ، ودورهم وضع الدقائق وتفسير الأحداث ، وتعليل الحركات التى صاحبت هذه المغازى ، فهم لا يألون جهدا فى الحصول على تفصيلات عنها من العيان لها ، أو ممن روى لهم عنها ، بل ويقومون بالترحال الى مواقع هذه المغازى

(١) سورة القصص ، آية ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) العنكبوت آية ١٤ .
(٣) الكهف آية ٢٥ .
(٤) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٧٩ — ٨٠ .
(٥) حسين سليمان : المدخل الى علم التاريخ ، ص ٢٤ .

لتصويرها التصوير الحقيقى ، ولوصف الأماكن وصفا دقيقا يمكن من خلاله فهم التفصيلات الجزئية والكلية عنها . ويعرفون مدى ما تعرض لها الجيش الاسلامى .

وفى كل هذه الحالات التى نجدها مدونة فى التراث العربى الاسلامى ، انما نتبع المنهج الادراكى الذى يقوم على ادراك المبدأ العام ثم التدرج فى تفصيلات التطبيق .

والمثل الثالث التى نعرض له هو « ميدان الأخلاق » فى الفكر الفلسفى فالأخلاق طابعا مميزا للثقافة العربية الاسلامية. فاذا أجرينا موازنة بين الطابع المميز للثقافة العربية الاسلامية ، وطبائع الثقافات الأخرى ، نجد أن الأخيرة ترتكز على التحليل العلمى لظواهر الطبيعة ، ومنها ما يدير أرجاءه حول محور العسكرية والقتال والغزو ، منتصرا مرة ومدحورا مرة أخرى ، مما يجعل الأولوية عندهم للابداع الفنى من عمارة ونحت وتصوير ، أما الثقافة العربية الاسلامية قد أقامت ركيزتها الأساسية على الاطار الذى ينظم علاقة الانسان بربه ، والمبادىء التى ينبغى أن تحكم طرق التعامل بين الناس ، تلك هى أساسيات ومبادىء الأخلاق .

واذا عدنا الى معرفة ذلك من التراث العربى الاسلامى ، فاننا نرى كتاب « تهذب الاخلاق ، وتطهير الاعراق » لابن مسكويه الذى يعتبر ألمع فيلسوف عربى فى مجال وميدان « الاخلاق » فنرى من صفحاته الاولى منهج السير واضحا ، فهو يبحث عن المبدأ العام الذى يصلح لأن تشتق منه قواعد الاخلاق ، التى على أساسها نميز بين ما هو خير وما هو شر فى الفعل الانسانى .

ويشرح ابن مسكويه نظريته التى تتطابق أشد التطابق ، أو هن مستقاة أصلا من العقيدة الاسلامية ، اذ أن مبادىء الاخلاق عند العقيدة الاسلامية ، هى ما نزل وحيا من الله سبحانه وتعالى على نبيه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، أى أنه تلتزم بالمبدأ العام الى الموقف الخاص .

فانه اذا ما عرفنا حقيقة الانسان التى فطر عليها لكى يكون انسانا ، عرفنا بالتالى بأى المقاييس تقيس الأفضل والأرذل ، فكل صفة أو فعل يدنو بصاحبه من تمثل بالجوهر الانسانى كانت أى منهما فضيلة أو رذيلة ، فالكمال فى الانسان ليس مجرد حاصل جمع كمالات أجزائه ، كأن يكون البصر سليما ، والسمع دقيقا ،

والكبد والرئتان ... الخ .. فالحكم لا يبنى على هذه الاعضاء فى أدائها لوظائفها البدنية ، وانما يبنى ذلك الحكم على مدى ما يحققه الانسان من حيث هو كائن متكامل ، الغاية التى من أجلها صوره الله انسانا .

ويستكمل ابن مسكويه ، حتى يتبين له أن للنفس قوتين ، ولكل منهما كمالها :

القوة العالمة — وكمالها ادراك المعارف والعلوم .

القوة العاملة — وكمالها تدبير وسائل العيش ونظمه ، تدبير محكما .

وعلى ان الأساس العام قد وضع ، فيسهل استخراج القواعد الفرعية التى يجب اتباعها ، لكى يتحقق الكمال التى تتطلبه فطرة الانسان .

ولقد جاء الطريق النازل من المبدأ العام الى الموقف الخاص من حيث التفكير النظرى فى فلسفة الأخلاق ، متطابقا أشد التطابق مع ما تقتضيه العقيدة الاسلامية فى هذا الباب ، اذ أن مبادىء الأخلاق عند تلك العقيدة ، هى ما نزل وحيا من الله سبحانه وتعالى على نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام . واذن فنحن مرة أخرى أمام فكرة ترتسم لنا فى بادىء ذى بدء ، ومنها نبدأ سيرنا نحو التطبيق فى عالم السلوك (١) .

والمثل الرابع نراه فى مجال الفنون — سواء كان فن الأدب أو فن التصوير أو غيرهما من الابداع الفنى . والتصوير الفكرى هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، والقاعدة الأولى فيه للبيان ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية كما يعبر بها عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، ثم يرتقى بالصورة التى رسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فاذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة . فاما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فاذا أضاف اليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخيل (٢) . والآيات الموضحة لذلك كثيرة فى كتاب الله الكريم . ومنها تعلم العلماء العرب المسلمون تصوير أعمالهم بالصورة اللغوية التى تساعد المسلمين على فهمها ، بل وفى النواحى العلمية كانوا يرسمون الصور والخرائط الموضحة للأعمال العلمية .

---

(١) زكى نجيب محمود ، فيم من التراث ، ص ١٠ — ١٢ .

(٢) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٦٢ .

ولما كان الشعر هــو الفن العربى الأول بلا منازع فلا بد أن يكــون شعره تصويرا واقعيا جميلا فمثلا اذا وصف شــاعر أو تغزل فى أمر ما ، فترسم فى ذهنه صورة هذا الأمر بالصورة المثلى على اطلاقها ، كأنما هو يبدأ بتعريف منطقى لهذا الأمر ، وليس أمامه حالة شيئية بعينها ، ولكن هذه الصورة المثلى أيضا تتناسب مع البشر ونواقصه .

فاذا وصف الشاعر حصانا ، فقال عنه انه :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فانما يصور المثال الأفلاطونى للحصان كما ينبغى أن يكون ، ثم يخلع ذلك التعريف الأمثل على حصانه الفرد ، ولا يعنيه أن يكون حصانه الفرد مطابقا للمثل الأعلى المرسوم ، فشعره أقرب الى أن صورة لفكره منه الى أن يكون صــورة لحسه .

ظل هذا المبدأ والقيمة فى الشعر الاسلامى قبل الاســلام وبعده ، بل وحتى العصور الناضجة فى الحضارة الاسلامية التى أخذ الأدب فيها دوره الكبير .

ولعل شيوع الحكمة فى الشعر العربى أن يكون دالا على تلك الخاصة المميزة وهى نزوع العقل العربى نحو ادراك الحقيقة فى صورتها المجردة العامة ، حتى وان لم يكن قد صادف لها فى دنيا الكائنات الجزئية أفرادا تؤيد صوابها . ومن ناحية أخرى أن نزوع العقل العربى نحو ما هو مجرد ، يدركه بوعى وفهم مباشر ، وليس استخلاصا من أمثلة فردية (١) .

فاذا انتقلنا الى المثل الأخير وهو مجال الفن التشكيلى من تصوير وزخرفة وما اليهما ، وقبل أن نناقش لمنهاج ما ، لابد لنا من وقفة فاحصة دارسة وهى

يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين الى الحياة ، فلا يقال عن دين انه يحى الفنون الجميلة أو يتقبل احياءها اذا كانت له نظرة زرية الى الحياة ، وكان ينظر اليها كأنها وصمة زرية ، والى الجسد ومتاعه كأنه رجس مرذول ، وانحراف بالانسان عن عالم الروح والكمال .

ولا يقال عن دين انه يزدرى الفن الجميل اذا كان الجمال من مطالبه ، وكانت نعمة الحياة مقبولة فى شرعة المتدين به واجبة عليه .

---

(١) زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ١٤ ، ١٥ .

والاسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليها ، وحسبانها من نعمة الله التى يحرم على المسلم رفضها ، ويؤمر بشكر الله عليها . وغيره من الأديان بين اثنتين : فاما السكوت عن التحريم والايجاب معا ، أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم .

أما الاسلام فانه يحل الزينة ويزجر من يحرمها ، ويصف الله الجمال ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمه على عباده(١) . (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين) (٢) ، (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها) (٣) .

بل ان الزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان ، بل تجب الزينة فى محراب العبادة (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) (٥) ، وفى السنة النبوية الكثير .

والدين الذى ينظر الحياة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد أن يظن به تحريما لشىء من الفن الجميل أو نهيا عن شىء يجمل الحياة ويحسن وقعا فى الأبصار والاسماع . وانما سبقت الظنة الى هذا الخطأ لتشديد الاسلام فى منع عبادة الاوثان ، ومنع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والانصاب ، ولم يرد فى الكتاب الكريم كلمة تنهى عن عمل من أعمال الفن الجميل ، ولم يثبت عن النبى عليه السلام قول قاطع فى تحريم صنعة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تخشى منه النكسة اليها فى نفوس أتباعها ومن يفتنون بجهالتها (٦) .

والقاعدة العامة فى الاسلام أنه لا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر ، فأما مع المنفعة المحققة فلا تحريم ولا جواز للتحريم . لأنه فوات للمصلحة ونهى عن المباح .

---

(١) عباس محمود العقاد : التفكير فريضه اسلامية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) الحجر ، آية ١٦ .
(٣) سورة ق آية ٦ .
(٤) الاعراف آية ٣٢ .
(٥) الاعراف ، ٢ آية ٣١ .
(٦) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ١٠٤ .

فاذا رجعنا للمنهج العربي الاسلامى حول هذا الأمر نجد أن الانسان العربى الاسلامى يتبع منهج الرؤية المجردة — غاضا ببصره عن عمد أو غير عمد — عن التفصيلات التى تميز الأفراد .

ان المصور العربى الاسلامى ، اذا ما صور شخوصا انسانية أو حيوانية ، صورها على كثير من الايهام فالملامح مدمج فى بعضها البعض ، وليست مفصلة ، وذلك على نحو ما يرسم الفنان التجريدى فى عصرنا الحاضر ، فهو يستهدف الفكرة وليس تصوير الفرد المتعين الذى يجسدها ، اذ أن الافراد — فى عقيدته — مصيرهم الى الزوال ، وهو ينشد الاستمرار . والاستمرار دائما للفكرة لا لتجسيداتها المشخصة الفانية ، وهذا يعنى أن ثقافتنا العربية التى تحتويها كتب التراث العربى الاسلامى ، وتتداولها الأجيال من بعدها محورها « مبادىء » لا « أشياء » أى محورها « أخلاق » لا « جمال شكل » وهذا ما اعترف به المستشرقون أمثال ماسينيون فى حديثه عن طرق التعبير الفنى عند المسلمين ، اذ قال : أنه لا وجود « للأشياء » فى الفكر الاسلامى ، والمسلمون فى فن التصوير يسقطون الوجوه والملامح لبطلانها .

هذه صورة من مجالات الفكر والفن فى تراثنا العربى الاسلامى ، وأن العقل العربى الاسلامى حين ينتج فكرا أو يبدع أدبا أو فنا يسير من مبدأ يأخذه من البداية مأخذ التسليم نزولا الى ما يترتب عليه من تفصيلات الحياة العملية ، وأهمية هذه الطريقة فى النظر والعمل ، هى أن يدخل الانسان خضم الحياة مزودا ببوصلة تهديه سواء السبيل (١) .

هذا منهج البحث فى العلوم النظرية فى تراثنا العربى الاسلامى . وهو مناقض تماما للتراث الغربى المتعصب فى شكل دينى باهت . وعلى سبيل المثال فان جليليه لما أعلن نظرية دوران الأرض لم تواجهه معارضة علمية بل معارضة كلامية، نعنى معارضة عقائدية من قبيل الكنيسة والتعصب المسيحى الأعمى . ولم تدن جليليه أكاديمية أو مجلس علمى ، بل أدانته محكمة دينية باسم العقيدة . أى الادانة جاءت من مجموعة عوامل القمع والحرمان الموجودة فى نفسية المجتمع الذى حكم عليه بالاعدام .

(١) زكى نجيب محمود ، قيم من التراث ، ص ١٨ .

وفى الاسلام ، أوجد الدين المناخ العقلى الفكرى العملى ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول لو كان جليليه يعيش فى المجتمع الاسلامى للقى التقدير ، واعتبر ممن أسهم فى المد الحضارى (١) .

الأسلوب العلمى للمنهج

القسم الثانى قسم العلوم العملية والتطبيقية وما يتفرع عنها من صناعات ويختلف منهجه عن منهج القسم الأول ، فهو يبدأ بالمعطيات الجزئية وتقصى وقائعها صعودا الى المبدأ العام الذى يضع بموجبه أساسيات نتائج البحث قبل صياغة القوانين . وهذه لامناط من استخدامها لدى العلماء العرب المسلمين فى مواد الرياضيات والكيمياء والهندسة والطب والصيدلة .. الخ .. ولن نكون مغالين اذا قلنا أن العرب المسلمين هم فى الواقع أول من استخدمها ، بل وطوروها بالصورة التى اقتبسها العصر الحديث الذى يرى أن أوربا هى التى استحدثتها مع النهضة التى قامت فى القرن السادس عشر الميلادى /الثامن الهجرى . هذا المنهاج هو ما تعارف عليه بالبحث العلمى القائم على المنهج التجريبى يتخذ من الملاحظة والتجربة أسلوبا للوصول الى القانون العملى .

ونشأة هذا المنهج مثار جدل بين الباحثين ، وخاصة الذين يتناولوا بما يعرف « تاريخ العلوم » فمنهم من رده الى قدماء المصريين منذ أقدم عصور التاريخ وبعضهم أرجعه الى أرسطو خاصة وعلماء اليونان عامة ، والغالبية ترى أنه اختراعا أوربيا فى مطالع العصور الحديثة ، بل ترد نشأته على وجه التحقيق الى فرنسيس بيكون فى انجلترا ابان القرن السابع عشر الميلادى (٢) .

وهناك رأى أوربى يمثله مستشرق باحث يرى أنه قد سرت بين العلماء الاغريق ــ الذين لم يكونوا جميعا من الاغريق ، بل كان أغلبهم من أصل شرقى ــ رغبة فى البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات ، ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة الأفكار النظرية . ولم يبدأ البحث العلمى الحق القائم على الملاحظة والتجربة الا عند العرب ، فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذى يمكن الاعتماد عليه ، ويتدرج من الجزئيات الى الكليات ، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات المضنية فى القياس والملاحظة

---

(١) مالك بن نبى : انتاج المستشرقين ٤٠ ــ ٤١ .

(٢) د. توفيق الطويل : العرب والعلم ، ص ٣٢ .

بصبر لا يعرف الملل . وبالتجارب العلميه الدقيقة التى لا تحصى ، اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارا وتكرارا ، فأثبتوا صحة الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ فى بعضها ؛ ووضعوا بديلا للخاطىء منها متمتعين فى ذلك بحرية فى الفكر والبحث ، وكان شعارهم فى أبحاثهم ، الشك هو أول شروط المعرفة تلك الكلمات التى عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الاساس العلمى ساد العرب شوطا طويلا فى العلوم الطبيعية ، أثر فيما بعد ، بطريق مباشر وغير مباشر ، على مفكرى الغرب أمثال روجر بيكون ، وماجنوس ، وجاليليو وغيرهم، ومن بعدهم فرنسيس بيكون .

لقد اتسمت بحوث المسلمين بالاستقصاء والاستمرار ودقة الملاحظة والاستنباط وسداد الاستدلال فسمت أبحاثهم الى مرتبة عالية ، وكان لهذا الامر أثره فى البحوث والعلوم العربية التى احتواها التراث العربى الاسلامى ؛ والذى عد الاستقراء والملاحظة — فى العلوم العملية والتطبيقية — أصلين أساسيين .

نخلص الى أن العرب بحق مؤسسوا الطرق التجريبية فى الكيمياء ، والطبيعة، والحساب والجبر والجيولوجيا ، وحساب المثلثات ، وعلم الاجتماع ، بالاضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية فى مختلف العلوم ، والتى سرق أغلبها ونسب الى الآخرين أى أنهم قدموا أثمن هدية للعالم الانسانى وهى طريقة البحث العلمى الصحيح التى مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة والتى يرى أنه يسيطر عليها اليوم (١) .

والرأى الأخير هو نتيجة لاستقراء تاريخ الفكر ، فها هو جابر بن حيان ، والحسن بن الهيثم والخوارزمى . وغيرهم ممن استنوا هذا المنهج بل وحددوا خطواته ومراحله ، وهم من العلماء المسلمين الذى يشهد لهم بالتزامهم التام بالمنهاج الاسلامى فى الفكر والتعبد .

وعلى ضوء المنهج السابق ، قسم وصنف العلماء العرب المسلمون العلوم الذين يبحثون فيها تقسيمات مختلفة ، فمنهم من كان وراقا أمثال ابن النديم ، الذى قسم التراث تبعا للمؤلفين ، والخوارزمى الذى قسم العلوم صنفين :

الأول — علوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية .

---

(١) هونيكه : المرجع السابق ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

الثانى ــ العلوم العملية الذى أطلق عليها علوم العجم .

ولم يختلف كثيرا تقسيم ابن خلدون للعلوم . ولكنه كان ملتزما بما جاء بالمنهج ، ولذا جاء تقسيمه حسب المنهج ، وهو قسمين (١) :

الأول ــ العلوم النقلية ، وعرفه بما يلى « مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ، ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالأصول ، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه ، فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسى ، الا أن هذا القياس متفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الأصل ، وهو نقلى ، فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه ، وتشمل هذه علوم الدين وعلوم اللسان .

وأصل هذه العلوم كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشرعة لنا من الله وسنة رسوله ، وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيئها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى هو لسان الله وبه نزل القرآن .

فالعقيدة الاسلامية صحيحة وثابتة فى ذاتها ولا تحتاج الى دليل ، وأعمالا تدل على الفاعل .

وبذلك فانه يحدد المنهج لهذه العلوم بأنه نقلى ، وليس للعقل فيها مجال الا فى الحاق الفروع بالأصول ، أى بالنصوص من الكتاب والسنة ، والالحاق بالنقل ، وأعمالها تدل على فاعلها .

الثانية ــ العلوم العقلية ويسميها أيضا الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها ، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيهــا ، من حيث هو انسان ذو فكر ، وتشمل العلم الطبيعى ، والعلوم العددية ، والعلوم الهندسية والهيئة والطب ،و الفلاحة والكيمياء .. الخ .. أى كل العلوم البحثية والتطبيقية وعلوم الفلسفة .

على أن هناك أمران هامان يجب تداركهما : الأول رغم أن القسم الثانى من العلوم يعتمد على جمع الجزئيات وتقصى وقائعها قبل الوصول الى الكليات ، فان العلماء المسلمين كانت لهم فى هذا الأمر توجيهات من القــرآن الكريم ، جعلهم

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٠ ــ ٤٠١ .

يبهون ويبحثون فى أمر كليات أمرهم بها مصدر الالزام الهام ، وهو الوحى ، ثم على اعتبار أن هذه الكليات توجيهات يتبعها الدور الانسانى ، فانهم يستخدمون الطريقة التجريبية العملية فى تحقيق النتائج والقوانين القابلة للتبديل ، ولذلك نجد ان هذه القوانين مهما تغيرت وتبدلت وفقا للحياة والظروف ، فانها تقع تحت مظلة واحدة . ومجموع هذه المظلات توجيهات من مصدر الالزام الرئيسى ، وهو القرآن الكريم . والحقيقة المؤكدة أنه يتضمن اشارات هادية لكافة الأجيال مع تطور العصور بما يكون هديا .

اما الأمر الثانى — انه لا يوجد علم صحيح فى حقيقته يتعارض مع نص قرآنى . كتاب الله الباقى للأمة الاسلامية والعالمين ، أى الى البشر جميعا .

الخلاصة أن ما جاء به القرآن من سبق علمى ، هو الحق ، وكل معرفة صحيحة هى معرفة قرآنية اسلامية على الاختلاف فى تفسيرها ، والنسبة الى الكتاب الكريم بين فئة ترى أن المعرفة محتواه فيه اجمالا وتفصيلا وفئة ترى أن المعرفة مطلب من مطالب المؤمن بالكتاب لا يعوقه عائق منه أن يتحداها ويحققها ويهتدى بها حيث أصابها (١) .

ومن الأمثلة التى تؤكد صدق هذا القول ، نأخذ من القرآن بعضا من آياته . والأولى قوله تعالى « وأنزلنا الحديد فيه، بأس شديد ، ومنافع للناس»(٢) والتفسير أن الله تعالى يشير الى ارادته وتقديره فى خلق الأشياء والأحداث ، فهى منزلة بقدره وتقديره ، والحديد قوة فى الحرب والسلم ، فمنه قديما وحديثا تصنع منه آلات الحرب كالدروع ، والرماح ، والتروس والدبابات ، وفى السلم حديثا كانت الثورة الصناعية قائمة عليه ، وما زالت الآلات الثقيلة والخفيفة تصنع منه أو يدخل فى تركيب بعضها ، وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد سواء فى الآلات أو الأدوات الانتاجية ، كسك الحراثة ، والسكاكين ، وفأس الزراعة وغيرها (٣) .

والحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم حول الأجنة وخلق الانسان .. توصل اليها علماء المسلمين من قبل وادركوها ايمانا بما جاء فى القرآن ، وتجربة من خلال

(١) العقـــاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ٨٧ —٨٨ .

(٢) سورة الحديد ، آية ٢٥ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، جـ ٢ ص

دراساتهم العملية ، وما زال العلم الحديث يكتشف مراحلها بعد ما تقدمت الدراسة وخصصوا علما يسمى « علم الأجنة التشريحى » . فالله سبحانه وتعالى بقدرته يذكر أن مراحل تكوين الأجنة تمر بعدة عمليات دقيقة لا يستطيع الأمر بها الا صاحب القدرة الكبرى وهو القادر عز وجل . فنظرة الى الآيتين التاليتين: « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا بعد خلق فى ظلمات ثلاث » (١) ، « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم خلقناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (٢) .

فالله ، سبحانه وتعالى وهو المنشىء وضع نظاما دقيقا لمراحل الخلق أى النشأة الانسانية ، هذه المرحلة التى تبدأ من الطور الأول من أطوار هذه النشأة والطين مصدرها الى أن ينتهى الطور الأخير وهو الانسان .

ويضع عزت قدرته المراحل التنفيذية بين الطورين وفق النظام الذى قدره لها . والذى يمر بمراحل حيث يقول « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا بعد خلق» وهذه المراحل فصلها تفصيلا دقيقا ، فيبدأ الانسان أو الجنين بنقطة مائية تخرج من صلب رجل ، فتستقر فى رحم امرأة « فى قرار مكين » أى رحم غائر بين عظام الحوض ، محمية من التأثر باهتزازات الجسم وما تتعرض له البطن والظهر . ثم المرحلة التنفيذية الثانية هو امتزاج خلية الذكر ببويضة الأنثى فتتحول النطفة الى علقة ، وتعلق بجدار الرحم نقطة صغيرة فى أول الأمر تتغذى بدم الأم . ثم تأتى المرحلة الثالثة حيث تكبر النقطة العالقة فتتحول الى قطعة من دم غليظ مختلط ، وهى المضغة ، وتمضى هذه الخلية فى ذلك الخط الثابت الذى قدره لها العليم الحكيم القدير حتى تأتى مرحلة العظام حيث تتحول المضغة الى عظام ، وهنا يأتى قول الله تعالى « فكسونا العظام لحما » ، وهذا التطور الجديد فى التسلسل هو « كسونا » . وهذا يعنى شيئا هاما هو أن الخلايا الأولى التى يتكون منها العظام هى غير الخلايا الثانية التى كسى بها العظام وهى اللحم . وهذا آخر ما توصل اليه علم الأجنة التشريحى .

---

(١) سورة الزمر ، آية ٦ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية ١٦ .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن ينبه لشيء هام ، أن هذه العملية يمر بمناخ مقدر لها ، وعلى درجة كبيرة من التناسب ألا وهو الظلمات « فى ظلمات ثلاث » كل له دوره فى الحماية والنشأة : ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس ، وظلمة البطن الذى يستقر فيها الرحم (١) . هذا ما أراد الله أن يعلم به بنى الانسان ليعلوا ، ويتعلموا . وهو المنهج الاسلامى الذى أحيا العلم الاسلامى ثم التراث العربى الاسلام .

* * *

وفى النهاية فى دراستنا لمنهج التراث الاسلامى : نقرر أن العقل لا يستطيع أن يجتهد فى القسم الأول من العلوم اجتهادا غير محكوم ، لأنها جاءت عن طريق النقل والالزام ، اما من الشارع الأصلى فى الكتاب ، أو السنة ، علما بأن مصدر السنة هو الوحى الالهى لقوله تعالى :

« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى» (٢)

أو من قواعد ثابتة سبق ذكرها . ولا يجوز تطبيق المنهج العقلى أو غيره على العلوم النقلية .

وهنا وجب علينا أن نشير الى أمرين هامين :

الأول — أن علماء الحديث بذلوا جهودا دقيقة وجادة ومحكمة لتوثيق الأحاديث وتنقيتها وتنقية السنة من كل ما يمكن أن يكون دس عليها ، لذا ركزوا اهتماماتهم على الرواة ، يجدحون ويعدلون لهم ، ويضعون الأدنى شك حتى يطهر ولا يظهر حديث ضعيف أو موضوع . وكان لهذا المنهج أثره الفعال فى العلوم الدينية الأخرى مثل اللغة والأدب ، وبحيث أصبحت الرواية أصلا فى العلوم الشرعية جميعا .

الثانى — لو جرت محاولة لتطبيق المنهج العقلى على العلوم النقلية فان هذا يعتبر خطأ منهجى فادح واذا كان المنهج خاطئا ، فان النتائج المترتبة عليه تكون خطأ ، وهى محاولة يثيرها المستشرقون ومن تابعهم على الحديث عنها وبعض العلوم النقلية الأخرى ، ويجب الرد عليهم بالدراسة الاسلامية المتعمقة بما أوتيت من خبرة وعلم ، هذا فضلا عن اهتمامنا بتراثنا الواسع .

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، جـ ٥ ، ص ٣٠٣٩ — جـ ٤ ، ص ٢٤٥٠ .
(٢) سورة النجم ، آية ٣ — ٥ .

الثالث ــ هناك حقيقة هامة يجب توضيحها عن التفكير العلمى وطبيعته ، وهى أن العلم لا يشترط لنفسه موضوعا معينا ؛ اذ العلم انما يكون علما بمنهجه لا بموضوعه ، فاختر ما تشاء من موضوع للنظر ، وتناوله بالمنهج الذى يضمن لنا سلامة الوصول الى نتائج صحيحة . فاختر أى موضوع من الموضوعات يعن لك تناوله بالبحث العلمى ، فأنت بما اخترته تكون فى دائرة العلم ما دمت تنهج نهج العلم فى خطوات سيرك ، بغض النظر عن الموضوع .

وأما منهج العلم اما يرتكز على مسلمات وأساسيات ومبادىء مسلم بها ومؤمن به مسبقا ومقدما كما فى حالة العلوم الدينية وخاصة القائمة على كتاب سماوى ، ويؤمنون به كما هو عند العلماء العرب المسلمين الذين يؤمنون بكتاب الله الكريم « القرآن » وبما جاء جميعا ، أو مسلمات مفروض فيها الصدق مقدما مثل العلوم الرياضية أو ما يدور مدارها . ويكون مقياس الصدق هو سلامة استدلال النتائج من تلك المسلمات والمبادىء .

واذا طبقنا كل ذلك على ما احتواه التراث العربى الاسلامى من أساليب علمية ومنهج ، نجد أن منهج التراث كله هو اتباع كل ما سبق الاشارة اليه فى الدراسة ، بمعنى آن دراساته وأبحاثه جميعا تقوم على أساس المنهج الاسلامى بل لن نكون مغالين اذا قلنا انه هو الذى أوجد المنهج بشقيه الهابط من المبادىء العامة الى الجزئيات ، والصاعد من الجزئيات الى النتائج والقوانين العامة ، وذلك فى أقسام العلوم المشار اليها ، وكل فيما يحتاجه من أسلوب فى المنهج العلمى .

واذا كنا نتيه اليوم فى عالم الخيال عن قممنا الشامخة التى وضعت التراث الدينى والعلمى والأدبى والمناهج التى يتم الدراسة بها ، فاننا بذلك قد ساعدنا المستشرقون فيما يعرضونه علينا من تشويه ، وبما ينكرونه على علمائنا ، وعلى علومنا وينسبونها لأنفسهم ولروادهم ، وهذا ما دعى البعض منا أن يحس فى روحه بالحرمان المزدوج . فمن الأولى بنا ، ونحن سلالة وأبناء وقوم العلماء العرب المسلمون طوال آكثر من ثمانى قرون ، الذى أسع علمهم على العالم الحديث ، أولى بنا أن نرجع الى تراثنا الذى قدم الانجازات العلمية التى تهيمن حتى اليوم على التقدم التكنولوجى مثل الحساب العشرى أو الغبارى ، والجبر،

والكيمياء وعدد من القوانين فى عالم الكائنات العصوبة والطبيعية والفلك ولعلك ترجع الى بعض ما استخرج من كتب التراث بواسطة أحد العلماء العرب المعاصرين (١) . ليتأكد لنا أن العلماء المعاصرين الغربيين قد وصلوا الى ما سبق أن وصل اليه علماؤنا العرب المسلمين منذ قرون عدة وعلى سبيل المثال فى علم الفلك عن السيارات فى المنظومة الشمسية التى ذكرها القرآن وأوضحها النبى صلى الله عليه وسلم وتناولتها الكتب العلمية ثم فسرها بصورة أوضح فيما بعد الشهرستانى صاحب كتاب « الهيئة » ؛ ومن الأمثلة ذات الصبغة التاريخية الجغرافيا ، وتأويل معلمى الرياضيات عن قول الله تعالى فى سورة الكهف من قصة ذى القرنين : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة »(٢).

وعلينا أيضا أن تتبع المنهج الاسلامى النابع من المنهج القرآنى ، ونعلم أن التغيير الجذرى الذى أحدثه المفهوم القرآنى فى تنمية تراث الانسانية العلمى لا يقدر بانجازات يقرها أو ينفيها المستشرقون حسب أهوائهم ، ووفق ما يخدمونه بل نقرر بما أحدثه المفهوم القرآنى فى المناخ العقلى والبناءات العقلية منذ نزلت « إقرأ » .

كما يجب على الانسان الذى يسير وراء المستشرقين فى وضع تراثنا كله تحت منهجهم العلمى لأنهم اذا طبقوا ذلك ، بفرضية خلو نفوسهم وقلوبهم وعقولهم — قدر استطاعتهم — من آثار العصبيات والمنازعات والأهواء ، يكونوا قد أخطأوا فى نظر البعض منا لأن نتائجهم التى استخرجوها من منهجهم لم ولن تأت بما ألفناه .

وانا لنفرض جدلا أن جمهرة المتصدين لتراثنا من المستشرقين من شرقيين وغربيين لا تخلو أنفسهم من هوى ، ولا تبرأ من اعتلال ، ولكن الى أى هؤلاء المتصدين نطمئن أو نكون أكثر اطمئنانا وأقرب الى تعرف الحقيقة والظفر بها : الى هذا الذى يجهل المنهج العلمى فلا يكاد يصل الى صواب الا عرضا ومصادفة وندرة مثل الرهبان والقسيسين ورجال الكنيسة أم الى ذلك الذى يحارب هواه أو حتى يسالمه — الا نفرا تناولت أقلامهم ذلك التراث بالنيل منه عن عصبية أو

(١) عباس محمود العقاد : والامثلة كثيرة فى كتابة « التفكير فريضة اسلامية سواء فى فصل العلم او غيره .

(٢) سورة الكهف آية ٨٦ .

عقيدة أو مطمع سياسى ، فسخر العلم ليجعل من الحق باطلا ، وهم كثيرون يعملون فى الوقت الحاضر تحت أنظمة سياسية مشبوهة معادية للإسلام والعرب ، وهؤلاء يأخذون بالمنهج العلمى ، فنراهم يطأون الامصار وينفقون الثروات ويفنون العمر بين المخطوطات والآثار والمصنفات مطلعين منقبين مستنطقين مقارنين ، فلا يتقدم أحدهم بقضية الا وبيده دليلها ، ولا ينهض بدعوى الا وهو يسوق لها الأسانيد والحجج التى تحسم كل خلاف وتنفى كل ريب (١) ، وليست هذه القضايا المدعاة، والدعاوى المزيفة ثوب الحق ، وهى مفسرة تفسيرا باطلا لكل واعى ناضج فاهم للتراث العربى الاسلامى ، وهذه الجماعة هى من أخطر الجماعات علينا وعلى تراثنا ، لأنهم يستترون وراء المنهج العلمى ويمولون ماديا وأدبيا من المنظمات والنظم السياسية المعادية للاسلام والعرب .

وبعد هذا ، ولكل ما سبق الاشارة اليه : فانه من الواجب علينا — أفرادا وجماعات علماء ودارسين ، مثقفين وتجار وصناع كتب ، هيئات علمية ورسمية — أن نهتم باحياء هذا التراث بفهم ووعى ، ونعمل على خدمته خاصة وأن فى مقدمته التراث الدينى الذى تتمثل فيه شخصية الأمة الاسلامية ، والأمة العربية ، فضلا عن أنه أحدث وأعظم أسلوب تقوم عليه تربية وتنمية وتقدم الشعوب فى عالمنا العربى الاسلامى المعاصر .

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ، جـ ٣ ، ص ١١٤ .

القسم الثانى

مصادر التراث العربى

- المحاضرة الرابعة: الموسوعات
- المحاضرة الخامسة: المعاجم العربية
- المحاضرة السادسة: معاجم التراجم العربية
- المحاضرة السابعة: المراجع الجغرافية العربية

*هـذا الجزء مقتبس من كتاب "المراجع العربية" لمؤلفه سعود الحزيمى (ص ص٦٣-١١٤،٧٢-٢٢٥،١٥٩-٤١٠،٢٥٩-٤٥١)

المحاضرة الرابعة

الموسوعات

١- تطور الأعمال الموسوعية العربية

٢- التعريف ببعض الأعمال الموسوعية العربية

الموسوعات

١- تطور الأعمال الموسوعية العربية
٢- التعريف ببعض الأعمال الموسوعية العربية

الأعمال الموسوعية العربية القديمة :

١ ــ تطور الأعمال الموسوعية العربية

لقد كان ظهور الإسلام بداية لحضارة إسلامية عظيمة في جميع مجالات المعرفة بوجه عام وفى ميادين الكتابة والتأليف بوجه خاص. وكان العصر العباسى، الزمن الذى ازدهرت ونضجت فيه حركة العلم والثقافة وبدأ فيه تدوين العلوم سواء الإسلامية منها أو المترجمة من الأمم والحضارات الأخرى. وبرغم وجود الاتجاه نحو التخصص العلمى لدى العلماء وطلاب المعرفة، إلا أنه كان هناك فى الوقت نفسه اهتمام بالثقافة والأخذ من كل فن بطرف وهو ما كان يطلق عليه كلمة «الأدب». وانطلاقا من الحاجة إلى التثقيف العام، ظهرت الكتب الأدبية الجامعة، التى كانت تحفل بكافة العلوم والفنون. ويأتى على رأس تلك المؤلفات الأدبية كتب الجاحظ والكامل للمبرد والأمالى للقالى ونحوها.

ومع حلول القرن الثالث الهجرى حدث تطور جديد فى مجال الكتب الأدبية الجامعة، وتمثل ذلك فى ظهور المؤلفات ذات المجلدات المتعددة مثل «عيون الأخبار» لابن قتيبة «والعقد الفريد» لابن عبدربه، والتى تشبه فى كثير من سماتها الأعمال الموسوعية الحديثة. وقد واصل هذا النوع من المؤلفات طريقه حتى جاء العصر المملوكى الذى شهد ظهور المؤلفات الموسوعية الشاملة مثل «نهاية الأرب» للنويرى «وصبح الأعشى» للقلقشندى وغيرذلك من الكتب الأدبية الشاملة. ويعود السبب فى ازدهار هذا النوع من التأليف إلى تراجع مستوى الثقافة لدى عامة الناس مما أدى إلى اتجاه المؤلفين نحو عمل المختصرات للكتب القديمة، وإعداد الكتب الشاملة التى تجمع شتات المعرفة فى كتاب واحد.

ونظرا لكثرة الكتب الأدبية الجامعة فى التراث العربى القديم وحداثة التأليف الموسوعى كنوع متخصص من التأليف، فقد ثار جدل كبير بين الأدباء والمفكرين العرب فى العصر الحديث حول تحديد الأعمال الموسوعية العربية القديمة من بين ذلك التراث الضخم. ففى حين يرى فريق أن جميع المؤلفات الأدبية الجامعة تعتبر كتبا موسوعية، يرى فريق ثان أن تلك المؤلفات والكتب الجامعة لا تعدو كونها كتبا عادية ولا ترقى إلى مستوى الأعمال الموسوعية. ويقف فريق ثالث فى الوسط بحيث يضع معايير معينة يتم على أساسها اعتبار البعض من تلك الكتب الأدبية أعمالاً موسوعية، واعتبار البعض الآخر كتباً أدبية عادية [1] ويعود السبب فى ذلك إلى عدم التزام البعض من أولئك المفكرين بمنهج معين فى الحكم على تلك المؤلفات الأدبية وعدم وضوح الرؤية لديهم حول خصائص وسمات دوائر المعارف فى العصر الحديث.

---

(١) كامل كامل بكرى وعبدالوهاب أبو النور «التأليف الموسوعى عند العرب» فى طاشكبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، مراجعة وتحقيق كامل كامل بكرى وعبدالوهاب أبو النور، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨، ص ص (٣٦—٣٨).

والواقع أن التأليف الموسوعى خلال العصور التى سبقت العصر الحديث، لايمكن بالضرورة أن يكون ملتزماً بالمنهج والخصائص التى تتوافر فى الأعمال الموسوعية الحديثة. بل إن لكل عصر سماته وخصائصه الخاصة فى التأليف الموسوعى، والذى يعتبر فى واقع الحال تطورا طبيعيا وارهاصا أدى إلى وصول التأليف الموسوعى إلى شكله الحديث.

وبناء على ذلك سيتم اعتبار كل كتاب جامع ـ أعد خلال العصور الإسلامية ـ ويضم معلومات شاملة أو متخصصة، أو اختصارات للمعارف والفنون، وتم ترتيبه بشكل ما (ألفبائياً، موضوعياً) عملاً موسوعياً عربياً قديماً.

وانطلاقا من التعريف السابق، فإن الكتب الجامعة فى التراث العربى يمكن إدراجها تحت واحد من الأنواع الأربعة التالية:

- الكتب الأدبية العامة، وهى التى تجمع فنون الأدب المختلفة من شعر ونثر وأمثال لغرض الترفيه والتثقيف مثل كتب الجاحظ، «والكامل» للمبرد و «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى ونحوها.
- الكتب البيليوجرافية، وتضم الكتب التى تتوجه إلى التعريف بالمؤلفات، والتى قد يستطرد بعض مؤلفيها فى الحديث عن بعض العلوم والفنون بحيث أصبحت أكثر شبها بالكتب الموسوعية مثل كتاب «الفهرست» لابن النديم، و «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زادة، و «كشف الظنون» لحاجى خليفة.
- كتب موضوعات العلوم، وتشمل جميع الكتب التى تعنى ببيان حدود العلوم والمعارف وبيان مجالاتها وعلاقات أجزائها ببعض وبالعلوم الأخرى، أو تتوجه نحو وضع تقسيم فلسفى للمعرفة البشرية. ويأتى على رأس هذا النوع «إحصاء العلوم» للفارابى، و «أقسام العلوم العقلية» لابن سينا، و «حدائق الأنوار وحقائق الأسرار» للفخر الرازى، و «النقاية والدراية» للسيوطى، «وأنموذج

«العلوم» لجلال الدين الدوانى، و «المطالب الإلهية» للمولى لطف الله، و «موسوعات العلوم» للبسطامى [1].

ـ الكتب الموسوعية، وهى الكتب الجامعة التى تتناسب مع التعريف السابق من حيث اشتمالها على معلومات أو مختصرات للمعارف والعلوم، وتم ترتيب الموضوعات بها بشكل منهجى (ألفباتى أو موضوعى) يسهل عملية الوصول إلى المعلومات المرغوبة ومن تلك الكتب الموسوعية :

«عيون الأخبار» لابن قتيبة، و «رسائل إخوان الصفا»، و «الشفاء» لابن سينا، و «نهاية الأرب» للنويرى، و «صبح الأعشى» للقلقشندى و «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزى، و «حياة الحيوان الكبرى» للدميرى، «العقد الفريد» لابن عبدربه ونحوها.

كما يضاف إليها المعاجم الموسوعية التى ظهرت خلال العصور المختلفة مثل «مفاتيح العلوم» للخوارزمى، و «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانونى، و «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» لابن البيطار، وكتاب «الكليات» لأبى البقاء ونحوها.

ومما سبق يتضح لنا أن الكتب التى تندرج تحت النوع الأخير هى التى يمكن اعتبارها أعمالا موسوعية، ولذا فهى التى تدخل فى مجال اهتمامنا فى هذا الفصل.

وتتميز الأعمال الموسوعية العربية القديمة بالعديد من الخصائص التى تؤكد تميزها عن الأعمال الموسوعية الأخرى. ومن تلك الخصائص مايلى :

ـ تنقسم الأعمال الموسوعية العربية القديمة من حيث أهدافها العامة إلى نوعين رئيسين : نوع يتوجه إلى السواد الأعظم من الناس وذلك بهدف تعليمهم

---

(١) المرجع السابق ص ص (٤٠ ـ ٤١)

وتثقيفهم عن طريق قراءة الكتب الجامعة التى تغنى عن قراءة عدد كبير من المؤلفات، والنوع الآخر يتوجه نحو تثقيف فئة معينة مثل الكتبة العاملين فى دواوين الدول الإسلامية المختلفة.[1]

- تركز معظم الأعمال الموسوعية العربية القديمة على تغطية الموضوعات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية. و يتوجه القليل منها إلى تغطية مجالات أخرى مثل العلوم المترجمة من الأمم الأخرى مثل الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب والكيمياء وغير ذلك من العلوم التطبيقية.

- تختلف الأعمال الموسوعية القديمة فى طريقة ترتيب المواد والموضوعات. ففى حين يتبع معظمها الطريقة الموضوعية، وذلك بتقسيم العمل الموسوعى إلى أبواب رئيسية، وتقسيم كل باب إلى مباحث وفصول فرعية، نجد البعض الآخر من الأعمال الموسوعية العربية القديمة يتبع الطريقة الألفبائية وغير ذلك من الطرق الأخرى المتبعة فى تنظيم المعاجم اللغوية. ولكن الأعمال الموسوعية التى تتبع الطريقة الموضوعية هى الأغلب، إلا أنه لم يكن هناك اتفاق فيما بين مؤلفى تلك الكتب على تصنيف موضوعى معين للعلوم والفنون. ولذا نجد أن كل كتاب يتبع طريقة معينة فى تقسيم العلوم والفنون تختلف عن الكتب الأخرى. أما الطريقة الألفبائية، فتظهر فى بعض الأعمال الموسوعية و بخاصة المعاجم الموسوعية.

- كان يقوم بإعداد الأعمال الموسوعية العربية القديمة شخص واحد ماعدا عملاً واحدا هو «رسائل إخوان الصفا» فقد قام بإعدادها مجموعة من الأشخاص. وتتفق الأعمال الموسوعية العربية القديمة فى ذلك مع مثيلاتها فى أنحاء العالم الأخرى.

---

(1) The New Encyclopedia Britannica. Op Cit: Vol vi, p. 798.

٢ ـ التعريف ببعض الأعمال الموسوعية العربية القديمة :

ـ عيون الأخبار : أبو محمد عبدالله بن مسلم ، ابن قتيبة الدينورى .

يعتبر كتاب عيون الأخبار، أول كتاب أدبى جامع يمكن إطلاق صفة الموسوعية عليه . فهو كتاب أخبار وقصص وحكايات ونصوص مختارة أجاد المؤلف جمعها وترتيبها لتحقيق هدف تعليمى وتثقيفى . وقد قسم المؤلف الكتاب إلى عشرة كتب هى : كتاب السلطان، وكتاب الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبائع والأخلاق ، وكتاب العلم ، وكتاب الزهد ، وكتاب الإخوان ، وكتاب الحوائج ، وكتاب الطعام ، وكتاب النساء . ويحتوى كل كتاب من الكتب السابقة على مسائل فرعية . أتمت دار الكتب المصرية نشر هذا الكتاب فى أربعة أجزاء فيما بين عامى ١٩٢٤ــ١٩٣٠ م .

ـ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء .

أول عمل موسوعى باللغة العربية يتم إعداده بواسطة مجموعة من المؤلفين أحاط الغموض بأسمائهم وشخصياتهم . وتتكون الموسوعة من إثنين وخمسين رسالة فى أربعة أقسام عامة هى : القسم الرياضى ، والقسم الطبيعى ، وقسم الدراسات النفسية والعقلية ، وقسم الآراء والديانات . وتوجه الكتاب بشكل رئيسى إلى الاهتمام بالعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية والشرائع والديانات . طبعت الرسائل أولا فى بمبى بالهند سنة ١٣٠٥ هـ . كما طبعت فى مصر عدة طبعات منها طبعة المطبعة المصرية ١٣٤٧ هـ/١٩٢٨م . وطبع فى بيروت سنة ١٩٥٧م .

ـ كتاب الشفاء : أبو على الحسين بن عبدالله ، ابن سيناء .

موسوعة كبرى فى الفلسفة قسمت إلى أربعة أقسام هى : المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والإلهيات . وكل قسم من تلك الأقسام يسمى «جلة» وتحت كل جلة

«فن» ، وتحت كل فن عدة مقالات ، وتحت كل مقالة عدة فصول. وقد استغرق تأليف هذا الكتاب العظيم زهاء عشرة أعوام. وطبعت أجزاء منه فى بداية القرن الرابع عشر الهجرى ، حتى تمت طباعته فى القاهرة محققا بمناسبة العيد الألفى لميلاد مؤلفه.

ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى

شهد العصر المملوكى حركة تأليف لكتب موسوعية عديدة وكان من أهم تلك الكتب الموسوعية كتاب «نهاية الأرب». وقد قسم المؤلف كتابه إلى خمسة فنون هى :

الفن الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والعالم السفلية.

الفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به.

الفن الثالث : فى الحيوان الصامت.

الفن الرابع : فى النبات.

الفن الخامس : فى التاريخ.

وقد قام المؤلف بتقسيم كل فن إلى أقسام متعددة وكل قسم إلى أبواب فرعية يتناول كل منها الفروع والجزئيات التابعة لذلك الفن أوالموضوع. «ونهاية الأرب» موسوعة كبرى تتحدث عن المعارف والعلوم بشكل عام يعكس ماوصل إليه الفكر والحضارة الإسلامية فى زمن المؤلف.

قامت دار الكتب المصرية بطبع ١٨ جزءاً منه فيما بين سنتى ١٩٢٣ـ١٩٣٥ م. وأعادت طبعه مرة أخرى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٦٤ م.

ـ حياة الحيوان الكبرى : كمال الدين محمد بن موسى الدميرى.

يعتبر هذا الكتاب معجماً موسوعياً متخصصاً فى علم الحيوان. و يقع الكتاب فى مجلدين و يتضمن (١٠٦٩) مادة عن مختلف أنواع الحيوانات. وقد اختلف طول المادة وقصرها من الحيوانات المشهورة إلى الحيوانات الغريبة. ففى حين نجد أن التعريف

ببعض تلك المواد قد وصل إلى عدد كبير من الصفحات، فإن التعريف بالبعض الآخر لم يصل طوله إلى أكثر من بضعة أسطر. و يتميز الكتاب باتباعه للطريقة الألفباتية الدقيقة فى ترتيب المواد وهذا ماجعل مهمة الباحث فيه سهلة وميسورة.

طبع فى القاهرة فى مطبعة بولاق سنة ١٢٧٥ وفى المطبعة الأدبية ـ سنه ١٣١٩ هـ، وفى مطبعة محمد على صبيح ١٣٥٣ هـ، وفى المطبعة التجارية الكبرى، ١٣٧٤ هـ، كما طبع فى طهران سنة ١٢٨٥ هـ.

ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : أبو العباس أحمد بن على القلقشندى.

عمل موسوعى ضخم يقع فى أربعة عشر مجلدا. وقد تم تقسيمه إلى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة. و يتوجه الكتاب إلى تحقيق هدف خاص وهو تعليم وتثقيف كتاب ديوان الإنشاء فى عصره. ولذلك نجد أن المؤلف قد حاول أن يشتمل كتابه على مختلف جوانب الثقافة الإسلامية مثل نوادر الأخبار، ووصف الأقاليم والأنهار، والمعلومات اللغوية والأدبية والتاريخية والدينية، مع تركيز خاص على الديار المصرية التى تعتبر مركز الدراسة فى موسوعته. وقد صدر للكتاب فهارس شاملة من إعداد محمد قنديل البقلى سنه ١٩٧٢ م.

طبعته دار الكتب المصرية فيما بين سنتى ١٩١٣ ـ ١٩٢٠ وقامت بإعادة طبعه المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٦٤ فى ١٤ مج، وهى نسخة مصورة من طبعة دار الكتب.

ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : تقى الدين أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد المقريزى.

يعتبر هذا الكتاب موسوعة جغرافية متخصصة عن الديار المصرية وأقاليمها المختلفة. وقد قسم المؤلف كتابه إلى سبعة أقسام، كلها تتحدث عن أخبار مصر

وسكانها ومدنها وتاريخها وأحوالها المختلفة. و يقع الكتاب في ثلاثة مجلدات، وتمت طباعته لأول مرة في بولاق عام ١٢٧٠ هـ. وطبع تصويراً عن الطبعة السابقة بواسطة دار التحرير للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٧/١٩٦٨ م.

أما من ناحية المعاجم الموسوعية فيمكن أن نتناول بالتعريف منها الآتي :

ــ مفاتيح العلوم : أبو عبدالله محمد بن أحمد الخوارزمي.

كتاب موسوعي يحتوي على معلومات عامة عن العلوم المختلفة وشرح مختصر لمصطلحاتها. وقد قام المؤلف بتقسيم كتابه إلى مقالتين، تحتوي الأولى منهما على ستة أبواب وفيها اثنان وخمسون فصلا، وتحتوي المقالة الثانية على تسعة أبواب وفيها واحد وأربعون فصلا. وقد خصص المؤلف المقالة الأولى للعلوم الشرعية والعربية، وخصص الثانية للعلوم الأخرى مثل الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب والهندسة وغيرها.

حققه وعمل فهارسه ج فان فلوتن في ليدن ١٨٩٥. وطبع في المطبعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٢ هـ.

ــ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية : أبو محمد عبدالله بن أحمد بن البيطار.

معجم موسوعي لمفردات الأدوية والأغذية كتبه مؤلفه تنفيذا لأوامر الملك الصالح نجم الدين أيوب في القرن السابع الهجري. وقد قام المؤلف فيه بجمع جميع المفردات الخاصة بالأدوية والأغذية مع شرحها وبيان منافعها ومضارها وكيفية استخدامها، في ترتيب ألفباتي وفقاً لطريقة ترتيب المعاجم اللغوية. وقد تمت طباعته لأول مرة عام ١٢٩١ هـ في بولاق بمصر، وأعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد بالأوفست في أربعة أجزاء في مجلدين.

ـ كشاف اصطلاحات الفنون : محمد بن على التهانونى .

معجم موسوعى يتناول بالتعريف المصطلحات العلمية والفقهية التى عرفت فى العالم الإسلامى. وقد بدأ المؤلف بالتعريف بالعلوم المختلفة، ثم اتبعه بالتعريف بالمصطلحات العلمية وفقا للطريقة الألفبائية. وقد طبع المعجم فى كلكتا بالهند سنة ١٨٦١ م. وطبع أيضاً فى الآستانة سنة ١٣١٧ هـ. وطبع فى القاهرة بواسطة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٦٣ م بتحقيق لطفى عبدالبديع .

المحاضرة الخامسة

المعاجم العربية

١- تطور المعاجم العربية

٢- أنواع المعاجم العربية

- معاجم الألفاظ
- معاجم المعانى

المعاجم العربية القديمة :

تطور المعاجم العربية القديمة :

كان العرب فى جاهليتهم أمة أمية لاعهد لها بتدوين العلوم. ولذا لم يكن لديهم أى نوع من التأليف المعجمى لعدم حاجتهم إليه. وإن احتاج أحد أبناء العرب إلى معرفة بعض الألفاظ الغريبة أو النادرة. فإن الطريقة التى كانت مستخدمة لديهم هى الرجوع إلى كلام العرب وشعرهم ومشافهة فصحائهم.

وبعد ظهور الإسلام، توجه الصحابة والتابعون إلى دراسة القرآن الكريم وتفسير آياته واستنباط الأحكام الشرعية منها. وكانت تواجههم خلال ذلك بعض الألفاظ والمعانى التى تستعصى على فهمهم، ولذا كانوا يرجعون إلى كلام العرب لبيان معانى الألفاظ الغريبة أو النادرة. ومن هذه النقطة بدأ الاهتمام باللغة ودراساتها بشكل عام والمعجمات بشكل خاص، حيث كانت الدراسات التى أملاها الصحابة والتابعون على تلامذتهم النواة الأولى للدراسات اللغوية والمعجمية. وكان ذلك بداية للارتباط الوثيق والدائم بين الدراسات الشرعية واللغوية.

ويحدد أحد الباحثين ثلاث مراحل متداخلة ومتعاصرة وليست متعاقبة، مرت بها حركة تأليف المعاجم العربية القديمة وهى [1] :

- مرحلة تدوين ألفاظ اللغة وتفسيرها بدون ترتيب معين. ويمثل هذه المرحلة نشاط الرواة والعلماء الذين توجهوا إلى جمع الحديث النبوى والأدب وفنونه المختلفة، والسماع من الأعراب، وذلك منذ نهاية القرن الأول للهجرة وخلال القرن الثانى.

---

(١) أمجد الطرابلسى، نظرة تاريخية فى حركة التأليف عند العرب فى اللغة والأدب، دمشق: دار الفتح، ١٣٩١هـ، ص ص ١١ — ٢٢.

- مرحلة تدوين ألفاظ اللغة مرتبة فى رسائل قصيرة يتخصص كل منها فى جمع الألفاظ الخاصة بموضوع معين أو معنى من المعانى أو حرف من حروف الهجاء.
- مرحلة وضع المعاجم العامة والشاملة والمنظمة.

ومن خلال ماسبق، يتضح أن الدراسات اللغوية والمعجمات كانت فى البداية جزءا من الدراسات الدينية. ولكن الدراسات اللغوية بوجه عام والمعجمات بوجه خاص مالبثت أن تطورت واتسع مجال دراساتها بشكل مستقل، ولايعنى هذا توقف الدراسات اللغوية والمعجمية المندمجة مع الدراسات والمؤلفات الشرعية، بل استمر ظهور تلك الدراسات مع الدراسات اللغوية المستقلة خلال عصور الحضارة الإسلامية. أما بالنسبة للمعاجم فنجد أن بدايتها قد تمثلت فى جمع الألفاظ الغريبة والنادرة، ومن ثم إعداد الرسائل القصيرة التى تحتوى على الألفاظ الخاصة بموضوع أو حرف معين، وأخيرا كان ظهور أول معجم شامل فى اللغة العربية خلال القرن الثانى الهجرى، وتلاه سلسلة من المعاجم اللغوية العامة والموضوعية. وقد استمر ظهور المعاجم العربية القديمة خلال العصور الإسلامية المختلفة بجميع أشكالها الرئيسية، إلا أن القرون المتأخرة شهدت توقف الرسائل القصيرة، وتلاشى المعجمات المتخصصة، واستمرارية المعجمات العامة.

ونظرا لارتباط تاريخ تطور المعجمات العربية القديمة بالأنواع الرئيسية لتلك المعاجم، فسوف نفصل الحديث عن تاريخ كل نوع من أنواع المعاجم العربية القديمة بشكل مستقل فى الجزء التالى.

أنواع المعاجم العربية القديمة :

لايعرف التاريخ أمة تفننت فى إنتاج المعاجم كما وكيفا ولمختلف الأغراض مثل الأمة العربية. ولذا كان من الصعب إخضاع ذلك التراث المعجمى الضخم لتقسيم

نوعى معين. ولكن معظم الباحثين المتخصصين يتجهون إلى تقسيم المعاجم العربية القديمة إلى نوعين رئيسين هما :

ــ معاجم الألفاظ.

ــ معاجم المعانى.

١ ــ **معاجم الألفاظ** : يقصد بمعاجم الألفاظ جميع المعاجم التى تجمع ألفاظ اللغة وفقا لترتيب ما (غالبا مايكون ألفباتيا) ومن ثم تشرح كلا منها وتبين معانيها واشتقاقاتها ودلالاتها وأصولها التاريخية، أو بعضا من ذلك. وتضم معاجم الألفاظ معظم الإنتاج المعجمى العربى القديم. وسنقوم بتناولها فيما يلى من خلال النوعين التاليين :

- رسائل ومعاجم الألفاظ المتخصصة
- معاجم الألفاظ العامة

أ ــ رسائل ومعاجم الألفاظ المتخصصة :

يشمل هذا النوع جميع الرسائل والمعاجم القصيرة والتى ظهرت خلال العصور الإسلامية. و يعتبر هذا النوع من المعاجم النواة الأولى لكافة المعجمات العربية. فقد بدأ التدوين المعجمى أولا بالاتجاه نحو جمع الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم ثم الحديث النبوى. كما اتسع المجال الخاص بعد ذلك بحيث اتجه إلى جمع الألفاظ والمعانى الخاصة ببعض الموضوعات التى تعز على الذاكرة أو تدعو الحاجة إلى تسجيلها مثل جمع الألفاظ الخاصة بأحد حروف الهجاء أو لغات القبائل العربية، والألفاظ العامية والمعربة، وغير ذلك من الموضوعات ذات العلاقة الوطيدة بالدراسات الشرعية واللغوية، أو التى تدعو إليها حاجة الخاصة من العلماء والشعراء والكتاب وغيرهم. ولذا يمكن القول بأن الاتجاه المتخصص فى ميدان تأليف المعجمات العربية قد بدأ أولا

خلال القرن الأول الهجرى ومن ثم تبعه الاتجاه العام والشامل الذى ظهر خلال القرن الثانى، حيث تزامن الاتجاهان خلال العصور الإسلامية المختلفة. إلا أن التأليف المعجمى فى الموضوعات المتخصصة مالبث أن ضعف وتجمد عند حدود معينة، فيما واصل الاتجاه العام نموه وازدياده حتى العصر الحاضر.

ومن خلال تتبع تاريخ المعجمات المتخصصة يمكن ملاحظة الآتى :

- لقد بدأت المعجمات المتخصصة سواء فى مجال الألفاظ والمعانى مثل غيرها بداية ضعيفة حيث كانت جزءا من الدراسات الشرعية، ومن ثم ظهرت على شكل رسائل قصيرة، حتى انفردت بعد ذلك بذاتها فى كتب ومؤلفات مستقلة.
- نظرا لعدم وضوح مفهوم المعاجم خلال العصور الإسلامية الأولى، فإن الكثير من المؤلفات فى هذا المجال ـ خاصة مايتعلق منها بدراسات القرآن والسنة ـ اختلط فيها المفهوم المعجمى مع مفهوم التأليف فى الدراسات الشرعية مثل التفسير، ومع الدراسات اللغوية بعد ذلك مثل علم النحو، بحيث أصبح تمييز بعض المؤلفات المعجمية صعبا إلى حد ما.
- يشمل هذا النوع من المعجمات العربية القديمة، ألوانا مختلفة من المعاجم لا رابط بينها سوى التخصص فى تناول الألفاظ الخاصة بأحد الموضوعات أو الأغراض.
- ضاع الكثير من تراث الأمة الإسلامية بشكل عام والتراث فى مجال المعجمات بشكل خاص، ولكن الضياع فى مجال المعاجم المتخصصة كان شاملا بحيث لم يصل إلينا منها إلا النذر اليسير. وتعتبر بعض القوائم الببليوجرافية والكتب الأدبية القديمة المصدر الوحيد الذى يثبت وجود أكثرها.
- نظرا لتنوع هذا النوع من المعجمات إلى ألوان مختلفة من المعاجم، والاختلاف فيما بينها فيما يتعلق بتاريخها وأغراضها وطرق إعدادها، فقد تنوعت طرق ترتيبها على مدى العصور الإسلامية.

ومن خلال استعراض التراث الإسلامى فى مجال الرسائل والمعاجم القصيرة يتضح التنوع الكبير فى الموضوعات التى تطرق إليها مؤلفو تلك الرسائل والمعاجم التى كان من أهمها الأنواع الآتية :

ه معاجم ولغات غريب القرآن الكريم : انصب اهتمام الصحابة والعلماء من بعدهم منذ القرن الأول الهجرى على جمع الألفاظ الغريبة والصعبة الواردة فى سور القرآن الكريم، ومن ثم بيان معانيها وتفسيرها، وذلك كوسيلة لفهم آيات القرآن واستنباط الأحكام الشرعية منها. وحيث إن تلك الرسائل والمؤلفات كانت جزءا من الدراسات القرآنية والشرعية فقد كان معظمها أشبه مايكون بالمؤلفات الشرعية الأخرى.

وقد سارت معاجم ورسائل غريب القرآن على طرق عديدة فى تنظيم موادها، كان من أهمها طريقتان هما [1] :

- الترتيب وفقا للسور، حيث يتم تتبع الألفاظ الغريبة فى القرآن حسب ورودها فى سور المصحف الشريف وشرح معانيها.
- الترتيب الألفبائى للألفاظ، وكان استخدام هذه الطريقة متأخرا عن الطريقة السابقة، وأول من استخدمها ابن عزيز فى كتابه «نزهة القلوب»، وذلك فى القرن الرابع الهجرى.

و ينسب أول كتاب فى غريب القرآن إلى الصحابى الجليل عبدالله بن عباس رضى الله عنهما (ـ٦٨هـ). أما المؤلف التالى له فهو أبوسعيد إبان بن تغلب بن رباح البكرى (ـ١٤١هـ). كما ألف فى هذا الميدان آخرون مثل أبى محمد بن يحيى المبارك اليزيدى (ـ٢٠٢هـ)، والنضر بن شميل (ـ٢٠٣هـ)، وأبى عبيدة معمر بن المثنى

(١) سليمان حسين مصطفى، «المراجع الإسلامية (١) : معاجم الألفاظ» رسالة المكتبة مج ١٢، ع ٣ (أيلول، ١٩٧٧م) ص ص ٢١ ــ ٢٢

(ـ ٢١هـ)، والأصمعى (ـ٢١٣هـ) والأخفش الأوسط (ـ٢١٥ ـ أو ٢٢١هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ـ٢٢٤هـ) ومحمد بن سلام الجمحى (ـ٢٣١هـ)، وابن قتيبة (ـ٢٧٦هـ). وقد فقدت جميع هذه الكتب ولم يصل إلينا سوى كتاب «غريب القرآن» لابن قتيبة.

وتتابع ظهور معاجم ورسائل غريب القرآن خلال القرون الإسلامية التالية لمؤلفين منهم: ابن دريد (ـ٣٢١هـ)، وأحمد بن زيد البلخى (ـ٣٣٢هـ) ومحمد بن عزيز السجستانى (ـ٣٣٠هـ) فى كتابه «نزهة القلوب» السالف الذكر، ومكى بن محمد القيسى (ـ٤٢٧هـ) فى كتابه «مشكل غريب القرآن»، وأبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى فى كتابه «المفردات فى غريب القرآن»، وابن الجوزى (ـ٥٦٨هـ) فى كتابه «الأريب»، وأبوحيان النحوى (ـ٧٤٥هـ) فى كتابه «تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب»، وعلاء الدين الماردينى فى كتابه «بهجة الأريب فى بيان مافى كتاب الله من الغريب»، وأحمد بن الهائم المصرى (ـ٨١٥هـ) فى كتابه «التبيان فى غريب القرآن» والمقريزى (ـ٨٤٥هـ) فى كتابه «غريب القرآن».

ومن المعاجم القرآنية الهامة معاجم لغات القرآن. حيث كان هذا الفن من أقدم الدراسات المعجمية ظهورا. و ينسب أول كتاب فيه إلى عبدالله بن عباس بعنوان «اللغات فى القرآن» وقد جرى تهذيبه فى القرنين الخامس والسادس الهجريين. ومن المؤلفات الأخرى فى هذا الميدان كتاب «الأقسام واللغات» لمقاتل بن سليمان، و «المحيط بلغات القرآن» لأحمد بن على البيهقى (ـ٥٤٤هـ)، و«المتوكلى» و «المهذب» لجلال الدين السيوطى [١].

(١) حسين نصار، المعجم العربى: نشأته وتطوره، القاهرة: دار مصر للطباعة (د ـ ت) ص ص ٣٩ ـ ١٣٧

• معاجم غريب الحديث

يعتبر الحديث النبوى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم ولذا عنى العلماء بجمعه، والتأكد من صحة سنده، وشرح نصوصه. ولم تخل الأحاديث النبوية الشريفة من كلمات غريبة أو غامضة تعز على الفهم بسبب قلة استخدامها أو غموضها. ولذلك وجدت المعاجم والرسائل التى تجمع الألفاظ الغريبة فى الحديث وتشرحها وتحدد أصلها اللغوى. ولكن التأليف فى هذا الميدان تأخر إلى نهاية القرن الثانى أو بداية القرن الثالث الهجريين. و يعود ذلك إلى توجه الاهتمام بشكل رئيسى إلى تدوين علوم القرآن الكريم، وتأخر تدوين الحديث وعلومه.

وكانت معاجم غريب الحديث فى الغالب تحتوى على الكثير من الحديث والقليل من اللغة. حيث كان منهج معظم المؤلفين يتلخص فى ذكر الأحاديث وأسانيدها، ومن ثم شرح ألفاظها وذكر الشواهد المناسبة، وذلك حسب الموضوع الذى خصص له الباب. كما كانت معاجم غريب الحديث تتناول مادة علمية ضخمة، ولذا تفرد كل منها خلال المراحل الأولى بمادة علمية تختلف فى الغالب عن معاجم المعاصر له. وفى القرن الخامس الهجرى وما بعده، ابتدأ الجمع بين تلك المؤلفات. أما الذيول والمختصرات الخاصة بتلك المعاجم فقد بدأت فى الظهور فى أواخر القرن السابع الهجرى. كما تناولت بعض كتب الحديث الرئيسية مثل صحيح البخارى وموطأ مالك، الألفاظ الحديثة النبوى.

وقد اتبع مؤلفو معاجم غريب الحديث طرقا عديدة فى ترتيب مواد تلك المعاجم، كان من أهمها ثلاث طرق هى [1] :

— الترتيب على الأبواب، حيث يتم ترتيب الألفاظ، وفقا للأبواب الخاصة بالسنن

---

(١) سليمان حسين مصطفى، «المراجع الإسلامية (٢) معاجم الألفاظ» رسالة المكتبة مج ١٣، ع ٢ (حزيران، ١٩٧٨م) ص ١٠ .

وكتب الفقه. وأول من سار على هذا الترتيب أبو عدنان عبدالرحمن بن عبد الأعلى فى كتابه «الغريب» فى القرن الثانى الهجرى.

- الترتيب على المسانـد، حيث يتم ترتيب الألفاظ وفقا للإسناد وذلك بجمع الأحاديث الخاصة بكل رجل من الصحابه والتابعين فى باب مستقل، وشرح الألفاظ الواردة بها. وتنسب هذه الطريقة إلى أبى عبيد القاسم بن سلام (ـ٢٢٤هـ).

- التريب الألفباتى حسب الحروف الأصلية للألفاظ. وأول من بدأ ذلك أبو الحسن عبدالغافر بن إسماعيل الفارسى (ـ٥٢٩هـ)، وعلى نفس الترتيب سار الزمخشرى (ـ٥٤٨هـ) فى كتابه «الفائق فى غريب الحديث».

و ينسب أكثر الباحثين أول معجم فى غريب الحديث إلى أبى عبيدة معمر بن المثنى (ـ٢١٠هـ)، إلا أن آخرين ينسبون السبق فى ذلك إلى أبى عدنان عبدالرحمن بن عبدالأعلى، ولم يصل إلينا أى من الكتابين.

وممن ألف فى هذا المجال ممن توفوا فى القرن الثالث أيضا، أبو عمرو الشيبانى (ـ٢٠٦هـ)، وقطرب (ـ٢٠٦هـ)، والأصمعى (ـ٢١٣هـ)، وأبو زيد الأنصارى (ـ٢١٥هـ)، والحسن بن محمود السراه (ـ٢٢٤هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ـ٢٢٤هـ) فى كتابه المشهور «غريب الحديث»، وابن الأعرابى (ـ٢٣١هـ)، وابن قتيبة (ـ٢٧٦هـ) وغيرهم.

ومن الذين توفوا فى القرن الرابع، ألف فى غريب الحديث قاسم بن ثابت السرقسطى (٣٠٢هـ)، وأبو موسى الحامض (٣٠٥هـ)، وابن دريد (٣٢١هـ)، وأبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى (٣٢٨هـ)، وابن درستو يه (٣٤٧هـ) وغيرهم.

ومن المتوفين فى القرن الخامس ألف فى غريب الحديث، إسماعيل بن الحسن البيهقى (ـ٤٠٢هـ)، وأبو الفتح سليم بن أيوب الرازى (ـ٤٤٧هـ) وإسماعيل بن عبدالغافر (ـ٤٤٩هـ) وغيرهم.

ومن القرن السادس ألف فى غريب الحديث، إبراهيم بن محمد النسوى (ـ٥١٩هـ)، وأبو الحسن عبدالغافر بن إسماعيل الفارسى (ـ٥٢٩هـ) فى كتابه «مجمع الغرائب فى غريب الحديث»، والزمخشرى (ـ٥٤٨هـ) فى كتابه «الفائق فى غريب الحديث»، وابن الجوزى (ـ٥٩٧هـ) وغيرهم.

وممن مات فى القرون التالية من مؤلفى غريب الحديث ابن الاثير (ـ٦٠٦هـ) فى كتابه «النهاية فى غريب الحديث والأثر»، وابن الحاجب (ـ٦٤٦هـ)، وصفى الدين محمود بن أبى بكر الأرموى (ـ٧٢٣هـ)، والسيوطى (ـ٩١١هـ) فى كتابه «الدر النثير» وحسام الدين المندى (ـ ٩٧٥هـ) وغيرهم.

وقد قام بعض المؤلفين بتأليف معاجم تحتوى على غريب القرآن والحديث معا. وأول من قام بذلك أبو عبيد أحمد بن محمد الهروى (ـ٤٠١هـ) فى «كتاب الغريبين». وقد اختصر الكتاب أبو المكارم على بن محمد النحوى (ـ٥٦١هـ)، واستدرك عليه الحافظ أبو موسى المدنى فى كتابه (المغيث» ومحمد بن على الغسانى المالقى المعروف بابن عسكر (ـ٦٣٦هـ) فى كتابه «سرع الروى فى الزيادة على غريب الهروى».

• معاجم الفقه:

يعتبر علم الفقه من أهم العلوم التى قامت على استنباط الأحكام الشرعية من مصادر التشريع المختلفة وعلى رأسها القرآن والسنة النبوية. وقد صاحب الازدهار والتوسع فى مجال الدراسات الإسلامية خلال عصور الحضارة الإسلامية، ظهور العديد

من المصطلحات والألفاظ الخاصة . التى كان يستخدمها الفقهاء للدلالة على معان خاصة تختلف غالبا عن المعانى والدلالات اللغوية لتلك الألفاظ . وقد توجه العديد من الفقهاء واللغويين إلى جمع تلك المصطلحات وشرحها وبيان معانيها المختلفة . ونتيجة لذلك ظهرت معاجم بلغت من الضخامة حدا ضارعت فيه المعاجم اللغوية العامة .

ومن أهم المعاجم الفقهية ، «الزاهر فى غرائب ألفاظ الإمام الشافعى» ، لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٣٧٠هـ) ، و«المغرب فى ترتيب المعرب» ، لأبى الفتح ناصر بن عبدالسيد المطرزى الخوارزمى ، و«تهذيب الأسماء واللغات» ، لأبى زكريا محيى الدين بن شرف النووى (٦٧٦هـ) ، و«لغات مختصر ابن الحاجب» ، لمحمد بن عبدالسلام الأموى المكى ، و«المصباح المنير» ، لأحمد المغربى الفيومى (٧٧٠هـ) .

وتشترك معظم تلك المعاجم فى اعتمادها على كتب فقهية أخرى تقوم بشرح ألفاظها ، واعتمادها على الاستشهاد بالحديث أكثر من الاستشهاد بالشعر ، وعنايتها بالمعانى الفقهية للألفاظ أكثر من العناية باشتقاقاتها اللغوية ، واحتواء أكثرها على أسماء الفقهاء وأسماء الأماكن التى وردت فى الأحاديث النبوية .

• معاجم الألفاظ النادرة :

ظهر هذا النوع من المعاجم مبكرا ، حيث اتجه التدوين المعجمى إلى جمع الألفاظ النادرة فى لغة العرب خدمة للعلوم الشرعية ، وللحاجة الماسة إلى ذلك من أجل تفسير معانى القرآن الكريم والسنة النبوية . وأول من نسب إليه كتاب فى هذا المجال أبو عمرو بن العلاء (ـ١٥٧هـ) . ولكن أقدم ما وصل إلينا هو كتاب «النوادر» لأبى زيد الأنصارى (ـ٢١٥هـ) ومن أهم كتب النوادر كتابا «الجيم» و«النوادر الكبرى» لأبى عمرو الشيبانى ، و«النوادر» «ونوادر الزبيريين» «ونوادر بنى فقعس» لابن الأعرابى (ـ٢٣١هـ) . والنوادر لابن دريد ، و«الشوارد فى اللغات» للحسن بن محمد

الصغانى (ـ٦٥٠هـ). كما خصص بعض المؤلفين أبوابا من معاجمهم للنوادر مثل أبى عبيد بن سلام (٢٢٤هـ) فى كتابه «الغريب المصنف»، وابن قتيبة (٢٧٦هـ) فى كتابه «أدب الكاتب»، ومحمد بن عبدالله الخطيب الإسكافى (٤٢١هـ) فى كتابه «مبادىء اللغة».

ه معاجم لغات القبائل :

اختلفت القبائل العربية منذ عصر الجاهلية فى بعض مظاهر اللغة. و ينحصر هذا الاختلاف فى بعض المفردات وطرق النطق بها وفى الحركة والسكون وإبدال الحروف والتذكير والتأنيث والجمع والإدغام وغير ذلك.وخلال القرن الثانى الهجرى، بدأ التأليف فى لهجات العرب حفظا لذلك التراث اللغوى من الضياع. وأول من ينسب إليه كتاب فى هذا الموضوع يونس بن حبيب البصرى (ـ١٧٧هـ). ثم توالت من بعده الكتب فى هذا المجال حيث ألف فيه أبوعمر بن إسحق بن مرار الشيبانى (٢٠٦هـ) وأبو عبيدة (ـ٢١٠هـ)، والأصمعى، وأبو زيد الأنصارى وغيرهم.

ه معاجم المعرب والدخيل :

اختلط العرب خاصة فى أطراف الجزيرة حتى فى عصور ما قبل الإسلام بأهالى البلاد والحضارات الأخرى. وكانت نتيجة ذلك تسرب العدد الكبير من الألفاظ الأعجمية إلى داخل جزيرة العرب واستعمالها بواسطة العرب أنفسهم. وكان من تلك الألفاظ ماغيرته العرب وأدخلته بكلامها وهو مايسمى بالمعرب، وماتركوه ولم يغيروه ولم يلحقوه بأبنية لغتهم وهو مايسمى بالدخيل. وقسم ثالث غيرته العرب ولم تلحقه بكلامها. وقد ظهر التأليف فى هذا النوع على شكل مقدمات أو أجزاء من مؤلفات لغوية أخرى. فقد عنى به أصحاب المعاجم وأصحاب الكتب الموسوعة فى اللغه وأفردوا له أبوابا من كتبهم مثل أبوعبيد القاسم بن سلام فى كتابه «الغريب المصنف»، وابن قتيبة فى كتابه «أدب الكاتب»، وابن سيده (٤٥٨هـ) فى كتابه «المخصص».

وقد شهد القرن السادس ظهور أول معجم مستقل فى هذا النوع، حيث ألف أبو منصور الجواليقى (ـ٥٤٠هـ) كتابه «المعرب من الكلام الأعجمى» ثم ألف عبدالله ابن محمد العذرى (ـ ٨٢٠هـ) كتاب «التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل»، وأحمد بن كمال باشا (ـ٩٤٠هـ) رسالة فى «تعريب الألفاظ الفارسية»، وشهاب الدين الخفاجى (ـ١٠٦١هـ) كتاب «شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل»، ومصطفى المدنى فى (القرن الحادى عشر الهجرى) كتابه «المعرب والدخيل».

د معاجم لحن العامة :

بعد أن انتشر اللحن على ألسنة العرب بسبب الاختلاط بالأعاجم، قام اللغويون والعلماء بتأليف الكتب التى تبين قواعد الفصحى والأخطاء التى تقع على ألسنة العامة.

ومن أهم الكتب فى هذا المجال «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ـ٢٤٤هـ) و«الفصيح» لثعلب (ـ٢٩١هـ) و«لحن العامة» للزبيدى (ـ٣٧٩هـ)، و«تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكى الصقلى (ـ٥٠١هـ) «والتكملة» و«درة الغواص» للحريرى (ـ٦١٥هـ)، و«ذيل الفصيح» للبغدادى (ـ٦٢٩هـ).

د معاجم اللغات الأخرى :

كان انتشار اللغة العربية فى البلاد المفتوحة سببا فى تدهور واندثار لغاتها السابقة. ولكن الضعف الذى اعترى الدولة الإسلامية وتسلط العناصر غير العربية عليها، كان سببا فى قيام العديد من كتابهم بمحاولة إحياء لغاتهم القديمة عن طريق تأليف المعاجم التى تجمع بينها وبين العربية.

ومن أهم تلك المعاجم، معجم «بربهلول» للسريانية والعربية. وكتاب «المصادر» لأبى عبدالله الحسن بن على الروزنى (ـ٤٨٦هـ)، و«مقدمة الأدب»

للزمخشري (ـ٥٣٨هـ) للفارسية والعربية، و«منتهى الأرب فى لغة الترك والعجم والعرب» لأحمد بن محمد بن عربشاه (ـ٨٥٤هـ).

كما قام بعض الأقباط بتأليف بعض المجمعات الصغيرة التى أسموها بالسلالم وذلك لجمع ألفاظ اللغة القبطية وترجمتها إلى العربية. ومن تلك السلالم «سلم السمنودى» فى القرن السابع الهجرى، و«السلم المقفى والذهب المصفى» لأبى إسحق العسال فى نفس القرن، و«السلم الكبير» الذى ألفه السمنودى بعد إحراق سلمه الأول [1].

ب ـ معاجم الألفاظ العامة:

بدأ النشاط المعجمى فى مجال جمع ألفاظ اللغة كما ذكرنا فى القسم السابق، على شكل رسائل قصيرة تتخصص كل منها فى حرف من حروف الهجاء، أو نوع معين من الألفاظ التى تتميز بصعوبتها وندرتها. وفى القرن الثانى الهجرى، ظهر أول معجم عام يجمع ألفاظ اللغة بدون استثناء على يد الخليل بن أحمد الفراهيدى، ومن ثم تتابعت الأعمال المعجمية العامة.

ولو استعرضنا تاريخ تطور معاجم الألفاظ العامة، لوجدنا أن هناك ثلاثة عناصر كان لها أبلغ الأثر فى تاريخ تطور المعاجم العامة القديمة وتنوعها وهى [2]:

- النظام الذى تم على أساسه ترتيب مواد تلك المعاجم.
- حصر المشتقات الخاصة بالمادة اللغوية بعد تغيير مواضع حروفها (نظام التقاليب).
- عدد الحروف التى يتكون منها بناء المادة اللغوية المسرودة فى تلك المعاجم.

---

(١) حسين نصار، المعجم العربى: نشأته وتطوره، القاهرة: دار مصر للطباعة (د ـ ت) ص ص ٣٥ ـ ١٣٧

(٢) عبدالسميع محمد أحمد، المعاجم العربية: دراسة تحليلية، ط ٢، القاهرة: دار الفكر العربى ١٩٧٤م، ص ص

وبناء على العناصر السابقة، تنوع التأليف المعجمى القديم فى مجال الألفاظ إلى العديد من الاتجاهات المختلفة التى أطلق عليها «مدارس». و يتميز كل اتجاه أو مدرسة باتباع قواعد معينة اتبعها عدد معين من مؤلفى المعاجم. وقد اختلف اللغويون والباحثون فى مجال الدراسات المعجمية فى تحديد تلك المدارس. إلا أن معظم الباحثين درج على تقسيمها إلى المدارس التالية :

المدرسة الأولى، وهى مدرسة الترتيب الصوتى.

المدرسة الثانية، وهى مدرسة الترتيب الألفباتى الخاص.

المدرسة الثالثة، وهى مدرسة نظام القافية.

المدرسة الرابعة، وهى مدرسة الترتيب الألفباتى حسب الأصول.

• مدرسة الترتيب الصوتى : تنسب هذه المدرسة إلى مؤلف أول معجم شامل فى اللغة العربية وهو الخليل بن أحمد الفراهيدى. و يعتبر معجمه «العين» المعجم الرئيسى فى هذه المدرسة. وقد تبع الخليل فى الالتزام بمنهج هذه المدرسة مع بعض التغيير لدى بعضهم، مجموعة من مؤلفى المعاجم منهم :

أبو على القالى فى معجمه «البارع».

أبو منصور الأزهرى فى معجمه «تهذيب اللغة».

الصاحب بن عباد فى معجمه «المحيط فى اللغة».

أبو الحسن بن سيده فى معجمه «المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة».

ــ أسس الترتيب : يقوم الترتيب فى هذه المدرسة على أسس رئيسية هى :

١ ــ الترتيب الصوتى، حيث تم ترتيب الألفاظ ترتيبا صوتيا وفقا لموضع خروج الحروف من الحلق الأبعد فالأقرب. و يقوم الترتيب الصوتى للحروف الهجائية الذى وضعه الخليل على التسلسل التالى : (ع، ح، هـ، خ غ/ق، ك/ج، ش

ض/ص، س، ز/ط، د، ت/ظ، ذ، ث/ر، ل، ن/ف، ب، م/و، ى، أ).
وقد التزمت جميع معاجم هذه المدرسة بهذا الترتيب ماعدا القالى الذى أجرى بعض التعديل فى معجمه «البارع» كما سنرى.

٢ ــ جمع التقاليب، وذلك عن طريق حصر مشتقات الكلمة واستخراج التقليبات الممكنة، و بيان الصيغ المستعملة والصيغ المهملة. فالكلمة التى أصلها من حرفين مثل (جر) يأتى منها صيغتان هما (جر، رج)، والكلمة الثلاثية الأصل مثل (عجب) يأتى منها ست صيغ هى (عجب، عبج، جعب، جبع، بعج، بجع)، والكلمة الرباعية يأتى منها أربعة وعشرون تقليبا، والخماسية يأتى منها مائة وعشرون تقليبا وهكذا.

و بناء على نظام التقاليب، فإنه يتم تناول الكلمة فى الباب الخاص بالحرف الأسبق حسب الترتيب الصوتى، أيا كان موضع الحرف فى الكلمة. ولذا فإن كل كتاب أو باب لايتناول الكلمات التى تشتمل على حرف من الحروف التى سبق الحديث عنها قبله. فمثلا الكلمة التى تشتمل فى حروفها على العين والجيم، يتم الحديث عنها فى الباب الخاص بحرف العين لأنه الأسبق ولا تذكر أبدا فى باب الجيم وهكذا...

٣ ــ الأبنية، وتعنى تحديد الحروف التى يتألف منها بناء الكلمة والأبنية لدى الخليل خمسة هى:

ــ الثنائى (الثلاثى المضاعف) مثل عدّ، مدّ، شدّ
ــ الثلاثى، وهو صحيح مثل علم، ومعتل مثل وعد، عاد، دعا
ــ اللفيف (الثلاثى المعتل بحرفين) مثل وعى، عوى
ــ الرباعى مثل زلزل، دحرج
ــ الخماسى مثل سفرجل

وقد اختلف أصحاب المعجمات الأخرى مع الخليل فى هذا. فالأزهرى فى التهذيب جعل الأبنية ستة. أما ابن سيده فى المحكم فقد أضاف بناء جديداً سمّاه السداسى.

ــ التقسيم الداخلى، تم تنظيم معاجم هذه المدرسة إجمالا على النحو التالى :

- يقسم المعجم إلى كتب أو أبواب بعدد حروف المجاء، بحيث يكون لكل حرف هجائى كتاب أو باب خاص به.
- قسم كل كتاب أو باب إلى فصول فرعية، خصص كل منها لأحد الأبنية التى اعتمدها المؤلف ورغم أن الخليل حدد الأبنية فى الأنواع التالية : الثنائى، الثلاثى الصحيح، الثلاثى المعتل، اللفيف، الرباعى، الخماسى، إلا أنه قسم كل كتاب إلى أربعة أقسام فقط.

ــ طريقة الاستخدام :

تتلخص الطريقة المثلى للبحث فى معاجم هذه المدرسة فى الخطوات التالية :

- تجريد الكلمة من الزوائد
- تحديد الحرف الأسبق من حروف الكلمة وفقا للترتيب الصوتى؛ ومن ثم تحديد الباب الخاص به.
- تحديد نوعيه بناء الكلمة، ومن ثم البحث عنها فى الفصل الخاص بالبناء. ومثال ذلك (عد)؛ حيث يبحث عنها فى الكتاب الخاص بحرف (ع) لأنه الأسبق؛ وفى الفصل الخاص بالثنائى من ذلك الباب.

ــ العيوب والسلبيات : ذكر علماء اللغة الكثير من عيوب وسلبيات المدرسة الأولى منها [1] :

١ ــ النظام المعقد الذى اتبعته المدرسة والذى يقوم على الترتيب الصوتى والتقاليب

---

(١) حسين نصار، المعجم العربى نشأته وتطوره، ص ص ٣٩٥ ــ ٣٩٦.

والأ بنية. وقد كان هذا سببا فى ضياع وقت الباحث وصعوبة وصوله إلى المادة المرغوبة.

٢ ـ الاضطراب الذى وقع فيه الخليل وبعض المؤلفين الآخرين فى تحديد عدد الأ بنية، وموضوع حروف العلة، والهمزة، وبابى اللفيف والثنائى المضاعف.

وقد كانت تلك العيوب سببا فى اتجاه المعجميين القدماء نحو البحث عن طرق انسب للترتيب وهو ما كان سببا فى ظهور المدارس الأخرى.

ـ معاجم مدرسة الترتيب الصوتى

ـ العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى.

كان معجم العين نقطة بداية للنشاط المعجمى العربى فى كافة العصور الإسلامية.

وكان المعجم قديماً وحديثاً، مثاراً لشكوك وخلافات وآراء متعارضة بين علماء العربية. فقد أثار الكثيرون عدة قضايا حوله، منها عدم صحة تأليف الخليل له وعدم ابتداعه للطريقة الصوتية فى الترتيب، والقول بتأثر الخليل فى ذلك بالمعاجم القديمة التى سبقته، إضافة إلى المآخذ والأخطاء التى جمعها بعض علماء العربية عليه. وكان ذلك سببا فى ظهور العديد من المؤلفات التى تعقبت معجم العين استدراكاً أو نقدا أو إكمالا أو اختصارا، طبع فى مجلد واحد من العين فى ١٤٤ ص بتحقيق انستاس الكرملى سنة ١٩١٣م. وطبع الكتاب فى ٣٧٦ص سنة ١٩٦٧ بتحقيق عبدالله درويش، وطبع مرة أخيرة فى بغداد بتحقيق مهدى المخزومى وإبراهيم السامرائى فى أربعة أجزاء فى ثمانية مجلدات فيما بين سنتى ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥م.

فمن الكتب التى نقدت العين أو استدركت عليه مايلى:

الرد على الخليل وإصلاح مافى العين من الخطأ، المفضل بن سلمة (ـ ٣٠٨هـ).

الجامع فى اللغة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن موسى الكرمانى (ـ٣٢٩هـ).

فائق العين، المطرز أبو عمر محمد بن عبدالواحد (ـ٣٤٥هـ).

التكملة، أبو حامد أحمد بن محمد البشتى الخرزنجى (ـ٣٤٨هـ).

الحصائل، أبو الأزهر البخارى (القرن الرابع الهجرى).

الاستدراك، أبو الفتح محمد بن جعفر الهمذانى المراغى (ـ٣٧١هـ).

استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين، أبوبكر محمد بن حسن الزبيدى (ـ٣٧٩هـ).

غلط العين، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب الإسكافى (ـ٤٢٠هـ).

الموعب، أبو غالب تمام بن غالب بن التيانى (ـ٤٣٦هـ) [1].

ومن الكتب التى حاولت إنصاف الخليل والرد على متعقبيه مايلى :

التوسط، محمد بن الحسن بن دريد (ـ٣٢١هـ).

الرد على المفضل فيما أخذه على الخليل، إبراهيم بن محمد بن نفطويه (ـ٣٢٣هـ).

الرد على المفضل فى الرد على الخليل، عبدالله بن جعفر بن درستويه (ـ٣٤٧هـ).

وقد اختصر العين اثنان هما :

أبو الحسن على بن القاسم السنجانى فى كتابه «مختصر العين».

أبوبكر محمد بن حسن الزبيدى فى كتابه «مختصر العين».

البارع فى اللغة، أبو على إسماعيل بن القاسم القالى (٢٨٨ ـ ٣٥٦هـ).

يعتبر هذا المعجم أول المعاجم المشهورة التى اتبعت طريقة الخليل بن أحمد فى الترتيب الصوتى وذلك بعد الخليل بقرنين من الزمان. وكان مؤلف هذا المعجم قد

---

(١) عبدالسميع محمد أحمد، المعاجم العربية : دراسة تحليلية، ص ص ٤٠ ـ ٤٧

هاجر من بغداد إلى الأندلس بعد أن ضاق به العيش، حيث قضى سبعة عشر عاما فى جمع مواد البارع، الذى يعتبر أول معجم ظهر فى الأندلس على الإطلاق.

وقد اتبع القالى فى البارع نفس النظام الذى سار عليه الخليل فى العين مع بعض نقاط الاختلاف التى يمكن حصرها فى الآتى :

- أدخل القالى تعديلا على الهجائية الصوتية التى وضعها الخليل، واتبع ترتيب سيبويه لمخارج الحروف مع تعديل طفيف، فأصبح الترتيب الصوتى لحروف الهجاء عنده على الوجه التالى : (هـ، ع، غ، ق، ك، ض، ج، ش، ل، ر، ن، ط، د، ت، ص، ز، س، ظ، ذ، ث، ف، ب، م، و، ا، ى، ء).
- فرق بين بعض الأبنية التى وضعها الخليل فى باب واحد، وجعلها ستة أبنية هى : الثنائى المضاعف، الثلاثى الصحيح، الثلاثى المعتل، الحواشى والأوشاب، الرباعى، الخماسى.

وقد نشر المستشرق أ، س فلتن جزءاً من معجم البارع، ونشر محققا مع دراسة عنه بواسطة الدكتور هاشم الطعان فى رسالة الدكتوراه التى قدمها إلى جامعة بغداد.

تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٢٨٢ – ٣٧٠هـ).

تكمن أهمية معجم التهذيب فى كونه موسوعة لغوية جامعة لجميع التيارات والاتجاهات التى سادت حركة التأليف المعجمى فى القرن الرابع الهجرى. كما يعتبر التهذيب من المصادر الهامة التى اعتمد عليها المتأخرون من مؤلفى المعاجم أمثال ابن منظور والفيروزآبادى وغيرهم. وقد نشر المعجم بأكمله فى خمسة عشر مجلداً بتحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون وآخرين. وقد سار الأزهرى فى التهذيب على نفس النظام الذى وضعه الخليل فى العين. حيث أبقى على الترتيب الصوتى، وعلى نظام التقاليب،

ورتب الألفاظ داخل كل كتاب حسب عدد حروفها. إلا أنه جعل الأبنية ستة هي: الثنائي المضاعف، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المهموز، الثلاثي المعتل، الرباعي، الخماسي.

أعد الأستاذ عبدالسلام هارون فهارس شاملة للكتاب صدرت في مجلد واحد عن مكتبة الخانجي سنة ١٩٧٦م.

المحيط في اللغة، الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٥هـ).
ظهر هذا المعجم في القرن الرابع الهجري. وقد سار على نفس النظام الذي سار عليه الخليل في العين. إذ أبقى على الترتيب الصوتي للحروف كما وضعه الخليل وعلى نظام التقاليب، وعلى ترتيب المواد حسب عدد حروفها في كل كتاب. إلا أنه سار على منهج الأزهري من حيث تقسيم المواد إلى ستة أبنية. وقد احتوى المحيط على الكثير من الألفاظ والمعاني التي لم يذكرها أحد قبله، إلا أنه لم يضف إلى ميدان التنظيم المعجمي أي جديد.

حققه محمد حسن آل يس ونشرته وزارة الثقافة والفنون العراقية سنة ١٩٧٨م في جزأين.

المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (٣٩٨ ـ ٤٥٨هـ).
يعتبر المحكم آخر المعاجم الكبرى التي اتبعت منهج المدرسة الأولى. وقد صنفه ابن سيده بناء على رغبة الأمير الموفق صاحب دانيه. واتبع المؤلف فيه كافة الأسس الرئيسية التي أتى بها الخليل في ترتيب مواد المعجم. حيث أبقى على الترتيب الصوتي للحروف الهجائية والأبنية ونظام التقاليب. إلا أنه زاد في الأبنية بابا آخر سماه السداسي. كما راعى في الترتيب الداخلي للألفاظ أمورا أخرى مثل تقديم المفرد على الجمع، وجمع القلة على جمع الكثرة، وميز أسماء الجموع، ونبه على الجمع المركب، وميز القلب والبدل.

وقد تم طبع المعجم فى القاهرة بتحقيق مصطفى السقا وآخرين فى ستة أجزاء فيما بين سنتى ١٩٥٨ ــ ١٩٧٢م.

مدرسة الترتيب الألفباتى الخاص :

لقد كان الخليل بن أحمد رائداً فى وضع أسس ترتيب المعجمات العربية القديمة. ولذلك كان دور من بعده يتلخص فى التعديل والتطوير والبحث عن طرق أخرى تساعد على توفير الوقت وسرعة الوصول إلى المواد فى المعاجم.

والمدرسة الثانية، تعتبر فى واقع الأمر امتداداً للمدرسة الأولى. بل إن معاجمها قد أبقت على الكثير من القواعد التى جاء بها الخليل. إلا أن بعض اللغويين أفردوها كمدرسة مستقلة، نظرا لكونها تشكل نقلة فى تاريخ تطور المعجمات القديمة. فقد كان ابن دريد أول من خرج على أسس المدرسة الأولى فقام بإلغاء بعضها والتزم الترتيب الألفباتى لأول مرة فى تاريخ الدراسات اللغوية العربية. ثم جاء من بعده ابن فارس والذى ذهب إلى أبعد منه فى إلغاء قواعد المدرسة الأولى، ووضع أسساً جديدة لترتيب معجميه. إلا أن مايضعف هذه المدرسة ويقوى حجة القائلين بعدم الأخذ بها كمدرسة مستقلة اقتصارها على مؤلفات ابن دريد وابن فارس، واختلاف هذين المؤلفين فى القواعد التى اتبعاها فى ترتيب معاجمهما.

ــ أسس الترتيب :

يمكن لنا أن نستمد منهج المدرسة الثانية من القواعد التى اتبعها كل من ابن دريد وابن فارس فى معاجمهما. ونظرا لوجود اختلاف كبير بينهما، فستحدث عن منهج كل منهما بالتفصيل خلال حديثنا عن المعاجم. وسنقصر حديثنا هنا على الأسس العامة لمنهج المدرسة الثانية فى الترتيب والذى يتلخص فى الآتى :

١ ــ الترتيب الألفباتى : التزم كلا المؤلفين بالترتيب الألفباتى للألفاظ وفقا لأوائلها، وطرحا جانبا الترتيب الصوتى الذى جاءت به المدرسة الأولى.

٢ ــ جمع التقاليب : اختلف المؤلفان تجاه نظام التقليبات الذى ابتدعه الخليل. فابن دريد فى معجمه الجمهرة، يلتزم بنظام التقليبات بالكامل و بدون أدنى تغيير. أما ابن فارس فى المقاييس والمجمل، فقد ألغى نظام التقاليب بالكامل.

٣ـ الأبنية : أخذ كلا المؤلفين بنظام الأبنية الذى جاءت به المدرسة الأولى، مع الاختلاف فى تحديد عدد الأبنية وتحديد وظيفتها فى ترتيب مواد المعجم.

ويمكننا من خلال ماسبق تحديد نقاط الالتقاء والاختلاف بين ابن دريد وابن فارس فى الآتى :

نقاط الاتفاق هى :

١ ــ إلغاء الترتيب الصوتى الذى جاءت به المدرسة الأولى.

٢ ــ الالتزام بالترتيب الألفباتى، مع الاختلاف فى كيفية تطبيقه.

٣ ــ الإبقاء على نظام الأبنية الذى جاءت به المدرسة الأولى، مع اختلاف مؤلفى معاجم المدرسة الثانية فى تحديد عدد الأبنية.

٤ ــ فيما يختص بمراعاة الحرف الثانى فى ترتيب الألفاظ، التزم المؤلفان بالحرف الذى يلى الحرف الأول فى الكلمة دائرياً، ولم يلتزما بترتيب الحروف حسب تسلسل الترتيب الألفبائى.

أما نقاط الاختلاف بينهما فهى :

١ ــ أبقى ابن دريد على نظام التقاليب الذى جاءت به المدرسة الأولى، بينما ألغى ابن فارس ذلك النظام بالكامل.

٢ ــ اعتمد ابن دريد على الأبنية كأساس لتقسيم معجمه، أما ابن فارس فقد اعتمد الحروف المجائية كأساس لترتيب معجميه، ووفقا للترتيب الألفباتى.

ــ معاجم الترتيب الألفباتى الخاص : تتميز المدرسة الثانية بقلة المعاجم التى اتبعت منهجها، فقد سار على منهجها مؤلفان فقط هما :

ابن دريد فى معجمه الجمهرة.

وابن فارس فى معجميه المقاييس والمجمل.

جهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٢٢٣ ــ ٣٢١هـ).

يعلل ابن دريد تسمية هذا المعجم بأنه جمع فيه الجمهور من كلام العرب وتجنب الوحشى المستنكر. و يعتبر الجمهرة من المعاجم العربية القديمة الهامة وذلك لكونه أقدم المعاجم التى وصلت إلينا كاملة مع الثقة فى صحة روايتها، وذلك بعد الشكوك التى أثيرت حول صحة العين. ولكونه ايضاً أول المعاجم التى بدأت رحلة التطوير والخروج عن الأسس القديمة للمدرسة الأولى، وأدت إلى ظهور المدرستين الثالثة والرابعة فيما بعد.

وقد تعرض ابن دريد على مدى العصور الإسلامية لكثير من النقد وتعداد الأخطاء التى وقع فيها خلال تصنيفه للجمهرة ومنها : التكرار والاضطراب، وعدم الالتزام بالترتيب، ووضع الألفاظ فى الأبواب غير الموافقه لها. كما ذكر بعض اللغويين بعض المآخذ الأخرى مثل التصحيف والإكثار من الألفاظ المولدة والتى لا أصل لها فى لغة العرب، وجنوحه عن هدفه الذى وضعه فى معجمه وهو جمع الجمهور من كلام العرب.

وقد ظهر خلال العصور الإسلامية العديد من المؤلفات التى حاولت الاستدراك على مؤلف الجمهرة أو ذكر بعض المآخذ عليه ومنها.

- فائت الجمهرة والرد على ابن دريد، لابن عمر الزاهد غلام ثعلب (ــ٣٤٥هـ).
- نشر شواهد الجمهرة، لأبى العلاء المعرى (ــ٤٤٩هـ).
- جوهرة الجمهرة ــ وهو مختصر للجمهرة ــ للصاحب بن عباد (٣٨٥هـ).
- تلقيح العين ــ جمع بين الجمهرة والعين ــ لأبى غالب تمام بن غالب المعروف بابن الشيبانى الأندلسى (ــ٤٣٦هـ)[1] .

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٧٥ ــ ٧٧

أسس ترتيب الجمهرة :

١ ـ الأبنية : أبقى ابن دريد على نظام الأبنية الذى جاء به الخليل . إلا أنه يختلف معه فى تحديد عدد الأبنية . فالأبنية عند ابن دريد هى الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى والسداسى واللفيف . بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك بتقسيم الأبنية السابقة إلى أقسام فرعية وأضاف لها أبوابا أخرى حصرها الدكتور عبدالسميع محمد أحمد فى سبعة عشر بابا هى[1] : الثنائى الصحيح ، والثنائى الملحق بالرباعى ، والثنائى المعتل ، والثلاثى الصحيح ، والثلاثى المعتل ، والنوادر فى الهمز ، واللفيف فى الهمز ، والرباعى الصحيح ، والرباعى الذى فيه حرفان مثلان ، والرباعى على وزن (فعل ، فعل ، فعل) ، ومايلحق به من أوزان أخرى ، والخماسى ، والسداسى ، واللفيف ، وأبواب متفرقه فى النوادر .

وقد خص ابن دريد كلا من الأبنية السبعة عشر بباب مستقل وقسم معجمه على أساسها .

٢ ـ الترتيب الألفبائى :

قسم ابن دريد كل باب من الأبواب السابقة إلى أبواب فرعية يمثل كلا منها حرف من حروف الهجاء . وقد تناول الحروف تسلسليا وفقا للترتيب الألفبائى ابتداءً من الهمزة وانتهاءً بالياء . وأورد فى كل من هذه الأبواب الفرعية الكلمات التى تبدأ بذلك الحرف وتقليباتها الأخرى . فباب الباء يحتوى على الكلمات التى تبدأ بالباء . ويتلوها باب التاء والثاء والجيم إلى آخر الحروف الهجائية . كما راعى فى الترتيب الحرف الثانى ، ولكنه لايتبع الترتيب الألفبائى بدقة بل يلتزم بالحرف الذى يلى الحرف الذى عقد له الباب حتى آخر الحروف الهجائية وهو الياء ، فأبواب الباء يصدرها بالألفاظ التى تبدأ بالباء ويكون ثانيها حرف التاء ، وأبواب التاء يبدأها بالتاء مع

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٥٨ ــ ٥٩

الثاء و يستمر فى ذلك حتى آخر الحروف المجانية. أما الألفاظ التى يكون أولها التاء أو الثاء وثانيهما أحد الحروف التى قبلها فلا يوردها هنا. وذلك لأنه سبق الحديث عنها فى الأبواب السابقة حسب نظام التقاليب.

٣ ـ جمع التقاليب : سار ابن دريد على نظام التقليب الذى وضعه الخليل فى العين، ومعنى ذلك أننا لانجد الكلمة فى الباب الخاص بحرفها الأول وإنما فى الباب الخاص بأسبق حروفها فى الترتيب الألفباتى مهما كان موضع ذلك الحرف. فكلمة (سعد) نجدها فى باب الدال وليس السين، لأن الدال هو الحرف الأسبق ألفباتيا وهكذا...

ومما سبق نعرف أن ابن دريد وافق الخليل فى الالتزام بنظامى الأبنية وجمع التقاليب، وخالفه فى اتباعه الترتيب الألفباتى وتقسيم المعجم وفقا للأبنية، ثم على الحروف المجانية وهو عكس ماعمله الخليل.

وبرغم نجاح ابن دريد فى التخلص من بعض القواعد الصعبة التى أتت بها المدرسة الأولى، إلا أن الوصول إلى مواد معجم الجمهرة يعتبر أمرا فى غاية الصعوبة. و يرجع ذلك إلى اعتماد ابن دريد على الأبنية فى تقسيم معجمه وتفريعه لها إلى أبواب عديدة، وتمسكه ببعض قواعد المدرسة الأولى مثل نظام التقاليب إضافة إلى التكرار وعدم الاتساق الذى وقع فيه خلال تبو يبه للألفاظ.

طريقة استخدام الجمهرة :

يمكن الوصول إلى المواد فى معجم الجمهرة عن طريق الخطوات التالية :

- تجريد الكلمة من الزوائد، والإبقاء على الحروف الأصلية فقط.
- تعيين نوعية بناء الكلمة وفقا للأبواب السبعة عشر ثم تحديد الباب الذى يمكن وجودها تحته.
- تعيين الحرف الأسبق فى الكلمة ألف باتيا، ومن ثم البحث عن الكلمة تحت الباب الفرعى الخاص.

مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٢٩ــ ٣٩٥هـ).

يعتبر ابن فارس الرائد الآخر للمدرسة الثانية. و يتميز بأنه بلغ الغاية فى الحذق باللغة ومعرفة أسرارها وفهم أصولها والالتزام بالصحيح من ألفاظها. كما يتميز بالأحكام فى اتباع المنهج الذى وضعه لترتيب معجميه : المقاييس، والمجمل. و يعتبر المقاييس من المعاجم العربية الكبرى التى تهدف إلى الإسهاب فى ذكر المعلومات اللغوية، إلا أنه لم يسترع اهتمام اللغويين قديما أو حديثا مقارنة برصيفه المجمل.

والمقاييس ليس معجما عاما مثل غيره من المعاجم الأخرى يهدف إلى جمع الألفاظ وذكر معانيها فقط، بل يركز على كشف الستار عن المعانى الأصلية المشتركة للألفاظ، و يرد كلا منها إلى أصوله المعنوية المشتركة. كما يركز على ذكر الأقوال المختلفة حول اللفظ والشواهد اللغوية المؤكدة لتلك الأقوال، وذكر بعض الآراء النقدية حول صحة الألفاظ أو زيفها.

وقد طبع المقاييس لأول مرة بتحقيق الأستاذ عبدالسلام محمد هارون فى سنة ١٣٦٦هـ فى ستة مجلدات مع فهارسه المختلفة، التى أعدها المحقق.

ــ مجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٢٩ــ ٣٩٥هـ)

نال المجمل حظوة كبيرة لدى اللغويين على مدى العصور. وكان ذلك سببا فى كثرة نسخه وتعدد أصوله وشهرته بالمقارنة مع المقاييس.

والمجمل معجم مختصر يهدف إلى جمع المادة اللغوية وترتيبها بشكل ييسر على الباحث الوصول إليها، مع التركيز على الإيجاز والإجمال فى شرح الألفاظ، والاقتصار على الصحيح من لغة العرب دون الغريب.

وقد تمت طباعة جزء واحد من المجمل بواسطة مطبعة السعادة فى القاهرة عام ١٩١٤م. كما طبع فى أربعة أجزاء فى مجلدين بتحقيق زهير عبدالمحسن سلطان، وصدر عن مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠٤هـ.

الترتيب الداخلي في المقاييس والمجمل :

رتب ابن فارس معجميه وفقا لطريقة واحدة وبدون أدنى تغيير ويقوم المنهج الذى وضعه ابن فارس على الأسس التالية :

- الترتيب الألفباتي : قسم ابن فارس المقاييس والمجمل إلى كتب رئيسية بعدد حروف الهجاء، ووفقا للترتيب الألفباتي، بدءا من الألف وانتهاء بالياء.

- الأبنية : قسم كل كتاب من الكتب السابقة إلى ثلاثة أبواب بعدد الأبنية التى اعتمدها وهى : باب المضاعف، وباب الثلاثى، وباب مازاد على ذلك. وقد تم سرد الألفاظ تحت كل بناء ألفباتيا حسب الحرف الأول. أما فيما يخص ثوانى الألفاظ، فقد راعى فيه ابن فارس الحرف الذى يلى الحرف الأول وبشكل دائرى حتى الحرف الذى قبله. فمثلا الألفاظ التى تبدأ بالحاء يبدؤها بالألفاظ التى يكون أولها الحاء وثانيها الخاء وهكذا دواليك حتى ينتهى بالألفاظ التى يكون أولها الحاء وثانيها الجيم.

طريقة استخدام المقاييس والمجمل :

يمكن الوصول إلى الألفاظ فى معجمى المقاييس والمجمل عن طريق اتباع الخطوات التالية :

١ ـ تجريد الكلمة من الزوائد، والإبقاء على الأصول فقط.
٢ ـ تعيين الكتاب الذى تتبعه الكلمة، وهو الكتاب الخاص بالحرف الأول منها. فكلمة (جلس) فى الكتاب الخاص بحرف الجيم وهكذا.
٣ ـ تحديد نوعية بناء اللفظ هل هو مضاعف أو ثلاثى أو زائد عن ثلاثة أحرف ومن ثم تحديد الباب الذى يندرج تحته داخل الكتاب الرئيسى. فكلمة (جلس) ثلاثية، وتندرج تحت باب الثلاثى من كتاب الجيم وهكذا...
٤ ـ البحث عن الكلمة تحت بابها ألفباتيا حسب الحرف الأول، وحسب الحرف الذى يلى الحرف الأول فيما يخص ثوانى الكلمات كما ذكرنا ذلك آنفا.

• مدرسة نظام القافية :

يطلق مؤلفو الكتب اللغوية وكتب دراسات المعاجم على هذه المدرسة عدة تسميات أخرى منها : المدرسة الثالثة ومدرسة الترتيب بأواخر الحروف، ومدرسة الجوهرى. وتعتبر هذه المدرسة من أهم مدارس الترتيب. و يرجع ذلك إلى انتماء معظم أمهات المعاجم القديمة إليها. ورغم اتباعها للترتيب الألفباتى، إلا أن أخذها بأواخر الكلمات، جعل بعض الباحثين يميل إلى اعتبارها عقبة فى طريق التطور الذى حدث خلال المدرسة الثانية، عند بدأ الأخذ بالترتيب الألفباتى أساسا للترتيب المعجمى.

وقد اختلف الباحثون فى تحديد أول من ابتدأ منهج الباب والفصل الذى جاءت به المدرسة الثالثة. ففى حين درج معظمهم قديما وحديثا على القول بأن الجوهرى (ـ٣٩٣هـ)، صاحب معجم الصحاح، هو أول من ابتدع هذا المنهج، وأن من جاء بعده عالة عليه. نجد الشيخ حمد الجاسر فى إحدى مقالاته، يثبت بالأدلة العلمية القاطعة، أن مبتكر هذا المنهج عالم مغمور عاش قبل الجوهرى بما يقرب من مائة عام، وهو أبو بشر اليمان بن أبى اليمان البندنيجى (ـ٢٨٤هـ)، صاحب معجم التقفية فى اللغة [1]. كما استدرك آخرون على الجاسر بالقول بأن الفارابى المتوفى سنه ٣٥٠هـ، وصاحب كتاب ديوان الأدب، وخال الجوهرى وأستاذه هو الرائد فى ذلك.

ولاشك أن السبق الزمنى للبندنيجى يؤيد صحة الرأى الذى ذهب إليه الشيخ حمد الجاسر. كما أن كتاب البندنيجى يعتبر أقدم كتاب معروف يتبع منهج الباب والفصل فى الترتيب. وهذا يعنى أن البندنيجى هو أول من يعرف أنه ابتكر هذا المنهج. فيما يبقى للجوهرى فضل ضبطه لمنهج هذه المدرسة وإحكامه للنظام الذى تقوم عليه، ومن ثم فضل نشر منهجها، واتباع معظم أمهات المعجمات القديمة له.

---

(١) حمد الجاسر، «الجوهرى ليس مبتكر منهج التقفية فى المعجم العربى»، العرب س ١ (محرم، ١٣٨٧هـ) ص ص ٥٧٧ـ٥٨٨

ـ أسس الترتيب :

يقوم منهج الترتيب فى معاجم المدرسة الثالثة على أساس واحد وهو الترتيب الألفبائى للألفاظ وفقا للحرف الأخير أولا، ثم وفقا للحرف الأول فالحروف التى تليه. وبرغم وجود بعض الفروق القليلة فى الترتيب بين معاجم هذه المدرسة، إلا أننا نستطيع من خلال الأساس السالف الذكر تحديد منهج الترتيب فى العناصر التالية :

١ ـ تقسيم المعجم إلى أبواب رئيسية يخص كل واحد منها حرفا من حروف الهجاء، وفقا للترتيب الألفبائى. فيبدأ المعجم بالباب الخاص بحرف الألف و ينتهى بالباب الخاص بحرف الياء. ويجمع كل باب الألفاظ المنتهية بالحرف الذى خصص له. فباب الألف يحتوى على الألفاظ التى تنتهى بالألف و باب الباء يجمع الألفاظ التى تنتهى بالباء وهكذا...

٢ ـ تم تقسيم كل باب إلى فصول فرعية يخص كل منها حرفا من حروف الهجاء وفقا للترتيب الألفبائى. فيبدأ الباب الخاص بحرف الألف بفصل الألف و ينتهى بفصل الياء. فكلمة أجأ نجدها فى فصل الألف من باب الألف وكلمة شطأ نجدها فى فصل الشين من باب الألف وهكذا...

٣ ـ تمت مراعاة الحرف الذى يلى الحرف الأول فى ترتيب الألفاظ داخل كل فصل. فكلمتا شطأ وشنأ نجدهما فى باب الألف فصل الشين، ولكن الأولى مقدمة على الثانية لأن الحرف التالى للحرف الأول وهو الطاء فى شطأ مقدم على نظيره فى شنأ وهو النون.

ـ طريقة الاستخدام :

يمكن استخدام معاجم المدرسة الثالثة عن طريق اتباع الخطوات التالية :

أ ـ تجريد الكلمة من الزوائد.

ب ـ تحديد الباب الرئيسى الذى تتبعه الكلمة وهو الباب الخاص بالحرف الأخير

منها، فمثلا كلمة ليث نجدها فى باب الثاء وكلمة روح نجدها فى باب الحاء وهكذا...

جـ ــ تحديد الفصل الذى يوجد به اللفظ داخل ذلك الباب، وهو الفصل الخاص بالحرف الأول منها فكلمة ليث نجدها فى فصل اللام من باب الثاء، وكلمة روح نجدها فى فصل الراء من باب الحاء وهكذا...

د ــ مراعاة الحرف الذى يلى الحرف الأول عند البحث عنها داخل الفصل. ومن خلال التتبع الألفبائى يتم تحديد موقع الكلمة بدقة.

ــ معاجم مدرسة نظام القافية:

من أهم المعجمات التى اتبعت منهج هذه المدرسة، التقفية للبندنيجى والصحاح للجوهرى، والعباب للصغانى، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للمجد الفيروزآبادى، وتاج العروس للزبيدى، والمعيار لميرزا محمد على الشيرازى.

التقفية فى اللغة، أبو بشر اليمان بن أبى اليمان البندنيجى (٢٠٠ ــ ٢٨٤هـ).

كان التقفية معجما مغمورا حتى وقت قريب. و يرجع فضل الكشف عنه للشيخ حمد الجاسر. وقد نشر المعجم مطبوعا بتحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية سنة ١٩٧٦م. وترجع أهمية التقفية إلى كونه أقدم معجم يرتب مواده ألفباتيا وفقا لأواخر الكلمات. وذلك بعكس مادرج عليه اللغو يون من اعتبار الصحاح للجوهرى أول معجم اتبع منهج المدرسة الثالثة فى الترتيب.

وترجع تسمية المؤلف لمعجمه بالتقفية، لاتباعه طريقة القافية فى ترتيب مواد المعجم. فقد قسم المؤلف الكتاب إلى ثمانية وعشرين بابا بعدد حروف الهجاء. وقد تناول الأبواب وفقا للترتيب الألفباتى حيث بدأ بالباب الخاص بحرف الألف وانتهى بالباب الخاص بحرف الياء. غير أن الألفاظ لم تكن مرتبة داخل كل باب

وفقاً لنظام معين. فقد قسم المؤلف كل باب إلى قوافٍ ولكنه لم يميز بين قافية وأخرى وإنما جمع كل الألفاظ ذات القافية المتشابهة فى مكان واحد. وهذا يعنى أن المؤلف التزم بنظام الباب وهو الالتزام بالترتيب الألفبائى وفقا لأواخر الألفاظ، ولم يلتزم بالفصل وهو مراعاة الحرف الأول عند ترتيب الألفاظ داخل كل باب.

تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى (٣٣٢ ــ ٣٩٣هـ).

يطلق على هذا المعجم اختصارا تسمية الصحاح (بكسر الصاد وفتحها). وقد انتشر استخدامه فى كافة الأقطار الإسلامية وبلغ من الشهرة مبلغا عظيما. كما أن معظم المعاجم العربية المشهورة اقتفت منهجه واعتمدت عليه.

وكما تعرض الصحاح فى القديم إلى الإطراء تارة والنقد تارة أخرى نجد أنه تعرض فى العصر الحديث إلى التشكيك فى أصالته. فقد تبنى المستشرق كرنكو الرأى القائل بأخذ الجوهرى لمنهج الباب والفصل ولمعلوماته من كتاب ديوان الأدب للفارابى. وقد تبعه العديد من الباحثين وعلى رأسهم الدكتور أحمد مختار عمر، الذى حاول إثبات هذا الرأى عن طريق مقارنة وتحليل النصوص فى كل من الصحاح وديوان الأدب[1] . كما أثبت الشيخ حمد الجاسر (وهو ماذكرناه سابقا) ظهور منهج الترتيب بأواخر الكلمات قبل الصحاح. وقد رد الشيخ أحمد عبدالغفور عطار على كافة الآراء النقدية التى تعرض لها الجوهرى وصحاحه وأوضح تفرد الصحاح بمنهجه وأصالة مادته[2] .

والواقع أن معجم الصحاح يعتبر من أعظم معاجم العربية على الإطلاق. وإن كان سبقه البندنيجى أو الفارابى بالأخذ بالترتيب بأواخر الكلمات، إلا أنه لايمكن إنكار

(١) أحمد مختار عمر، البحث اللغوى عند العرب : مع دراسة القضية التأثير والتأثر، القاهرة : عالم الكتب، ١٩٧٦م. ص ص ١٤٧ ــ ١٦٢

(٢) أحمد عبدالغفور عطار، مقدمة الصحاح، بيروت : دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ ص ص ٨١ ــ ٨٣

أن الصحاح يعتبر أكثرها كمالا وتمثيلا لمنهج المدرسة الثالثة، سواء من ناحية المادة اللغوية أو ناحية أحكامه لنظام الباب والفصل.

رتب الجوهري الصحاح على نفس نظام الباب والفصل الذى ذكرناه سابقا. ولا يختلف فى شيء سوى أنه أدمج الياء والواو فى باب واحد، وأفرد بابا فى آخر المعجم للألف اللينة. كما أنه قدم الهاء على الواو فى الأبواب، إلا أنه قدم الواو على الهاء فى الفصول.

طبع الصحاح لأول مرة فى مجلد واحد فى تبريز سنة ١٢٧٠هـ، ومن ثم فى بولاق فى ستة مجلدات سنة ١٩٠٠م. إلا أن أشهر طبعاته تلك التى ظهرت بتحقيق الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار، وقدم لها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز. وقد صدرت تلك الطبعة سنة ١٣٧٥هـ فى ستة مجلدات.

ولقد كان الصحاح سببا فى ظهور عدد كبير من المؤلفات اللغوية التى تدور حول اختصاره أو نقده أو الدفاع عنه أو الجمع بينه وبين غيره.

فمن الكتب التى اختصرته:

- مختار الصحاح، محمود بن أحمد الزنجانى (٥٧٣ ــ ٦٥٦).
- مختار الصحاح، شمس الدين محمد بن حسن بن سباع المعروف بابن الصائغ الدمشقى.
- مختار الصحاح، محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى.
- مختار الصحاح، أبو الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشى.
- نجد الفلاح فى مختصر الصحاح، خليل بن أيبك الصفدى (٦٩٦ ــ ٧٦٤هـ).
- الجامع، السيد محمد بن السيد حسن الشريف.
- مختار اللغة، محمد بن أويس.
- مختصر الصحاح، الجوابى.

ومن كتب التكملة :

المنتهى، محمد بن تميم البرمكى.

المعرب عما فى الصحاح والمعرب، عبدالوهاب إبراهيم الزنجانى الخزرجى.

التكملة والذيل والصلة، الحسن بن محمد بن الحسن الصغانى.

ومن كتب الحواشى :

حاشية أبى القاسم الفضل بن محمد القصبانى البصرى (ـ٤٤٤هـ).

التنبيه والإيضاح عما وقع فى كتاب الصحاح (المشهور باسم حواشى ابن برى).

حاشية محمد بن على الشاطبى (ـ٦٨٤هـ).

غوامض الصحاح، خليل بن أيبك الصفدى (ـ٧٦٤هـ).

ومن كتب النقد :

قيد الأوابد من الفوائد، أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى النيسابورى (ـ٥١٨هـ).

إصلاح الخلل الواقع فى الصحاح، على بن يوسف القفطى (ـ٦٤٦هـ).

نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم، خليل بن أيبك الصفدى (ـ٧٦٤هـ).

مجمع السؤالات فى صحاح الجوهرى، للمجد الفيروزآبادى (ـ٨١٧هـ).

ومن كتب الدفاع :

اللفظ الجوهرى فى رد خباط الجوهرى، جلال الدين عبدالرحمن السيوطى (ـ٩١١هـ).

ومن الكتب التى جمعت بين الصحاح وبين غيره :

ضالة الأريب بين الصحاح والتهذيب، تاج الدين محمود بن أبى المعالى بن الحسن الخوارى.

ينابيع اللغة، تاج الدين محمود بن أبى المعالى بن الحسن الخوارى.

الجمع بين الصحاح والغريب المصنف، أبو إسحق إبراهيم بن قاسم البطليوسى (ـ٦٤٢هـ).

مجمع البحرين، الحسن بن محمد بن الحسن الصغانى (ـ٦٥٠هـ).

لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (٦٣٠ ـ ٧١١هـ).

يعد هذا المعجم أضخم معجم فى اللغة العربية بعد تاج العروس. و يعود ذلك إلى المنهج الذى سلكه المؤلف فى التوسع والاستطراد فى استيعاب ألفاظ اللغة وتفصيل

الحديث عنها وذكر الشواهد الشعرية والنثرية، حتى أصبح المعجم أشبه بموسوعة أدبية ولغوية جامعة.

واعتمد المؤلف فى إعداده لكتابه على مصادر خمسة هى تهذيب اللغة للأزهرى، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهرى، والجمهرة لابن دريد، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير.

أما من ناحية التنظيم فقد التزم ابن منظور بمنهج المدرسة الثالثه وبدون اختلاف عن طريقة الجوهرى فى الصحاح.

وقد قلت الدراسات والمؤلفات القديمة حول اللسان. أما فى العصر الحديث، فقد رفع اللغويون المحدثون من مكانته وظهرت على أثر ذلك العديد من المؤلفات منها :

أحمد تيمور فى كتابه **تصحيح لسان العرب**، القاهرة : المطبعة السلفية، ١٩٢٤م.

عبدالله بن إسماعيل الصاوى فى **تهذيب اللسان**، وقد صدر منه خمسة أجزاء.

يوسف خياط ونديم مرعشلى، حيث أعادا بناء اللسان فى ثلاثة مجلدات ضخمة على الترتيب الألفباتى، مع إضافة المصطلحات الحديثة التى صدرت عن المجامع اللغوية. وقد صدرت هذه الطبعة سنة ١٩٧٠م، تحت عنوان : **لسان العرب المحيط**.

تحقيقات وتنبيها فى معجم لسان العرب، مكة المكرمة : مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى، ١٣٩٩هـ.

وقد طبع اللسان لأول مرة فى القاهرة بين عامى ١٣٠٠ ــ ١٣٠٨هـ فى عشرين جزءا تضمها عشرة مجلدات تحمل اسم «طبعة بولاق». وطبعته دار صادر فى بيروت فى خمسة وستين جزءاً فى خمسة عشر مجلداً سنة ١٣٧٤هـ. وطبعته دار المعارف بمصر فى ستة مجلدات بعد إعادة ترتيب المواد ألفباتياً.

القاموس المحيط، أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز آبادى (٧٢٩ ـ ٨١٦هـ).

لقى القاموس المحيط منذ ظهوره فى القرن الثامن شهرة واسعة. وقد كان من علو مكانته انتشار اسم القاموس كمصطلح مرادف للمعجم وإطلاقه على المعاجم. وإذا كان اللسان قد بلغ القمة فى الإطناب والتوسع فى حصر ألفاظ اللغة وشرحها، فإن القاموس قد توجه إلى الإيجاز والاختصار. فالفيروز آبادى فى القاموس يهدف إلى الاستقصاء فى جمع ألفاظ اللغة مع الإيجاز وحذف المعلومات الزائدة. ويمكن تحديد خصائص القاموس المحيط فى الآتى :

- الاستقصاء فى جمع ألفاظ اللغة مع الإيجاز فى شرحها، وحذف الشواهد والأمثلة.
- استخدام بعض الرموز من أجل الاختصار. ومن الرموز التى استخدمها، (ع) موضع، (د) بلد، (ة) قرية، (ج) جمع، (جج) جمع الجمع، (م) معروف، (و) واوى، (ى) يائى.
- العناية بذكر أسماء الأعلام والقبائل والأماكن.
- العنايه بذكر المعلومات الطبية والألفاظ الاصطلاحية والألفاظ الغريبة والأعجمية.
- العناية بضبط الألفاظ.
- تم تنظيم القاموس المحيط على نفس طريقة الجوهرى، وبدون أى تغيير.

وطبع القاموس المحيط لأول مرة فى كلكتا سنة ١٨١٧م فى مجلد واحد، ثم طبع فى كلكتا فيما بين سنتى ١٢٣٠ ـ ١٢٣٢هـ فى أربعة مجلدات بعنايه ماثيو لومسون. كما طبع فى المطبعة الحسنية سنة ١٢٣٠هـ، وفى الآستانة سنة ١٢٥٠هـ، وفى بومبيى والقاهرة سنة ١٣٧٢هـ.

وكان للشهرة والشيوع اللتين حظى بهما القاموس المحيط، وللنقد الذى وجهه الفيروز آبادى للجوهرى، أثرهما فى ظهور عدد كبير من المؤلفات التى تعارضه أو تستدرك عليه، على شكل شروح للقاموس المحيط أو لمصطلحاته أو مقدمته، أو تهذيب له، أو استدراك عليه، أو نقده له، أو مختصرات أو ترجمات له إلى اللغات الأخرى.

ونظراً لكثرة تلك المؤلفات فإننا نكتفى بأهمها وأكثرها شهرة وهى :

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسينى الزبيدى (١٢٠٥هـ)
الجاسوس على القاموس، أحمد فارس الشدياق (ـ١٣٠٥هـ)
تصحيح القاموس، أحمد تيمور باشا (ـ١٩٣٠)
ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، طاهر أحمد الزاوى. وقد أعاد فيه بناء القاموس المحيط وفقا للترتيب الألفبائى.

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسينى الزبيدى (١١٤٥ ـ ١٢٠٥هـ)

هو شرح مفصل للقاموس المحيط، مع المحافظة على عبارة القاموس ما أمكن، ونقدها والاستدراك عليها. ويرجع سبب تأليفه إلى شعور الزبيدى بشمولية القاموس المحيط وإيجازه وكثرة الدراسات حوله، فرغب فى إعداد هذا المعجم وجمع تلك الدراسات فى كتاب واحد. وقد اعتمد الزبيدى فى ذلك على مراجع عدة تصل إلى مائة وعشرين مرجعا بما فيها المعاجم اللغويه وكتب النحو والصرف والتاريخ والطبقات والأنساب ومعاجم البلدان والكتب الموسوعية الشاملة. وتشمل إضافات الزبيدى على القاموس المحيط، ذكره للشواهد، وإعادته الاقتباسات إلى أصولها، والاستدراك على الفيروز آبادى فيما أغفله من ألفاظ ومعان.

ويعتبر التاج أضخم معاجم اللغة على الإطلاق. وقد تمت طباعة خمسة أجزاء منه فى المطبعة الوهبية فى مصر سنه ١٢٨٦ ـ ١٢٨٧هـ. كما طبع فى عشرة مجلدات فى المطبعة الخيرية بالقاهرة. وأعيد تصويره عدة مرات فى بعض الأقطار العربية الأخرى. وصدرت منه طبعة جديدة تحت إشراف وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية بتحقيق عبدالستار أحمد فراج سنة ١٩٦٥م.

٢ مدرسة الترتيب الألفباتى حسب الأصول: وهى مدرسة الترتيب الألفباتى لأصول الألفاظ وفقا لأوائل الحروف ومابعدها. ومنهج هذه المدرسة الرابعة فى الترتيب هو نفس المنهج الذى تسير عليه أغلب المعجمات العربية الحديثة، والذى يتميز بالسهولة فى الاستخدام والقدرة على استرجاع الألفاظ فى أسرع وقت. وتعتبر هذه الطريقة بحق أحدث وأسهل ماتوصل إليه الإنسان فى مجال ترتيب مواد المعجمات وتسهيل الوصول إليها.

وأول من يعرف أنه اتبع الترتيب الألفباتى فى ترتيب المعجمات هو أبو عمرو الشيبانى، إلا أنه لم يراع فى الترتيب إلا الحرف الأول فقط. فقد كان يجمع تحت كل حرف الكلمات التى تبدأ بذلك الحرف دون مراعاة للحروف الأخرى. ولذلك لم تنسب هذه المدرسة إليه[1].

ويرى الأستاذ/أحمد عبدالغفور عطار أن أول من يعرف أنه أحكم نظام هذه المدرسة، والتزم الترتيب الألفباتى للألفاظ وفقا للحرف الأول ثم الثانى فالثالث والرابع، هو أبو المعالى محمد بن تميم البرمكى فى معجمه «المنتهى فى اللغة»[2]. بينما يرى الآخرون أن أول معاجمها وأشهرها هو أساس البلاغه للزمخشرى. وقد لاقت هذه

---

(١) أحمد عبدالغفور عطار، مقدمة الصحاح، ص ١٠٤

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٤

الطريقة من الترتيب رواجا لدى بعض مؤلفى معاجم العلوم الدينية وذلك لتناسبها مع هدف تلك المعاجم. ومن أشهر المعجمات الدينية التى سارت وفق الترتيب الألفباتى «المصباح المنير» للفيومى «وغريب القرآن» لأبى بكر محمد بن عزيز السجستانى، و«المفردات فى غريب القرآن» للراغب الأصفهانى، و«النهاية فى غريب الحديث والأثر» لابن الأثير.

ــ أسس الترتيب :

يقوم نظام الترتيب فى المدرسة الرابعة على ترتيب الألفاظ ألفباتياً وفقا للحرف الأول. كما يتم مراعاة الحرف الثانى إذا كان اللفظ ثلاثيا، والحرف الثالث إذا كان اللفظ رباعيا، والحرف الرابع إذا كان خماسيا. و يتم كل ذلك اعتمادا على المادة الأصلية للفظ بعد تجريده من الزوائد.

ــ طريقة الاستخدام :

يمكن الوصول إلى المواد اللغوية فى معاجم هذه المدرسة بنفس الطريقة التى يتم بها استخدام المعاجم الحديثة والتى تتمثل فى الخطوات التالية :

١ ــ تجريد الكلمة من الزوائد، وإعادتها إلى أصلها.

٢ ــ البحث عن الكلمة الأصلية تحت الحرف الأول منها.

٣ ــ تحديد مكان الكلمة بين الكلمات التى تبدأ بنفس حرفها الأول، عن طريق المقارنة الألفباتية بين الحروف الثوانى ومن ثم الثوالث والروابع وهكذا ...

ــ معاجم مدرسة الترتيب الألفباتى حسب الأصول :

المنتهى فى اللغة، أبو المعالى محمد بن تميم البرمكى (٣٧٢ــ٤٣٣هـ)

اتبع المعجم الترتيب الألفباتى كاملا و يذكر مؤلفه فى مقدمته أنه ألفه سنة

٣٩٧هـ. والمنتهى ليس معجما مبتكرا، وإنما قام مؤلفه بإعادة ترتيب معجم الصحاح للجوهرى وفقا للترتيب الألفباتى، مع زيادة مواد قليلة. ولايزال المعجم مخطوطاً. كما أن بعض أجزائه لا تزال مفقودة.

أساس البلاغه، جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشرى (٤٦٧ ــ ٥٣٨هـ)

لعل أهم مايتميز به معجم أساس البلاغة أنه يختلف اختلافا جذريا فى هدفه عن المعجمات القديمة الأخرى. ففى حين تتوجه تلك المعجمات إلى الاهتمام باللفظ المجرد وذكر معانيه المختلفة، نجد أن أساس البلاغة يتوجه إلى ذكر العبارات المركبة، وذكر أوجه الإعجاز البلاغى ومايدور حول تلك العبارات من معان وأساليب ودلالات. كما تبرز أهمية الأساس فى كونه أشهر المعجمات القديمة التى اتبعت الترتيب الألفباتى. فقد قسم الزمخشرى معجمه إلى كتب يخص كل منها حرفا من حروف الهجاء. بدأها بكتاب الهمزة وختمها بكتاب الياء. وقد قسم حديثه عن كل مادة إلى قسمين أولهما للمعانى الحقيقية والآخر للمعانى المجازية.

وبرغم ظهور هذا المعجم بين القرنين الخامس والسادس، إلا أن كثيراً من المعجمات التى تلته ظهورا لم تستفد منه أو تتبع طريقته فى الترتيب بل إن الكثير من الأقدمين اعتبر طريقته فى الترتيب إغرابا.

طبع أساس البلاغه لأول مرة فى مصر تحت إشراف دار الكتب عام ١٢٩٩هـ. كما طبع مرة أخرى عام ١٣٢٧هـ. وتبع ذلك عدة طبعات أخرى.

٢ ــ معاجم المعانى

يطلق على هذا النوع من المعاجم عدة تسميات أخرى مثل «المعاجم المبوبة» و «معاجم الموضوعات» و «معاجم المترادفات».

ومعاجم المعانى هى : تلك المعاجم التى تقوم على جمع وتحديد المعانى والموضوعات والتسميات والصفات، ومن ثم حصر الألفاظ والمترادفات التى يستعملها العرب للتعبير عن تلك المعانى.

وبذلك نجد أن معاجم المعانى تتوجه إلى تحديد المعانى أولا وجمع الألفاظ التى تعبر عنها. وهذا بالعكس تماما من معاجم الألفاظ والتى تقوم بجمع الألفاظ ثم تشرحها وتبين معانيها.

وبذلك نجد أن معاجم المعانى ذات فائدة كبرى لمن يريد معرفة الألفاظ التى تعبر عن أحد المعانى التى تدور بخلدنا أحيانا ولانستطيع التعبير عنها بدقة. كما أنها فى العصر الحديث ذات أهمية للمسئولين عن التعريب والمترجين والمتخصصين فى كافة حقول المعرفة، الذين يواجهون التحدى فى إيجاد التسميات والمصطلحات المقابلة للمصطلحات الأجنبية، والتسميات والأوصاف اللازمة لكافة المكتشفات وانجازات الحضارة الحديثة.

ـ **نظام الترتيب :** تقوم أغلب معاجم المعانى على نوع معين من الترتيب وهو «الترتيب الموضوعى». حيث يتم تقسيم المعجم إلى أبواب أو كتب رئيسية يختص كل منها بأحد المعانى أو الموضوعات الشاملة. كما يتم تقسيم كل كتاب أو باب إلى أقسام فرعية يختص كل منها معنى أو موضوعاً فرعياً من المعانى والأوصاف والتسميات التى تدور حول المعنى أو الموضوع الرئيسى.

ـ **أنواع معاجم المعانى :** كان التأليف المعجمى بحسب الموضوعات أسبق أو معاصرا فى الظهور لرصيفه التأليف بحسب الألفاظ. ورغم غزارة الإنتاج الفكرى المعجمى فى مجال المعانى، إلا أنه لم يصل منه إلا النذر اليسير. ولو استعرضنا تاريخ تطور الإنتاج

الفكرى فى مجال المعانى لاستطعنا إدراجه تحت النوعين التاليين :

أ ــ المعاجم ذات الموضوع الواحد :

كان التأليف المعجمى على شكل رسائل قصيرة أول أنواع الإنتاج المعجمى ظهورا. وفى مجال معاجم المعانى، نجد أن أول ماظهر من إنتاج علمى فى حقل المعانى كان على شكل رسائل صغيرة تتحدث عن معنى واحد من المعانى أو موضوع من الموضوعات، أو جنس من أجناس النبات والحيوان، أو التسميات والصفات التى تتعلق بإحدى الكائنات وغيرها من الموضوعات المماثلة. وقد بدأ التأليف فى رسائل المعانى منذ القرن الثانى الهجرى واستمر حتى القرن الخامس.

ومن أوائل من ألف الرسائل القصيرة ذات الموضوع الواحد أبو مالك عمرو بن كركرة وله رسالتان فى خلق الإنسان والخيل، وأبو خيرة الأعرابى وله رسالة فى الحشرات، وكلاهما من علماء القرن الثانى.

وممن توفوا فى القرن الثالث، النضر بن شميل (٢٠٣هـ) وله رسالة فى السلاح، وأبو عمر الشيبانى، وله النحلة والإبل والخيل، وأبو عبيد وله الأنسان والزرع، وأبو زيد الأنصارى (٢١٥هـ) وله المطر والمياه وخلق الإنسان والشجر، والأصمعى (٢١٣هـ) وله رسائل أسماء الخيل والبئر والدرع، وغيرهم ممن لايتسع المجال لذكرهم.

وممن توفوا فى القرن الرابع، نجد الأخفش وله كتاب الأنواء، وابن دريد وله كتابا السرج واللجام، والمطر والسحاب، وأبو على القالى وله الإبل. كما نجد الرسائل التى ظهرت فى خلق الإنسان لكل من أبى محمد بن القاسم الأنبارى (ــ٣٠٤هـ)، وأبى إسحق الزجاج (ــ٣١٠هـ)، وداود بن أحمد الوشاء (ــ٣٢٥هـ)، وأحمد بن فارس (ــ٣٩٥هـ).

وفى القرن الخامس وماتلاه بدأت الرسائل فى التلاشى، حيث كان الإنتاج الفكرى أقل بالمقارنة مع القرون السابقة. ومن الرسائل القليلة التى ظهرت خلال هذه الفترة، رسائل فى **خلق الإنسان** ليوسف بن عبدالله الزجاجى (ـ٤١٥هـ)، وعبدالله ابن سعيد الخوافى (ـ٤٨٠هـ)، والصغانى (ـ٦٥٠هـ)، ورسائل عن **الخيل** ألفها يوسف بن عبدالله الزجاجى، والحسن بن أحمد الأعرابى الغندجانى، ومحمد بن على اللخمى (ـ٦١٦هـ)، ومحمد بن رضوان النمرى (ـ٦٥٧هـ) وغيرهم.

ب ـ معاجم المعانى العامة:

يشمل هذا النوع كافة الكتب والمعجمات التى تناولت المعانى والموضوعات بشكل شامل، بحيث اشتملت على العديد من الموضوعات والمعانى المختلفة. وقد ظهر الاتجاه الشامل فى تأليف معاجم المعانى منذ وقت بعيد. ومن أوائل المصنفات فى هذا المجال معجم «**الغريب المصنف**» للقاسم بن معن الكوفى (ـ١٧٥هـ). و«الصفات» للنضر ابن شميل (ـ٢٠٣هـ). أما أقدم كتاب وصل إلينا فهو الغريب المصنف لأ بى عبيد القاسم بن سلام (ـ٢٢٤هـ)، الذى ينسب إليه أيضاً وضع الترتيب حسب الموضوعات. وقد استمر الاتجاه فى تأليف الكتب والمعاجم الشاملة فى مجال المعانى خلال العصور الإسلامية المختلفة و بشكل متزامن مع الرسائل القصيرة.

ومن أهم معاجم المعانى العامة مايلى:

كنز الحفاظ فى كتاب تهذيب الألفاظ، يعقوب بن إسحق بن السكيت (١٨٦ ـ ٢٤٤هـ)

يعتبر كتاب ابن السكيت من أقدم معاجم المعانى. وقد قسمة مؤلفة إلى مائة وخمسين بابا يخص كل منها معنى من المعانى أو موضوعا من الموضوعات، والألفاظ التى تستعملها العرب للتعبير عن جميع أحوال المعنى ودرجاته. إلا أن المؤلف قد سرد الأ بواب دون ترتيب أو فكرة معينة.

وقد اختصر ابن السكيت كنز الحفاظ تحت اسم «مختصر تهذيب الألفاظ»، وتمت طباعة المختصر فى بيروت بتحقيق لويس شيخو سنه ١٨٩٧م. أما كنز الحفاظ نفسه فقد هذبه الشيخ أبوزكريا التبريزى. وتمت طباعته مع الشروح والفهارس فى بيروت سنه ١٨٩٥م.

الألفاظ الكتابية، عبدالرحمن بن عيسى الهمذانى (ــ٣٢٠هـ).
هو أحد المعاجم المختصرة فى مجال المعانى. وقد قام مؤلفه بتقسيمه إلى أبواب كثيرة كما فعل ابن السكيت فى المعجم السابق. و يتميز هذا المعجم عن سابقه بأنه لم يعن بالمفردات بقدر اهتمامه بجمع التراكيب والعبارات. صدر لأول مرة مطبوعا فى بيروت بتحقيق لويس شيخو سنه ١٨٨٥م.

جواهر الألفاظ، قدامة بن جعفر البغدادى (ــ٣٢٠هـ).
بنى هذا المعجم على أساس الاهتمام بالفنون البلاغية. ولذلك نجد أنه يخلو تقريبا من الشروح و بيان الفروق بين المعانى، و يركز على وصف العبارات والتراكيب البلاغية.

وقد طبع بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد فى القاهرة سنة ١٩٣٢م.

الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، أحمد بن فارس (ــ٣٩٥هـ)
«الصاحبى» هو الاسم الذى اشتهر به كتاب ابن فارس «فقه اللغة» و يرجع سبب التسمية إلى كونه قد صنف للصاحب بن عباد.

نشر المعجم لأول مرة بتحقيق محمد محمود الشنقيطى سنه ١٩١٠م. كما تم طبعه بمؤسسة بدران للطباعة والنشر ببيروت بتحقيق مصطفى الشويمى سنه ١٩٦٤م.
التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء، أبوهلال العسكرى (ــ٣٩٥هـ).

معجم معان يتسم بالشمول فى حصر مادته. وقد قسمه مؤلفه إلى أربعين بابا، وقسم كل باب إلى فصول فرعية تتناول المعانى الفرعية الخاصة بالمعنى الرئيسى. ويتميز المعجم بشرح المعانى والتنبيه على الألفاظ المعربة والدخيلة والألفاظ المترادفة، مع الشواهد والأمثلة.

صدر الكتاب فى دمشق بتحقيق عزة حسن سنه ١٩٦٩م.

فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى (٣٥٠-٤٢٩هـ)

أخذ الثعالبى اسم معجمه هذا من عنوان كتاب الصاحبى لابن فارس. و يعتبر المعجم برغم صغر حجمه من أشهر وأشمل المعاجم فى مجال المعانى. كما يمتاز بحسن التنظيم. فقد قسمه المؤلف إلى قسمين رئيسين، أطلق على الأول اسم فقه اللغة، وأطلق على الآخر اسم سر العربية. و يضم القسم الأول ثلاثين بابا يتناول كل منها أحد المعانى الرئيسية فى اللغة العربية. أما القسم الثانى فيتوجه إلى شرح خصائص اللغة العربية ومميزاتها والموازنة بينها و بين اللغات الأخرى.

طبع المعجم لأول مرة فى باريس بعناية رشيد الدحداح سنة ١٨٦١م. كما طبع عدة مرات أخرى بعد ذلك فى كل من القاهرة و بيروت.

المخصص، أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده (-٤٥٨هـ).

يعتبر المخصص أوسع وأضخم معاجم المعانى القديمة. فهو يجمع كافة المعانى والموضوعات التى جاءت فى الرسائل والمعاجم التى سبقته. فقد اعتمد مؤلفه فى إعداده على عدد كبير من المعاجم والكتب اللغوية التى أشار إليها فى مقدمة الكتاب. كما يعتبر المخصص من أحسن معاجم المعانى تبويبا. فقد التزم مؤلفه بتقديم الأعم على

الخصص والحليات على الجزئيات، وقسمه إلى سبعة عشر بابا رئيسيا، وقسم كل باب إلى فصول فرعية حسب مايقتضيه المعنى الذى خصص له الباب. كما يحتوى المعجم على العديد من الفهارس التى تساعد على الوصول إلى محتوياته.

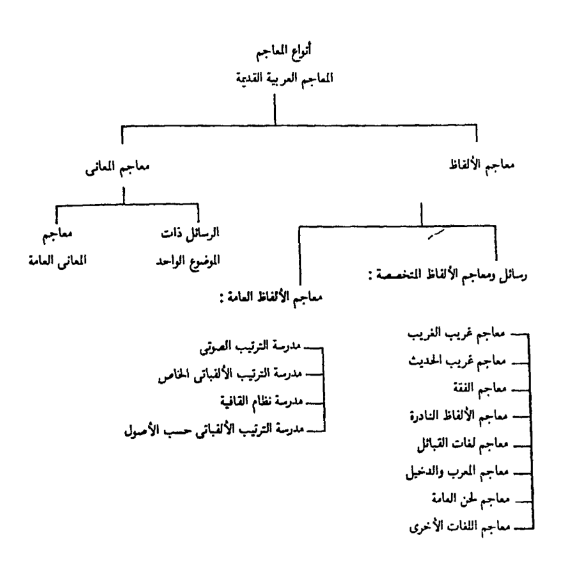
أعد الأستاذ محمد الطالبى دراسة على المخصص تحتوى على فهارس متنوعة لهذا المعجم تحت عنوان، **المخصص لابن سيده : دراسة ودليل**. وهو عمل جيد لتسهيل الوصول إلى مكنونات المخصص.

طبع المخصص فى سبعة عشر جزءاً فى ستة مجلدات بواسطة المطبعة الأميرية المطبعة **ببولاق فيما بين سنتى ١٣١٦ ــ ١٣٢١هـ.**

كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، أبو إسحق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد اللواتى الأجدابى (ــ٤٧٠هـ).

الكفاية من المعاجم المختصرة فى مجال المعانى. وقد أراد به مؤلفه أن يكتفى به من لم يرد التوسع فى هذا الموضوع. وبناء على ذلك لم يذكر فيه الألفاظ الحوشية والشواهد. أما من ناحية الترتيب، فقد اتبع الأجدابى نفس التنظيم الموضوعى الذى سار عليه من سبقه.

ورغم صغر حجم هذا المعجم، إلا أنه نال من الشهرة شيئا عظيما، ولذلك ظهر الكثير من المؤلفات التى تقوم بشرحه أو نظمه أو التعليق عليه ومن أهم تلك المؤلفات، «**تحرير الرواية فى تقرير الكفاية**» لمحمد بن الطيب الفاسى (ــ١١٧٠هـ)، و«**عمدة المتلفظ فى نظم كفاية المتحفظ**»، لجمال الدين محمد بن محب الدين الطبرى (ــ٧٠٠هـ). كما قام بنظم المعجم ابن مالك صاحب الألفية. طبع فى القاهرة سنة ١٢٨٧هـ.


أنواع المعاجم
المعاجم العربية القديمة
معاجم الألفاظ
معاجم المعانى
الرسائل ذات
الموضوع الواحد
معاجم
المعانى العامة
رسائل ومعاجم الألفاظ المتخصصة :
معاجم الألفاظ العامة :
معاجم غريب الغريب
معاجم غريب الحديث
معاجم الفقة
معاجم الألفاظ النادرة
معاجم لغات القبائل
معاجم المعرب والدخيل
معاجم لحن العامة
معاجم اللغات الأخرى
مدرسة الترتيب الصوتى
مدرسة الترتيب الألفبائى الخاص
مدرسة نظام القافية
مدرسة الترتيب الألفبائى حسب الأصول

المحاضرة السادسة

معاجم التراجم العربية

١- تطور كتب التراجم العربية

٢- السمات العامة لكتب التراجم العربية

٣- أنواع كتب التراجم العربية

٤- أمثلة من معاجم التراجم العربية

ثالثا : معاجم التراجم العربية

١ ـ تطور كتب التراجم العربية

عنى المسلمون فى كافة عهود حضارتهم الزاهية بكتابة وتسجيل تاريخ البارزين من أفراد المجتمع الإسلامى. حيث ظهرت كتب التراجم التى تسجل الأحداث الخاصة بحياة الخلفاء والولاة والعلماء فى كافة العلوم والفنون، وعامة الناس مثل الشعراء

والقضاة والكتاب وجميع طوائف المجتمع ممن ليس لهم علاقة بالسياسة أو الجاه. وكانت نتيجة تلك الكتابات هذا التراث العظيم فى ميدان التراجم المرجعية وغير المرجعية.

ولو أردنا تحديد بداية معينة لظهور أول المؤلفات العربية فى ميدان التراجم بوجه عام، والتراجم المرجعية بوجه خاص، لوجدنا أن ذلك يعتبر أمرا صعبا، وذلك لعدم وجود المصادر التى تؤرخ لتطور العلوم خلال تلك العصور. إلا أن معظم الباحثين يؤكدون أن أول كتب التراجم الإسلامية ظهورا هى كتب السيرة النبوية الشريفة التى بدأت أول الأمر تحت رعاية المحدثين. و ينسب أول كتاب فى سيرة الرسول (ص) إلى عروة بن الزبير الذى توفى سنة ٩٢هـ. أما الكتب المرجعية فلعل أقدمها هى كتب الطبقات، وأقدم كتب الطبقات هى طبقات الرواة، التى نشأت فى ظل المحدثين أيضا.

ولذا يظهر أن التراجم بدأت ونمت على يد رجال الحديث، الذين تفننوا فى كتابتها وتطويرها، وانتقلت منهم بعد ذلك إلى المؤرخين والأدباء ورواد التأليف فى العلوم الأخرى.

ومن خلال استعراض المؤلفات فى تاريخ الرجال، نجد أن التراجم والسير الإسلامية كانت موجودة فى كافة العلوم والفنون، إلا أنها موجودة بشكل رئيسى فى المصادر الخاصة بالحديث النبوى والأدب والتاريخ. وسنحاول فيما يلى تفصيل الحديث عن دور هذه العلوم الثلاثة فى تطور التراجم:

أ ـ علوم الحديث النبوى: اهتم الصحابة والتابعون وتابعين وعلماء المسلمين، بجمع الحديث الشريف وروايته وتصحيح متونه وأسانيده. وكانت تلك الجهود سببا رئيسيا فى ظهور العديد من العلوم التى قامت على الحديث ودراساته، والتى كان من

أهم اتجاهاتها الاهتمام بالترجمة لرواة الحديث ورجاله. وتتلخص البواعث لدراسة سير الرجال في الحديث في الآتي[1]:

- رأى الصحابة والتابعون وعلماء الحديث من بعدهم، أن الكثير من أحوال الحديث ورواته يتعلق بأعمال الرسول (ص) وأقواله وغزواته، والأحداث التاريخية في عهده وعهد الخلفاء من بعده. وكان ذلك باعثا على الاهتمام بتاريخ الأحداث التاريخية ذات العلاقة بالأحاديث النبوية وحياة الصحابة وسيرهم.
- لما كثر الكذب على رسول الله (ص)، اتجه العلماء إلى إيجاد الوسائل التي تضمن تنقية الأحاديث و بيان الصحيح منها والمكذوب وكان من أهم تلك الوسائل دراسة تاريخ الرجال ورواة الحديث و بيان مدى اتصال بعضهم ببعض وجوانب حياتهم السلوكية وقدراتهم الذهنية، وهو ماعرف بعلم الجرح والتعديل. وقد تكلم في الجرح والتعديل كثير من الصحابة ومن المتأخرين، منهم ابن عباس (ـ٦٨هـ)، وأنس بن مالك (ـ٩٣هـ)، ومالك بن أنس (ـ١٧٩هـ)، وابن المبارك (ـ١٨١هـ)، وابن عُيَيْنَة (ـ١٩٧هـ)، ويحيى بن معين (ـ٢٣٣هـ)، وأحمد بن حنبل (ـ٢٤١هـ)، وغيرهم.

وقد تركت الجهود التي بذلت في ميدان تراجم الحديث خلال العصور الإسلامية المختلفة تراثا عظيما من التراجم عن أحوال رواة الحديث وتراجمهم يمكن تصنيفها إلى أنواع عديدة هي: تراجم الصحابة، وتراجم رواة الشيعة، وتراجم الرواة في المجموعات الكبرى، وكتب الجرح والتعديل، والمشيخات ومعاجمها، والتراجم الحصرية لرواة الحديث[2].

---

(١) أحمد امين، «تراجم الرجال في الأدب العربي»، الثقافة س ١، ع ٤ (٣ أكتوبر، ١٩٣٩م) ص ص ١٣-١٤.

(٢) سميرة خليل، «الكتب المرجعية لتراجم رواة الحديث حتى القرن السادس الهجرى»، عالم الكتاب، ع ١٤ (ابريل/ مايو/ يونيو، ١٩٨٧م) ص ٥.

ب ـ علوم الأدب : قدم مؤلفو كتب جهودا عظيمة فى مجال التراجم وتاريخ الرجال. فبالإضافة إلى احتواء كتب الأدب على كثير من الكتابات عن الأشخاص البارزين وغير البارزين فى المجتمع، نجد أن الكثير من الأدباء كانوا الرواد الأوائل فى تأليف العديد من كتب السير والسير الذاتية ومعاجم التراجم الشاملة.

والأدب وكتاباته لهما علاقة وثيقة من ناحية التأثير والتأثر بالتراجم والسير، سواء فى الحضارة الإسلامية أو فى غيرها من الحضارات الأخرى. وكما يرى الأستاذ أحمد أمين بأن دراسات الأدب على نوعين : نوع يقوم على النثر والشعر، ونوع آخر يقوم على تراجم الرجال[1].

وقد جاء الأدباء فى ميدان كتابات التراجم بعد المحدثين. و يدلل الأستاذ أحمد أمين على سبق المحدثين للأدباء فى ميدان التراجم بالآتى[2]:

ـ السبق التاريخى لكتابات المحدثين بالمقارنة مع كتابات الأدباء التى جاءت بعدها بزمن طويل.
ـ الصبغة التى اصطبغت بها كتب التراجم مثل نمط الإسناد وأساليب التعبير والتى يغلب عليها جميعا أسلوب المحدثين.

ج ـ الدراسات التاريخية : تعتبر التراجم فى حد ذاتها تاريخا، إلا أنها تختلف عن الدراسات التاريخية بتخصصها فى الحديث عن حياة الأشخاص وسيرهم. ولذلك نجد أن كتب التاريخ بشكل عام مليئة بالمعلومات عن تاريخ الرجال والنساء والعلماء والولاة وعامة الناس. بل إن التاريخ الإسلامى ـ خاصة ذلك النوع الذى يسرد الأحداث حسب السنين ـ يتناول التاريخ من خلال الأشخاص. كما أن كتب

---

(١) أحمد أمين، «تراجم الرجال فى الأدب العربى»، ١٣.
(٢) نفس المرجع السابق ص، ١٤.

التاريخ تعتبر فى الماضى والحاضر المصدر الرئيسى للتأليف فى ميدان التراجم. وأيضا فإن كتب التراجم وعلى الأخص السيرة النبوية تعتبر فى نظر أغلب الباحثين أقدم الكتابات فى ميدان التاريخ الإسلامى. فالعلاقة بين التراجم والتاريخ هى علاقة عام وخاص، وكل وجزء.

ومن خلال ماسبق يمكن لنا استخلاص النتائج الآتية:

- ريادة المحدثين وأسبقيتهم فى التأليف فى ميدان التراجم.
- أثر الحديث النبوى وعلومه فى تنوع ووفرة الإنتاج الفكرى الترجمى.
- استمرار تأليف المحدثين فى ميدان التراجم خلال العصور الإسلامية المختلفة.
- اتساع وتنوع التأليف فى ميدان التراجم والسير، حيث انتقل التأليف من المحدثين إلى المتخصصين فى كافة العلوم والفنون الأخرى.
- تأثر جميع كتاب وكتابات التراجم بأنماط وأساليب المحدثين.
- كانت العلاقة بين التراجم والتاريخ ولا زالت علاقة الكل بالجزء والعام بالخاص. وإذا كان التاريخ يسجل تاريخ الأحداث السياسية والحربية، و يركز على تاريخ الدول والحكومات والأشخاص ذوى السلطة والجاه، فإن التراجم تعنى بتاريخ الأشخاص من كافة فئات المجتمع.

ولقد استمرت مؤلفات التراجم فى الظهور خلال العصور الإسلامية. وكانت تلك الكتب العظيمة سجلا حافلا لتاريخ العلماء والأعيان الذين كان لهم دور بارز فى تاريخ وحياة الأمة الإسلامية. كما ساهمت كتب التراجم فى خدمة العديد من العلوم وعلى الأخص علوم الحديث والأدب والتاريخ، وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى وفرة الانتاج الفكرى فى ميدان التراجم وتنوعه.

ولو أردنا أن نستعرض الإنتاج الفكرى فى ميدان التراجم، لوجدنا أن القرون الأولى شهدت ظهور المؤلفات فى ميدان طبقات المحدثين والرواة والطبقات الخاصة

بعلماء كافة العلوم والفنون، والكتب التى تترجم للعلماء فى مختلف الأمصار الإسلامية. أما القرون المتأخرة، فرغم استمرار ظهور المؤلفات السابقة خلالها، إلا أن أهم سماتها هو ظهور معاجم التراجم العامة ذات المجلدات المتعددة والمرتبة ألفبائيا، وظهور التراجم الخاصة بالعلماء والأعيان فى قرن معين، وكثرة ظهور المختصرات والتهذيبات والتذييلات للمؤلفات القديمة.

٢ ــ السمات العامة لكتب التراجم العربية القديمة :

كان لكتب التراجم العربية القديمة بشكل عام ومعاجم التراجم بشكل خاص، العديد من السمات والخصائص التى تميزها عن التراجم لدى الأمم الأخرى. ونستطيع إلقاء الضوء حول تلك السمات والخصائص من خلال العناصر التالية :

أ ــ **المعلومات :** اختلف مؤلفو التراجم العربية القديمة فى مجال المعلومات التى كانت تحتويها كتبهم. ويمكن توضيح ذلك من خلال العناصر التالية :

- **كمّية المعلومات :** يعتبر هذا العنصر ذا أهمية بالغة فى الأعمال المرجعية حيث يتطلب المقام من المؤلف الحديث عن مجموعة كبيرة من الأشخاص فى كتاب واحد. ولذا كان لابد من تطبيق نوع من التوازن فى الحديث عن كل شخص والاختصار والاقتصار على المعلومات الهامة. ولو نظرنا إلى التراجم العربية القديمة من خلال هذا العنصر، لوجدنا أن لكل مؤلف منهجه الخاص فى الإيجاز أو الإطناب فى الترجمة. بل إن التفاوت قد يحدث داخل الكتاب الواحد. ومثال ذلك ياقوت الحموى فى معجم الأدباء حيث ترجم لبعض الأشخاص فى أربعة أسطر، ووصلت ترجمته للصاحب بن عباد إلى مائة وخمسين صفحة.
- **نوعية المعلومات :** فمن خلال استعراض بعض معاجم التراجم القديمة نجد أن الكثير منها يركز على معلومات مثل تحديد نسب وسبب شهرة المترجم له، وتحديد سنى ولادته ووفاته، وذكر مؤلفاته وبعض النماذج من نثره أو شعره.

- **مصادر المعلومات** : يعتمد معظم مؤلفى كتب التراجم على عدة مصادر لجميع المعلومات عن ترجماتهم والتى منها [1] :

ـــ الاتصال المباشر بالمترجم له ، وذلك بأن يكون أحد اتباعه أو تلامذته أو معاصرا له . و يأتى معظم هذه الكتابات تقربا من المترجم له أو اعترافا بفضله ودوره فى مجاله . ومثال هذا ماكتب من ترجمة لبعض الخلفاء والسلاطين والعلماء .

ـــ طريق السماع ، وذلك برواية الأخبار عن معاصرى المترجم له ، أو تلقى الرواية بالإسناد ـــ كما يفعل المحدثون ـــ لأشخاص عاشوا قبل المؤلف بزمن .

ـــ المؤلفات العلمية ، و يظهر هذا واضحا فى المؤلفات التى ظهرت خلال القرون المتأخرة ، حيث يذكر مؤلفوها أنهم اعتمدوا على كتب معنية فى جمع معلوماتهم . كما يقوم البعض الآخر منهم بسرد أسماء المصادر التى استقوا منها معلوماتهم .

ب ـــ المساواة : تتميز التراجم العربية القديمة بالسبق فى المساواة بين فئات المجتمع من حيث الترجمة لجميع الأعيان على اختلاف فئاتهم ومكانتهم الاجتماعية ، أو نوعية تخصصهم العلمى ، أو مذهبهم الفكرى . فكما ترجم للخلفاء والسلاطين ، كانت الترجمة كذلك للعلماء ومن ليس له علاقة بالسياسة أو الجاه مثل الشعراء والنحاة والقضاة وغيرهم . وهذا ميدان سبقت فيه التراجم العربية التراجم الغربية التى بقيت حتى العصر الحديث مقصورة على الأ باطرة ورجال الدين .

جـ ـــ الإنصاب والتحامل : يعتبر الحياة فى تقييم المترجم لهم وذكر الحقيقة عن حياتهم وسيرهم أمرا عانت منه التراجم لدى كافة الأمم . والتراجم العربية القديمة تتفاوت فى قضية الحياد والتحقق من صدق المعلومات عن حياة المترجم لهم . فهناك من المؤلفين من يركز على تحقيق الروايات والوصول إلى الحقيقة ، فى حين نجد البعض الآخر يقوم بجمع المعلومات من المصادر التاريخية أو من الأشخاص بدون تحقيق . كما

---

(١) محمد عبدالغنى حسن ، التراجم والسير، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٥م ، ص ص ٩٠ــ٩١ ، ٩٦ــ١٠٣ .

أن هنـاك عـوامل أخرى مثل المصلحة والتنافس والهوى والخلافات المذهبية والفكرية والسـيـاسـية التى كان لها تأثير كبير فى تحديد درجة الإنصاف أو التحامل فى كتابات التراجم العربية القديمة.

د ــ **ضبط أسماء وأنساب الأعلام :** يقع الخلط والخطأ فى بعض الأسماء العربية بسبب التشابه فى الخط والحروف أو صعوبة النطق لبعض الأسماء، أو الاتفاق فى التسمية أو اللقب أو الكنية أو فيها جميعا.

ولهذا ظهر العديد من المؤلفات التى تتولى عملية ضبط الأسماء العربية بالشكل، والتفريق بين الأعلام ذوى الأسماء أو الكنى أو الألقاب المتشابهة. ومن تلك المؤلفات، المؤتلف والمختلف للحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠هـ)، والمؤتلف والمختلف لعبد الغنى بن سعيد (٤٠٩هـ)، وتلخيص المتشابه فى الرسم، وحماية ما أشكل منه عن نوادر التصحيف والوهم للخطيب البغدادى (ــ٤٦٣)، والإكمال فى رفع الارتياب من المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والألقاب لابن ماكولا (٤٩٨هـ)، وتعيين المهمل وتمييز المشكل لابن على الجيانى الأندلسى (٤٩٨هـ)، والأنساب لعبدالكريم السمعانى (٥٦٢هـ)، والمشتبه فى الأسماء والأنساب لشمس الدين الذهبى (٧٤٨هـ).

هــ **طرق الترتيب :** تعتبر طرق الترتيب ذات أهمية بالغة فى كافة كتب المراجع بشكل عام ومعاجم التراجم بشكل خاص. وقد اتبع مؤلفو كتب التراجم العرب الأوائل العديد من المناهج والطرق فى ترتيب مادة كتبهم. ومن أهم تلك الطرق مايلى :

- الطبقات، حيث يتم تقسيم المترجم لهم إلى مجموعات أو فئات، وعادة مايتم تناول تلك الفئات داخل كل طبقة زمنيا حسب سنى الوفاة، أو وفقا للترتيب الألفبائى حسب أسماء المترجم لهم داخل كل طبقة، كما يتم تناول الأشخاص داخل كل فئة وفقا لعوامل عديدة مثل القيمة الدينية أو العلمية أو الاجتماعية، أو

التقدم فى السن أو حسب تاريخ الوفاة. وتعتبر كتب الطبقات النواة الأولى للكتب المرجعية العربية القديمة فى ميدان التراجم، ومثالها كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد.

- الترتيب حسب سنى الوفاة، و يقوم المؤلف هنا بتناول التراجم حسب سنة الوفاة لكل شخص الأقدم فالأحدث. و يتضح تأثر هذه الطريقة بمناهج المؤرخين خاصة التاريخ حسب السنوات. ومثال هذا الاتجاه ابن رجب (٧٩٥هـ) فى ذيله على كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى، وكتاب شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى (١٠٨٩هـ).
- الترتيب الألفباتى: و يتم ترتيب التراجم هنا ألفباتيا وفقا لاسم المترجم له. وقد سارت على هذا النهج معظم معاجم التراجم المرجعية خاصة المتأخرة منها، ولكن تلك المعاجم لم تتبع الطريقة الألفباتية على نسق واحد. فبينما نجد البعض يراعى ترتيب كافة الترجمات ألفباتيا بدون استثناء، نجد البعض الآخر يعمل بعض الاستثناءات مثل الابتداء بذكر أسماء المحمدين تيمنا بالاسم النبوى الكريم، أو تقديم الصحابة والتابعين. ويمثل الاتجاه الأول ابن خلكان فى وفيات الأعيان، و ياقوت فى معجم الأدباء، كما يمثل الاتجاه الآخر السيوطى فى بغية الوعاة، والغزى فى الكواكب السائرة وغيرهم.

٣ ـ أنواع كتب التراجم العربية القديمة :

تنوعت الكتابات العربية القديمة عن التراجم وظهرت بعدة أشكال من الإنتاج الفكرى. ولو أردنا أن نحصر أنواع المصادر التى تحتوى على المعلومات عن التراجم والسير، لوجدنا أنها تنحصر فى الآتى:

أ ـ **التراجم الموجودة فى معظم مصادر الإنتاج الفكرى وعلى الأخص الكتب** الدينية، وكتب والتاريخ وتواريخ البلدان. وهذا النوع من المصادر رغم

احتوائه على تراجم ، إلا أنه ليس من كتب التراجم على الإطلاق .

ب ــ كتب التراجم غير المرجعية و يضم هذا النوع النوعين الفرعين التاليين :

ــ السير : و يقصد بها الكتب المطولة التى تتحدث فى الغالب عن حياة وسيرة شخص واحد. وأول ما أطلق لفظ السيرة كان على السيرة النبوية الشريفة. وتعتبر السير ممثلة فى السيرة النبوية أقدم كتب التراجم ظهورا وأغزرها من ناحية كمية المؤلفات التى ظهرت خلال العصور الإسلامية كافة. وقد نشأت العناية بالسيرة النبوية وذلك كجزء من العناية بالحديث النبوى وجمعه وروايته. ولذلك نجد أن المؤلفات الأولى كانت بتأليف رجال الحديث فى كافة الأمصار الإسلامية حيث ظهر فى المدينة عروة بن الزبير (٩٢هـ) ، وإبان بن عثمان (١٠٥هـ) ، وعاصم بن قتادة (١٢٠هـ) ، وشرحبيل بن سعد (١٢٣هـ) ، وعبدالله بن حزم (١٣٥هـ) . وفى مكة ابن شهاب الزهرى (١٢٤هـ) ، وفى البصرة معمر بن راشد ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى ، وابن هشام صاحب كتاب السيرة النبوية (٢١٨هـ) . وفى الكوفة زياد البكائى (١٨٣هـ) ، وفى اليمن وهب بن منبه (١١٠٠هـ) وغيرهم .

و يعتبر كتاب ابن هشام الذى استمد من كتاب بن إسحق الذى سبقه ، المصدر الرئيسى لكافة كتب السيرة النبوية . وتوجد السيرة النبوية على شكل كتب مستقلة كتبها المؤرخون مثل كتاب ، «الشفا فى تعريف حقوق المصطفى» للقاضى عياض (٥٤٤هـ) ، «وعيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير» لابن سيد الناس اليعمرى (٧٣٤هـ) ، «والزهر الباسم فى سيرة أبى القاسم» للمؤرخ مغلطاى (٧٦٢هـ) ، و «إمتاع الأسماع» للمقريزى ، و «المواهب الدينية فى المنح المحمدية» لشهاب الدين القسطلانى (ــ٩٢٣هـ) ، و «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبى (١٠٤٤هـ) ، كما توجد الكتابات عن السيرة

النبوية فى كتب التاريخ الطويلة مثل تاريخ الطبرى وابن الأثير وابن كثير وغيرهم من المؤرخين[1] .

وبالإضافة إلى السيرة النبوية كتب المسلمون الأوائل عن سير السلاطين والعلماء وغيرهم من الأعلام. وتعتبر «سيرة ابن طولون» فى القرن الثالث الهجرى لأحمد بن يوسف بن الداية أقدم الكتابات فى هذا المجال. ومنها كذلك «سيرة ابن طولون» لعبدالله البلوى وكتاب «اليمنى»، لأبى النصر العتبى (٤٢٧هـ)، فى سيرة السلطان محمود الغزنزى، وكتاب «الفتح الوهبى على تاريخ ابن نصر العتبى» لأحمد المنينى الدمشقى (١١٧٢هـ)، وطائفة السير التى كتبها ابن الجوزى لجماعة من عظماء الأمة الإسلامية، و «سيرة الإمام الشافعى» لفخر الدين الرازى (٦٠٦هـ)، وسيرة صلاح الدين الأيوبى لابن شداد (٦٣٢هـ) تحت عنوان «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، «وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى» للنسوى (٦٢٩هـ)، وغير ذلك من الأعمال الكثيرة التى لايتسع المجال لذكرها[2] .

ـ السير الذاتية والمذكرات الشخصية : ويقصد بها ذلك النوع من السير أو التراجم التى يتولى فيها الكاتب بنفسه تسجيل سيرته وأخباره وأعماله وآثاره العلمية والحوادث التى كان له دور فى توجيهها خلال حياته.

ويلاحظ ندرة الكتابات فى هذا المجال مقارنة بالأنواع الأخرى من التراجم. ويعود السبب فى ذلك إلى عزوف معظم العلماء والكتاب عن الحديث عن أنفسهم، وكون ذلك معيبا بوجه عام فى المجتمعات الإسلامية.

ومن الكتب القليلة فى مجال التراجم الذاتية ماكتبه عمارة اليمنى فى كتابه «النكت المصرية»، وابن سينا (ـ٤٢٨هـ)، والعماد الأصفهانى (ـ٥٩٧هـ) فى

(١) المرجع السابق ص ص ٣١ـ٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ص ٢٨ـ٣٠.

تصديره لكتابه «البرق الشامى» ، والسيوطى (ـ٩١١هـ) فى كتابه «حسن المحاضرة» ، والسخاوى (ـ٩٠٢هـ) فى كتابه «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع» ، ولسان الدين بن الخطيب (ـ٧٧٦هـ) فى كتابيه «الإحاطة فى أخبار غرناطة» و «نفاضة الجراب» ، وابن خلدون (ـ٨٠٨هـ) فى كتابه «التعريف» ، والمقرى (ـ٩٠٤هـ) فى كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» .

ومن المذكرات الشخصية ، مذكرات الأمير أسامة بن منقذ فى كتابه «الاعتبار» ، ومذكرات الأمير عبدالله بن بلقين (ـ٤٨٣هـ) آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة تحت عنوان «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى بغرناطة» . كما تحتوى رحلات الرُّحال الكبار أمثال ابن بطوطة وابن جبير، الكثير من المعلومات التى تعتبر من نوع المذكرات الشخصية . [١]

جـ ـ معاجم التراجم المراجعية ، و يقصد بها جميع كتب التراجم التى تترجم لعدد كبير من الأشخاص و بشكل موجز غالبا ، ووفقا لترتيب معين . وتشمل الأنواع الفرعية التالية :

- معاجم التراجم العامة ، وتشمل جميع كتب التراجم المرجعية التى تترجم للأشخاص البارزين من أعلام الأمة دون حدود زمانية أو مكانية أو موضوعية أو فئوية . و يصعب تحديد أول معجم تراجم عام ظهر فى اللغة العربية وذلك لعدة أسباب منها :

ـ عدم وضوح مناهج بعض المؤلفين ، حيث يدل عنوان الكتاب فى بعض الأحيان على العموم فى الترجمة ، بينما يجنح الكتاب فى محتواه إلى التخصص . وعلى العكس من ذلك نجد بعض الكتب تفيد عناو ينها التخصص ، بينما تتجه فى الواقع إلى الترجمة لمعظم المشهورين فى الأمة الإسلامية حتى وقت إعدادها .

---

(١). المرجع السابق ص ص ٢٤ـ٢٥ .

ـ أن الحكم النهائى فى تحديد مسألة العموم والتخصص فى مجال كتب التراجم يحتاج إلى دراسة شاملة ومركزة لكافة معاجم التراجم وفقا لمعايير معينة، وهو مالم يحدث حتى الآن.

ولعل أشهر معاجم التراجم العامة فى التراث الإسلامى القديم هو كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان. وتلا هذا المعجم العديد من المعاجم المكملة له مثل كتاب «فوات الوفيات» للكتبى، و «الوافى بالوفيات» للصفدى.

و بناء على ماسبق، يتضح أن الاتجاه الشمولى فى معاجم التراجم قد تأخر ظهوره حتى القرن السابع الهجرى. و يعود السبب فى ذلك إلى أن هدف معظم كتب التراجم القديمة كان موجها فى القرون الإسلامية الأولى نحو خدمة علوم أخرى أكثر من كونه موجها لخدمة التراجم كفن مستقل. كما أن الاتجاه نحو تأليف الكتب الجامعة خلال القرون المتأخرة قد يكون سببا آخر فى جميع التراجم فى معاجم شاملة.

● معاجم التراجم المتخصصة، وتشمل جميع معاجم التراجم العربية القديمة التى تناولت التراجم بشكل متخصص ووفقا لعناصر معينة مثل التخصص العلمى، الفئة أو الطبقة، الزمن، المكان، ونحو ذلك من العناصر الأخرى.

وبناء على ماسبق يمكن تقسيم معاجم التراجم المتخصصة إلى الأنواع الفرعية التالية:

١ ـ معاجم التراجم الموضوعية: وتشمل جميع كتب التراجم المتخصصة والتى تترجم للأعلام البارزين فى تخصص علمى معين أو المنتمين إلى فئة علمية أو اجتماعية أو دينية معينة.

و ينقسم هذا النوع إلى قسمين رئيسيين وفقا لطريقة الترتيب وهما:

ـ كتب الطبقات، وقد ارتبطت فى نشأتها الأولى بعلوم الحديث النبوى. و يرجع سبب تسميتها بذلك إلى قيام مؤلفيها بتقسيم الأشخاص الذين تتم الترجمة لهم إلى طبقات أو فئات معينة، يتميز كل منها بالمعاصرة زمنيا أو العيش فى مكان معين

أو الاتصاف بصفات مشتركة . وقد بدأت الفكرة على يد المحدثين الذين كانت المعاصرة الزمنية والاتصال المباشر بين الأشخاص ذوى أهمية كبرى لديهم ، وذلك للتأكد من صحة الرواية وضبط الأسانيد . و يتم ترتيب التراجم داخل كل طبقة زمنيا حسب سنى الوفاة أو ألفباتيا حسب أسماء الأشخاص ، وقد انتقل منهج الطبقات خلال القرنين الثانى والثالث إلى المتخصصين فى العلوم والفنون الأخرى الذين قاموا بالكتابة عن البارزين فى علومهم . وتشتمل تراجم الطبقات على عدد قليل من الكتب التى جمعت التراجم بشكل عام مثل «سير أعلام النبلاء للذهبى» ، ولذا نجد أن معظم معاجم تراجم الطبقات كانت ذات اتجاه متخصص .

و يعتبر التأليف فى ميدان الطبقات أغزر أنواع التراجم من ناحية كثرة المؤلفات . ورغم ضياع عدد كبير منها إلا أن ماوصل إلينا يصعب على الحصر . ولعل أهم المؤلفات فى هذا المجال ماكتب فى طبقات الرواة والمحدثين ، والمفسرين والقراء ، وفقهاء المذاهب الأربعة ، والنحاة ، والقضاة ، والأطباء ، والشعراء ، والصوفية وغيرهم .

— التراجم الألفباتية ، وتشمل جميع كتب التراجم التى تجمع تراجم المتخصصين فى أحد العلوم والفنون ، و يتم ترتيب محتوياتها ألفباتيا وفقا لأسماء المترجم لهم . ويمثل هذا القسم عددا كبيرا من التراجم الموضوعية التى طرحت طريقة الطبقات جانبا ورتبت موادها ألفباتياً ، إلا أن البعض منها عمل بعض الاستثناء وذلك بتقديم الصحابة أو من اسمهم محمد أو أحمد و بعد ذلك اتبع الترتيب الألفباتى .

٢ — معاجم التراجم المكانية : و يشمل هذا النوع جميع كتب التراجم التى تتوجه إلى التخصص فى الترجمة بشكل عام للأعلام فى إطار جغرافى محدود . وقد كان لاتساع رقعة الخلافة الإسلامية وتعدد مراكز الحضارة حينذاك دور فى ظهور العديد من المؤلفات التى تسجل تاريخ إحدى الولايات أو إحدى المدن الإسلامية .

وكانت تلك الكتب التاريخية على ثلاثة أنواع هى:

- النوع الأول ويتحدث عن التاريخ السياسى والحربى والحضارى دون التطرق لتاريخ أعيان المدينة أو الولاية التى يتحدث عنها وهذا ليس من كتب التراجم.
- النوع الثانى، وهو فى أساسه كتاب تاريخ حيث يحتوى على مجلد واحد أو أكثر عن تاريخ المدينة أو الولاية، إلا أن الأجزاء الأخرى منه خصصت معجما يسجل تاريخ الأعلام الذين عاشوا فى تلك المدينة أو الولاية مع ترتيب هؤلاء الأعلام ألفبائيا فى الغالب ومثال هذا النوع تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وتاريخ دمشق لابن عساكر وغيرها. وهذا النوع يعتبر من كتب التراجم المكانية.
- النوع الثالث وهو معجم تراجم متكامل، قام مؤلفه بتسجيل تاريخ الأعلام فى مكان معين، والترجمة لحياتهم وسيرتهم. ومثال هذا النوع مؤلفات كثيرة مثل «بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس» للضبى و«تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضى وغيرها.

ويرجع أقدم الكتب فى مجال التراجم المكانية إلى القرن الثالث الهجرى حيث ظهر خلاله كتاب «تاريخ بغداد» لطيفور والذى يعتبر أقدم الكتب فى مجاله.[1] وقد تبع هذا الكتاب كتب كثيرة تتحدث عن أعلام الولايات والمدن الإسلامية على نسق النوعين الثانى والثالث.

٣- معاجم التراجم الزمنية: ويقصد بها جميع كتب التراجم التى تتخصص فى الترجمة للأعلام فى مدة زمنية محدودة مثل قرن من الزمان أو عصر من العصور. ولا يعرف بالدقة تاريخ ظهور أول كتاب تراجم متخصص من الناحية الزمنية. إلا أن المعروف أنه رغم وجود بعض الكتب التى ترجمت للأعلام فى مدة زمنية محدودة مثل

---

١ - هانى العمد «كتب التراجم الشامية»، رسالة المكتبة مج ١٢، ع ٣، (أيلول، ١٩٨٠م) ص ٥٥.

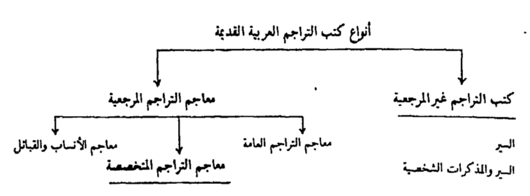
كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي الذي ترجم للشعراء خلال القرن الرابع، إلا أن هذا النوع من التراجم بدأ في الظهور بكثرة منذ القرنين السادس والسابع وتوالى ظهوره خلا القرون المتأخرة وحتى العصر الحديث.

ويمكن القول بأن السبب في غزارة الإنتاج في مجال تراجم القرون خلال العصور المتأخرة يعود إلى أسباب منها:

- تأثر التراجم بالطبقات حيث أصبح القرن يمثل طبقة مستقلة لمن عاشوا فيه.
- كثرة التراجم، حيث أدرك المؤلفون ضرورة التخصص في إطار زمني معين، خاصة بعد كتاب الوافي بالوفيات للصفدي الذي جمع أكثر من أربعة عشر ألف ترجمة.

وتنقسم معاجم التراجم الزمنية إلى نوعين رئيسيين هما:

- تراجم القرون و هي التي تترجم للأشخاص الذين عاشوا خلال قرن واحد. وقد توالى ظهورها منذ القرن السابع الذي شهد ظهور كتابي «مختصر المائة السابعة» لعلم الدين البرزالي، وكتاب «الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة»، وحتى العصور الحديثة التي ظهر خلالها مؤلفات تحصر تراجمها وفقا للقرون وعلى النسق القديم.
- تراجم العصور، حيث قام بعض المؤلفين بالترجمة لشيوخهم أو للأعيان الذين عاشوا في عصرهم.



- معاجم التراجم الموضوعية :
  - ـ تراجم الطبقات
  - ـ التراجم الألفبائية
- معاجم التراجم المكانية
- معاجم التراجم الزمنية
  - ـ تراجم القرون
  - ـ تراجم العصور

د ـ معاجم الأنساب والقبائل : يتخصص هذا النوع فى التعريف بالقبائل العربية وبطونها والأنساب العربية القديمة، فى ترتيب ألفباتى يسهل عملية الوصول إلى هذا النوع من المعلومات . وهذا النوع وإن كان لايترجم لأشخاص بعينهم، إلا أنه يترجم للقبائل والأنساب التى هى بمثابة الأصل الذى انحدر منه معظم الشخصيات العربية القديمة .

٤ ـ أمثلة من معاجم التراجم العربية [illegible] :

معاجم التراجم العامة :

ـ **وفيات الأعيان**، أحمد بن محمد بن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١هـ)

معجم شامل للتراجم الخاصة بالأعلام المسلمين منذ بداية التاريخ الإسلامى حتى عصر المؤلف . وقد استثنى المؤلف من الترجمة من كثرت ترجمته مثل الصحابة والتابعين والخلفاء ومن لم تثبت سنة وفاته .

وقد اكتسب الكتاب شهرة واسعة وذلك لشموله وحسن ترتيبه ومنهج مؤلفه فى إعداده والذى أوضحه المؤلف فى مقدمة الكتاب. وكانت شهرته كذلك سببا فى تأليف العديد من الكتب التى تعتبر ذيولا له.

تم طبع وفيات الأعيان عدة مرات. فقد طبع فى باريس على يد دى سلان بين سنتى ١٨٤٢ ــ ١٨٧١م، كما طبع فى كوتنجن بعناية المستشرق فستفلد بين سنتى ١٨٣٥ ــ ١٨٥٠م، وفى أماكن أخرى مثل طهران ١٢٨٤هـ، و بولاق ١٢٩٩هـ، وامستردام ١٨٤٥م. ولعل أفضل طبعاته هى التى صدرت عن دار الثقافة ببيروت بتحقيق الدكتور إحسان عباس سنة ١٩٧٠م.

ــ **فوات الوفيات**، محمد بن شاكر الكتبى (ــ٧٦٤هـ).

معجم عام للتراجم الإسلامية سار على نسق وفيات الأعيان، بل يعتبره مؤلفه ذيلا له. والكتاب صغير الحجم وقليل التراجم بالمقارنة مع سابقه أو معاصره الوافى بالوفيات للصفدى. كما أن قيمته تتضاءل لعدم إضافته تراجم ذات قيمة زيادة على كتاب ابن خلكان. وقد اختلف فى عدد التراجم التى ذكرها الكتبى، إلا أن العدد الموجود فى الطبعة الحديثة ستمائة ترجمة حتى سنة ٧٥٣هـ.

طبع الكتاب لأول مرة فى بولاق سنة ١٢٨٣هـ. كما طبع فى خمسة مجلدات بتحقيق الدكتور إحسان عباس وخصص المجلد الخامس للفهارس بدار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٣م.

ــ **الوافى بالوفيات**، صلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدى (٦٩٦ــ٧٦٤هـ).

يعتبر هذا الكتاب أكبر معاجم التراجم العامة القديمة على الإطلاق سواء من ناحية الحجم أوعدد الأشخاص الذين تمت الترجمة لهم. فقد جمع فيه الصفدى أكثر من أربعة عشر ألف ترجمة لكافة الأعلام خلال العصور الإسلامية وحتى عصره دون استثناء زمانى أو مكانى أو موضوعى.

المحاضرة السابعة

المراجع الجغرافية العربية

١- تطور المعاجم الجغرافية العربية

٢- تطور الخرائط العربية

مع الجغرافية العربية القديمة :

تعتبر الجغرافيا أحد العلوم التى ظهرت متأخرة خلال عصور الحضارة الإسلامية. فقد ظهر أول المصنفات الجغرافية العربية خلال القرن الثالث الهجرى. أما الفترة التى سبقت ذلك، فقد كان الفكر الجغرافى خلالها يتمثل فى معلومات متناثرة فى الكتب الأدبية واللغوية. وقد بدأ الفكر الجغرافى انطلاقته الحقيقية بالانتهاء من ترجمة مصنفات بطلميوس عند نهاية القرن الثالث الهجرى، وتبعها خلال القرن التالى ظهور ترجمات أخرى كانت الأساس لبداية التأليف العلمى فى ميدان العلوم الجغرافية، وبلغ التأليف الجغرافى قمة نهضته خلال القرن الرابع الهجرى الذى شهد تطور الجغرافيا الوصفية ممثلة فى كتب المسالك والممالك، ووصول صناعة الخرائط إلى أوج تقدمها [1]. ويمكن لنا تقسيم تاريخ الفكر الجغرافى العربى القديم إلى ثلاث مراحل هى [2] :

- المرحلة الأولى (٢٥٠ ــ ٣٢٥هـ)، تتميز بظهور وازدهار الجغرافيا ممثلة فى الكتب الموجزة التى يستخدمها كتاب الدواوين، وفى الكتب الموضوعة لعامة الناس.
- المرحلة الثانية (القرن الرابع ــ القرن السادس)، وقد شهدت ظهور الأنماط المبسطة للجغرافيا الأدبية، والتوسع فى مجال الرحلات والأسفار الاستكشافية، وما تبعها من ازدهار التأليف فى مجال كتب الرحلات والجغرافيا الوصفية.
- المرحلة الثالثة (القرن السادس وما بعده)، حيث أخذ النشاط العلمى الجغرافى ينطوى على نفسه، وتضاءلت عملية البحث العلمى وتطوير النظريات، وصار التركيز على زيادة وتجميع المادة الجغرافية وتنظيمها بشكل أفضل. وكان من نتيجة ذلك ظهور وتطور أنماط أخرى من الفكر الجغرافى مثل : المعاجم الجغرافية، الموسوعات التاريخية الجغرافية، وقصص الرحلات، والمصنفات الكوزموجرافية

---

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ص ٢٠ ــ ٢١.

(٢) عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دمشق : دار الفكر، ١٤٠٠، ص ص ٥٦ ــ ٧١.

(دراسة الحوادث الحاصلة على سطح الأرض وعرض النواميس التى تحكم المجموعة الشمسية).

ولقد ساعدت عدة عوامل على اهتمام المسلمين الأوائل بالمعرفة الجغرافية، والتى كانت من نتيجتها ازدهار العلوم الجغرافية. ومن أهم تلك العوامل :

- الدوافع الدينية، فبالإضافة إلى المفاهيم الدينية التى تدعو إلى العلم والتفكر فى آيات الله الكونية، كانت هناك ضرورة تحديد مواقيت الفروض الدينية مثل الصلاة والصوم والحج. وكان ذلك دافعا للاهتمام بالعلوم الفلكية. كما كانت العلوم الدينية والفروض الدينية وخاصة الحج سببا فى تنشيط حركة الرحلات بين أنحاء الدولة الإسلامية.
- الدوافع السياسية والإدارية، حيث كان لاتساع الدولة الإسلامية وظهور مهام إدارية ومالية وعسكرية، ووجود علاقات مختلفة بينها و بين دول العالم حينذاك، أثر فى ازدياد الحاجة إلى المعلومات الجغرافية عن المعالم الطبيعية والبشرية، وطرق المواصلات داخل أراضى الدولة الإسلامية وخارجها.
- الدوافع العلمية والتجارية وحب الرحلة والاكتشاف لدى كثير من المؤلفين والعلماء.

ولقد أسدى الجغرافيون المسلمون خدمة جليلة للمعرفة الإنسانية، حين بعثوا التراث والنظريات الجغرافية لدى الأمم السابقة لهم وحفظوها.

كما أضاف المسلمون الأقدمون تراثا جغرافيا ضخما يعتبر سجلا فريدا لجغرافية العالم خلال تلك الفترة. إلا أن ما يؤخذ على أولئك هو ضعفهم فى مجال تطوير النظريات العلمية، وخضوعهم بشكل شبه كامل للنظريات الجغرافية الإغريقية، رغم تعارض بعضها مع الحقائق الجغرافية التى توصلوا إليها خلال رحلاتهم [1].

---

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ٢٢.

وبرغم ذلك فقد تميز الجغرافيون المسلمون بالتحليل العلمى للظواهر الجغرافية واستنباط العوامل والمسببات، والاهتمام بالخرائط. والكتابة فى العديد من العلوم الجغرافية ومنها :

- الجغرافيا الفلكية والرياضية.
- الجغرافيا الوصفية.
- جغرافية الرحلات.
- المعاجم الجغرافية.
- الخرائط.

وحيث إن النوعين الأخيرين هما اللذان يدخلان ضمن المراجع الجغرافية فسوف نركز حديثنا خلال الجزء التالى عن تطورهما وجهود الجغرافيين المسلمين فى ميدانيهما منذ بداية التاريخ الإسلامى حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى.

١ ــ تطور المعاجم الجغرافية العربية القديمة :

اتجه العلماء والمؤلفون المسلمون إلى الكتابة عن الأماكن منذ القرون الأولى للهجرة. وكانت الكتابة حول الأماكن فى البداية جزءا من مؤلفات العلوم الأخرى وبخاصة اللغة والأدب. ثم أصبحت بعد ذلك أحد الموضوعات الهامة للكتب والمؤلفات الجغرافية وبخاصة كتب الجغرافيا الوصفية والإقليمية والرحلات. إلا أن تناول تلك الكتب للأماكن كان يتم وفقا لورود أسماء تلك الأمكنة ومدى علاقتها بالموضوعات والأحداث، موضوع البحث.

وقد أدى تطور الحركة المعجمية وظهور التخصص الجغرافى بشكل واضح، ابتداء من القرن الخامس الهجرى، إلى وجود مؤلفات تتخصص فى جمع وتعريف وتحديد مواقع الأماكن وفقا لمنهج ونظام المعاجم اللغوية. ونستطيع من خلال استعراض تاريخ

الدراسات العربية حول الأماكن أن نحدد أربعة أنواع من المصادر العربية التى اهتمت بدراسة الأماكن الجغرافية وهى :

- الكتب اللغوية التى اتجهت إلى تدوين أسماء الأماكن وتحديد مواقعها وكيفية نطقها، وذلك انطلاقا من أهدافها فى حماية اللغة العربية ومفرداتها من التصحيف والعجمة التى انتشرت آنذاك بسبب اختلاط العرب بسكان البلاد المفتوحة.
- المصادر التاريخية، التى توجهت إلى دراسة الأماكن، وذلك كجزء من دراسة الأحداث التاريخية.
- الكتب والمؤلفات الجغرافية، التى قامت بوصف وتعريف وتحديد مواقع الأماكن، وذلك من خلال اهتمامها بوصف ودراسة الظواهر الجغرافية.
- المعاجم الجغرافية، وهى الكتب التى تتوجه إلى جمع أسماء الأماكن والمواضع ووصفها وتعريفها وتحديد مواقعها بشكل مختصر، ووفقا لترتيب معين.

وإذا كانت المؤلفات الجغرافية الأخرى قد تأخر ظهورها إلى القرن الثالث الهجرى، فإن المعاجم الجغرافية قد تأخر ظهورها أيضا، حيث يرجع أقدم معجم جغرافى معروف إلى القرن الخامس الهجرى. ولعل السبب فى ذلك يعود إلى كون المعاجم الجغرافية نوعا جديدا من التأليف الجغرافى لم يكن معروفا من قبل. فهو من إبداع وابتكار المؤلفين المسلمين، وإحدى النتائج الباهرة لتطور الحركة المعجمية اللغوية، التى كان من أثرها تنوع التأليف المعجمى ليشمل بالإضافة إلى مفردات اللغة أسماء الأشخاص (معاجم التراجم) وأسماء البلدان (المعاجم الجغرافية).

وبناء على ما سبق يمكن لنا تقسيم تاريخ المعاجم الجغرافية العربية القديمة إلى مرحلتين هما :

ـ المرحلة الأولى :

وتشمل الفترة الزمنية التى سبقت ظهور أول معجم جغرافى عربى فى القرن

الخامس الهجرى . ولعل أهم ما يميز هذه المرحلة ظهور الكتابات اللغوية والأدبية التى تعتبر الأصل الأول لدراسة الأماكن والمواقع الجغرافية عند العرب . فقد اتجه علماء اللغة والأدب منذ نهاية القرن الثانى الهجرى إلى الرحلة فى البوادى وذلك لجمع مفردات اللغة وتدوينها واستنباط القواعد التى تضمن المحافظة عليها من التصحيف والعجمة . وكان من نتيجة ذلك ظهور عدد ضخم من الكتب والرسائل الخاصة بموضوع واحد ، أو التى تجمع بين دفتيها أكثر من موضوع . ومن الموضوعات التى تخصص فى دراستها أولئك اللغويون والأدباء أسماء الأماكن والمواضع . فقد عنوا بتحديد مواقع البلدان والبقاع التى وردت فى الحديث النبوى والسيرة النبوية وأشعار الجاهليين والإسلاميين . ولكن سرعان ما دخل فى هذا الميدان علماء لا يمتون للغويين بصلة . تخصصوا فى العناية بالبلدان والأمكنة وتحديدها ، واستفادوا من المؤلفات الجغرافية للأمم السابقة .

ومن أهم من ألف عن الأماكن من اللغويين ، خلف الأحمر (ـ ١٨٠هـ) وله كتاب «جبال العرب وما قيل فيها من الشعر» ، وأبو الوزير عمر بن مطرف (ـ ١٨٦هـ) وله كتاب «منازل العرب وحدودها ...» وهشام بن محمد الكلبى (ـ ٢٠٤هـ) وله كتب «البلدان الصغير» و «البلدان الكبير» و «قسمة الأرضين» و «الأنهار» و «منازل اليمن» و «أسواق العرب» و «الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العبادين» و «اشتقاق البلدان» ، وأبو عبيد (ـ ٢٠٨هـ) وله كتاب «الحرات» ، والأصمعى (ـ ٢١٦هـ) وله كتب «مياه العرب» و «جزيرة العرب» ، «الدارات» ، وأبو عثمان سعد بن المبارك (ـ ٢٢٠هـ) وله كتاب «الأرضين والمياه والجبال والبحار» ، وأبو الحسن بن محبوب السرأد (ـ ٢٢٤هـ) وله كتابا «الأرضين» و «البلدان» ، والجاحظ (ـ ٢٥٥هـ) وله كتاب «البلدان» ، وشمر بن حمدويه الهروى (ـ ٢٥٥هـ) وله كتاب «الجبال والأودية» ، وأبو عبدالله أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل (ـ ٢٥٥هـ) وله كتاب «أسماء الجبال والمياه والأودية» ، ومحمد بن إدريس بن أبى

حفصة وله كتابا «مناهل العرب» و «اليمامة» ، وأحمد بن محمد البرقى (ـ ٢٧٤هـ) وله كتاب «البلدان» ، وأبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى (ـ ٢٧٥هـ) وله كتاب «المناهل والقرى» ، وعرام بن الأصبغ السلمى (ـ ٢٧٥هـ) وله كتاب «أسماء جبال تهامة ، وأبو حنيفة أحمد بن داوود الدينورى (ـ ٢٨٢هـ) وله كتاب «البلدان» ، والحسين بن محمد الرافقى الخالع (ـ ٣٨٨هـ) وله كتاب «الأودية والجبال والرمال» ، وأحمد بن فارس الرازى (ـ ٣٩٥هـ) وله كتاب «دارات العرب» ، وأبو محمد الحسن ابن أحمد الأسود الأعرابى الغندجانى (القرن الخامس) وله كتابا «أسماء الأماكن» و «مياه العرب» [١].

ونستطيع من خلال دراسة كتب الأمكنة اللغوية خلال هذه المرحلة أن نخرج بعدة ملاحظات منها :

ـ أنه رغم كثرة تلك الكتب والرسائل ، فإنه لم يصلنا منها إلا القليل مما يجعل الحكم على مناهجها وطرق الكشف عن معلوماتها ، وما أسهمت به فى مجال تطور المعاجم الجغرافية ، أمرا فى غاية الصعوبة .

ـ تتجه جميع تلك الكتب إلى تحقيق هدف لغوى محدد وهو تدوين ألفاظ اللغة وكل ما تفترق به عن الكتب اللغوية الأخرى هو تخصصها فى جمع أسماء الأماكن. ولذلك يظهر تركيز مؤلفيها على العناية بأسماء الأمكنة أكثر من العناية بالمعلومات عن تلك الأمكنة . كما تجنح عادة إلى الاستطراد فى ذكر الشواهد اللغوية من النثر والشعر والأحاديث النبوية والأقوال العربية المأثورة . و يورد البعض من خلال ذلك الاستطراد معلومات جغرافية عن تلك الأمكنة والبقاع .

ـ أن معظم تلك الكتب إنطلاقاً من أهدافها اللغوية ، تركز على الأماكن الواقعة فى جزيرة العرب . وقد شهدت القرون التالية خروج مؤلفيها من هذا الإطار وتعريفهم لبعض الأماكن فى أجزاء أخرى من الدولة الإسلامية أو خارجها .

---

(١) حسين نصار، المعجم العربى : نشأته وتطوره، القاهرة : دار مصر للطباعة، ١٩٦٨م، ص ص ١٤٨ ـ ١٦٠.

- أن مؤلفى الرسائل والكتب اللغوية حول الأمكنة، اتبعوا تقسيم كتبهم إلى موضوعات فرعية. ولا يوجد دليل على اتباع أى منهم للترتيب الألفبائى.
- أن الكتب والرسائل اللغوية عن الأماكن كثرت فى القرن الثالث الهجرى، و بدأت تقل خلال القرون التالية.

ـ المرحلة الثانية :

ونعنى بها الفترة التى أعقبت ظهور أول معجم جغرافى عربى فى القرن الخامس وحتى نهاية القرن الثانى عشر للهجرة. و يرجح الباحثون أن «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» لأ بى عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكرى (ــ٤٨٧هـ) هو أول معجم جغرافى عربى. فقد ظهر قبل هذا المعجم كتب كثيرة فى مجال تحديد وتعريف الأماكن ولكن ما وصلنا منها كان يعوزه التنظيم المرجعى للمواد وفقا لنظام معين. أما معجم البكرى فبرغم توجهه اللغوى، فقد اختط منهجا جديدا سواء بكونه الأ ول فى هذا النوع الجديد من الأدب الجغرافى، أو باستخدامه لأ ول مرة النظام الألفبائى فى ترتيب مواده، وهو ما أسهم فى تيسير النظام المعجمى [1] . كما يعتبر معجم البكرى نقطة تحول فى تاريخ تطور هذا النوع من المؤلفات التى بدأت على شكل كتب ورسائل لغوية، وانتهت بظهور نوع جديد من التأليف الجغرافى يتخصص فى تحديد وتعريف الأمكنة وفقا لأسس مرجعية.

وقد ظهر بعد معجم البكرى العديد من المعاجم الجغرافية المشابهة له فى منهجه وفى اتباع الترتيب الألفبائى، والاعتماد على كتب الأمكنة القديمة كمصدر للمعلومات، والتركيز على الأمكنة الواردة فى الحديث والسيرة والنثر والشعر. ومن أهم تلك المعاجم :

---

(١) عبدالله يوسف الغنيم، مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى، الكويت : ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٣هـ، ص ص ٦٧ ــ ٦٨.

«الجبال والأمكنة والمياه» لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (ـ ٥٣٨هـ)، و«المواضع والبلدان» لأبى الحسن على بن محمد العمرانى الخوارزمى (ـ ٥٦٠هـ)، و«أسماء البلدان والأمكنة والجبال والمياه» لأبى الفتح نصر بن عبدالرحمن الفزارى الإسكندرى (ـ ٥٦٠هـ).

وبلغت المعاجم الجغرافية العربية القديمة أوجها فى كتاب «معجم البلدان» لأبى عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى (ـ ٦٢٦هـ)، الذى يعتبر أوسع وأهم وأفضل المصنفات العربية القديمة فى مجاله. فهو يجمع شتات المعرفة الجغرافية فى جميع أنواع الجغرافيا الفلكية منها والوصفية واللغوية والرحلات، التى تراكمت خلال القرون السابقة له، ويتأثر فى الوقت نفسه بالجغرافيين فى إضفاء الطابع الجغرافى وذكر بعض الظواهر الجغرافية مثل تحديد الموقع وخطوط الطول والعرض، وبعض المعلومات الفلكية. كما يجنح إلى الاستطراد وذلك بذكر بعض المعلومات التاريخية والمأثورات الشعبية والقصص والأخبار [1].

ويتميز المعجم أيضا بتنوع وغزارة المصادر التى استقى منها المؤلف مادته. فقد اعتمد فى جمع معلوماته على كتب الأمكنة اللغوية، والمعاجم الجغرافية السابقة له. وكتب الجغرافيا العربية واليونانية، وكتب التاريخ والأدب، وما جمعه المؤلف من المعلومات خلال رحلاته العديدة. وللمؤلف معجم جغرافى آخر هو كتاب «المشترك وضعا والمفترق صقعا» وقد اختصره من معجمه الكبير وأراد له أن يكون خاصا بأسماء المواضع التى تشترك فى الاسم. ونظرا لتأليفه بعد المعجم السابق فقد أضاف إليه بعض التفاصيل الأخرى.

وقد أعقب معجم ياقوت ظهور، بعض المعاجم الأخرى، التى تتميز بحسن الترتيب. ويمكن اعتبارها آخر المعاجم التى ظهرت فى سلسلة الإنتاج العربى فى ميدان

---

(١) حسين نصار، المعجم العربى : نشأته وتطوره، ص ١٦٨.

المعاجم الجغرافية القديمة. إلا أنها لا تقارن بمعجم ياقوت الذى يفوقها فى ضخامة الحجم وغزارة المعلومات وشمولية المجال الجغرافى. ومن أهم تلك المعاجم كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد» لمؤلفه زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ــ ٦٨٢)، وكتابا «المغانم المطابة فى معالم طابة» و «المتفق وضعا والمختلف صقعا» لأبى طاهر مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزبادى الشيرازى (ــ ٨١٧هـ)، وكتابا «الروض المعطار فى خبر الأقطار» و «صفة جزيرة الأندلس»، لأبى عبدالله محمد بن عبدالمنعم الصنهاجى الحميرى (ــ ٨٢٧هـ)، و «التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية» ليحيى بن شاكر ابن الجيعان (ــ ٨٨٥هـ).

ومن خلال ما سبق يتضح أن المعاجم الجغرافية خلال المرحلة الثانية ــ خاصة معاجم ياقوت ومن تلاه من المؤلفين ــ تتميز بعدة خصائص من أهمها:

- خروج معظم المؤلفين من الهدف اللغوى الضيق إلى خدمة أهداف أكثر شمولية. وهذا يعود إلى إدراك أولئك المؤلفين لأهمية المعاجم الجغرافية وإمكانية استخدامها من قبل كافة المتخصصين فى العلوم المختلفة وعامة الناس.
- تنوع المعلومات، حيث كان الهدف اللغوى فى كتب الأمكنة يدفع المؤلفين إلى التركيز على أسماء الأماكن وكيفية نطقها وذكر الشواهد التى تثبت ذلك. أما معاجم هذه المرحلة، فقد تنوعت معلوماتها بحيث شملت بالإضافة إلى المعلومات اللغوية، المعلومات الجغرافية التاريخية والأدبية و بعض القصص والأخبار.
- اعتماد مؤلفى المعاجم الجغرافية خلال هذه المرحلة على مصادر عديدة فى جمع معلوماتهم، تتميز بالكثرة عددا والتنوع موضوعا. فبالإضافة إلى كتب الأمكنة السابقة، اعتمد أولئك على الكتب الجغرافية المختلفة وكتب التاريخ والأدب والرحلات.
- تميز المعاجم الجغرافية خلال هذه المرحلة بالتنظيم الجيد. فقد اتبع جميع المؤلفين الترتيب الألفبائى فى تنظيم مواد معاجمهم. وقد بدأ ذلك البكرى بالتزام الحرفين

الأولين، وتبعه الزمخشرى بالتزام حرف واحد وكانت ذروة التقدم فى هذا المجال على يد ياقوت الحموى الذى التزم بجميع حروف الكلمة فى الترتيب.

ومن أهم المعاجم الجغرافية العربية القديمة:

● **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكرى (ـ ٤٨٧هـ).

أول معجم جغرافى باللغة العربية. وقد كان هدف مؤلفه فى الأصل لغويا. وتكمن أهميته فى كونه أول معجم للأمكنة يتبع الترتيب الألفباتى. وقد صدّر البكرى معجمه بمقدمة طويلة، أوضح فيها أقسام بلاد العرب القديمة وتفرق القبائل ورحلاتها. ويتألف المعجم من سبعمائة وأربعة وثمانين بابا، تحتوى على (٣٥٩٠) مادة، ذكر من خلالها ما يقارب (٥٢٠٠) موضع[1]. معظمها فى الجزيرة العربية، مع وجود (٤٤٢) موضعا خارجها[2]. وقد رتب المؤلف معجمه ألفباتيا حسب ترتيب حروف الهجاء عند المغاربة وفقا للحرفين الأول والثانى الأصليين من الكلمة.

نشر المعجم لأول مرة على يد المستشرق الألمانى وستنفلد، فى مجلدين بجوتنجن بألمانيا فيما بين سنتى ١٨٧٠ ـ ١٨٧٧م. كما نشره فى القاهرة الأستاذ مصطفى السقا، مع إعادة ترتيب مواده حسب ترتيب حروف الهجاء عند المشارقة ومراعاة كافة حروف الكلمة، وذلك فى أربعة مجلدات فيما بين سنتى ١٩٤٥ ـ ١٩٥١م.

● **الجبال والأمكنة والمياه**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (ـ ٥٣٨هـ).

معجم مشابه لمعجم البكرى فى اعتماده على كتب الأمكنة القديمة وفى اتباع الترتيب الألفباتى. وإن اكتفى المؤلف بالحرف الأول فقط، إلا أنه يختلف عن سابقه بتركيزه على ضبط الأعلام الجغرافية الواردة فى القرآن الكريم والحديث والسيرة النبوية، وذلك

(١) عبدالله يوسف الغنيم، مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى، ص ١٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢.

انطلاقا من اهتمام المؤلف بالتفسير. كما يتميز المعجم بالاهتمام بمعالم الحجاز بوجه خاص، مع ذكر بعض المواضع فى بلاد الإسلام الأخرى مثل مصر والشام و بلاد ما وراء النهر[1] .

نشر المعجم لأ ول مرة فى ليدن سنة ١٨٥٦م بتحقيق سلفردادى جريف. كما طبع فى المطبعة الحيدرية فى النجف سنة ١٩٦٢م، وفى مطبعة السعدون ببغداد ١٩٦٨م بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى.

ه **أسماء البلدان والأمكنة والجبال والمياه**، أبو الفتح نصر بن عبدالرحمن الفزارى الإسكندرى (ـــ ٥٦٠هـ).

أحد المعاجم الجغرافية الهامة التى أعجب بها ياقوت الحموى واعتمد عليها فى إعداده لمعجمه وتوجد مخطوطة للمعجم فى المتحف البريطانى. و يضم المعجم حسب ما يذكره كراتشكوفسكى عن وستنفلد ألفين وتسعمائة وثمانية وثلاثين موضعا[2] . كما كان المعجم مصدر اهتمام آخرين مثل أبى موسى محمد بن عمر المدينى الأصفهانى (ـــ ٥٨١هـ)، الذى اختصره فى كتاب سماه «ما اختلف وائتلف من أسماء البقاع»، وأبو بكر محمد بن موسى الحازمى الهمذانى (ـــ ٥٨٤هـ)، الذى اتخذه أساساً لكتابه المسمى «ما اتفق لفظه واختلف مسماه من الأمكنة... أو المؤتلف والمختلف فى أسماء البلدان»[3] .

ه **معجم البلدان**، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى (ـــ ٦٢٦هـ).

أعظم المعاجم العربية التى ظهرت خلال عصر الحضارة الإسلامية على الإطلاق. حيث يمتاز بدقته واتساعه وغزارة وتنوع معلوماته وحسن ترتيبه. و يتألف من مقدمة

---

(١) اغناطيوس بوليانفتش كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ص ٣١٧ـــ٣١٨.

(٢) اغناطيوس بوليانفتش كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ٣٢٣.

(٣) حسين نصار، المعجم العربى : نشأته وتطوره، ص ص ١٦٥ـــ١٦٦.

شاملة عن جغرافية العالم فى خمسة أبواب، ثم قسم المؤلف باقى أجزاء المعجم إلى ثمانية وعشرين كتابا بعدد حروف الهجاء، وقسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين بابا للحرف الأول والثانى. والتزم المؤلف فى الترتيب النظام الألفباتى وفقا للحرف الأول وحتى الرابع.

طبع لأول مرة فى ليبزيج بعناية المستشرق فرديناند وستنفلد فى ستة مجلدات فيما بين سنتى ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣م. وطبع فى القاهرة مع المستدرك عليه فى (١٠) أجزاء فى (٥) مجلدات على يد محمد أمين الخانجى فيما بين سنتى ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧م. وطبعته فى بيروت دار صادر فيما بين سنتى ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧م.

• **المشترك وضعا والمفترق صقعا**، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى (ـ ٦٢٦هـ).

تم اختصاره من المعجم السابق ليكون متخصصا فى التعريف بالأسماء المتشابهة وقد رتبت محتوياته ألفباتيا، مع وجود فهارس شاملة وضعها المحقق عن الأسماء الجغرافية والقبائل والشعراء.

طبع لأول مرة بتحقيق فرديناند وستنفلد فى ليدن سنة ١٨٤٦م.

• **آثار البلاد وأخبار العباد**، زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ـ ٦٨٢هـ).

أحد المعاجم الجغرافية الهامة التى ظهرت بعد معجم ياقوت. ويعتبر الكتاب معجما جغرافيا وأحد كتب الجغرافيا الإقليمية فى وقت واحد. وقد بدأ المؤلف كتابه بثلاث مقدمات قصار عن أسباب الحاجة إلى إحداث المدن والقرى، وخواص الأقاليم، وأقاليم الأرض. وقسم الكتاب بعد ذلك إلى سبعة أقسام رئيسية يختص كل منها بأحد الأقاليم السبعة. وبدأ كل قسم بتعريف مختصر لموقع وحدود الإقليم، ثم سرد أسماء الأقاليم والمواضع والأمكنة الموجودة فيه بترتيب ألفباتى.

صدر عن دار صادر بيروت عام ١٩٦٠م.

• مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفى الدين عبدالمؤمن عبدالحق البغدادى (ـ٧٣٩هـ).

معجم أراد به مؤلفه أن يكون مختصراً لمعجم البلدان لياقوت. ولذلك قام بتصفية معجم ياقوت من الزوائد والحشو والاستطرادات، واستدراك ما فاته، أو وقع فيه من الأخطاء.

طبع أولا فى ليدن بتحقيق بينول فى ستة أجزاء فيما بين سنتى ١٨٥٢ ـ ١٨٦٤م. وطبع فى إيران سنة ١٣١٥هـ. وطبع فى القاهرة فى ثلاثة اجزاء بتحقيق على محمد البجاوى سنة ١٩٥٤م.

• الروض المعطار فى خبر الأقطار، أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم الصنهاجى الحميرى (ـ٨٢٧هـ)

معجم جغرافى يركز على تعريف الأمكنة المشهورة، أو التى تتصل بقصة أو خبر طريف. ويجنح المؤلف إلى الإيجاز وسرد المعلومات التى نقلها من مصادر أخرى بصورتها الأصلية. وقد اعتمد فى معلوماته على كتب الجغرافيين المسلمين وكتب الرحلات والكتب التاريخية. و يتميز المعجم بعدة خصائص منها، اهتمامه بالمواضع فى بلاد المغرب والأندلس، وعدم اقتصاره على المدن والأقطار وتناوله للبحار والمحيطات، وإهماله لذكر المراجع التى استقى منها معلوماته فى كثير من المواضع، واشتماله على كثير من الشواهد والمواد العلمية المختلفة [1].

اتبع المؤلف فى ترتيب الكتاب النظام الألفبائى حسب ترتيب حروف الهجاء عند المشارقة.

نشر القسم المتعلق بالأندلس أولاً على يد المستشرق ليفى بروفنسال، ثم نشر الكتاب بتحقيق الدكتور إحسان عباس مع فهارس شاملة سنة ١٩٧٥م.

---

(١) محمد محمود محمدين، التراث الجغرافى الإسلامى، ص ص ١٨١ ـ ١٨٣.

٢ ــ تطور الخرائط العربية القديمة :

يرتبط تطور الخرائط العربية القديمة بالتطور الذى حصل للعلوم الجغرافية خلال تلك العصور. و يتمثل التراث الخرائطى العربى القديم فى المئات من الخرائط والأشكال والصور التى تضمها المؤلفات الجغرافية المختلفة. ولقد تعرضت الخرائط العربية القديمة ــ مثلها فى ذلك مثل أنواع التراث الأخرى ــ إلى العديد من عوامل الضياع والتدمير والتحريف مثل الحروب والكوارث، ورسم البعض منها بشكل منفصل عن الكتب، وفقدان الدقة والأمانة العلمية لدى بعض النساخ مما عرضها للتصحيف والتحريف، وأخيرا بقاء العديد من الخرائط مخطوطا فى مكتبات العالم المختلفة [١] . وتبعا لذلك فإن الحكم على حجم التراث الخرائطى العربى القديم ومدى إسهام المسلمين الأوائل فى تقدم الخرائط، يعتبر أمرا بعيد المنال.

و يعود اهتمام المسلمين الأوائل بالخرائط إلى العديد من العوامل ومن أهمها [٢] :

- اتساع نطاق الدولة الإسلامية وما نشأ عن ذلك من وجود مهام إدارية ومالية وعسكرية، وكان للخرائط أثر كبير فى تسهيل أداء تلك المهمات بشكل أفضل.
- نقل وترجمة التراث الخرائطى للأمم السابقة وخاصة الإغريق. وتعتبر خرائط اليونان و بخاصة خرائط بطلميوس الأساس الأول الذى بدأت منه مسيرة تقدم الخرائط العربية القديمة.
- المؤلفات الإسلامية فى كافة أنواع الجغرافيا و بخاصة الفلكية منها والوصفية والرحلات. وتضم تلك المؤلفات معظم التراث الخرائطى العربى. كما كان

---

(١) فلاح شاكر أسود «دور العرب والمسلمين فى رسم الخرائط» فى بحوث المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ ص ص ١٨٤ ــ ١٨٦.

(٢) عبدالعال عبدالمنعم الشامى، جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط، الكويت : جامعة الكويت، ١٤٠٢هـ، ص ص ٧ ــ ١٣.

ومن أهم الخرائطيين المسلمين محمد بن موسى الخوارزمي (ـ ٢٣٢ هـ) فقد تضمن كتابه المسمى «صورة الأرض» عدة خرائط تسير جميعها وفقا لجغرافية بطلميوس وخرائطه، مع وجود بعض أوجه الاختلاف بينهما. ومن الذين ساروا على نفس منهج بطلميوس كذلك، محمد بن جابر بن سنان البتاني (ـ٣١٧هـ)، الذى ترك لنا أول خريطة للعالم بعد خريطة بطلميوس.

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، بدأ الاتجاه المستقل للخرائط الإسلامية، والذى يتميز بعدم التأثر بالخرائط الإغريقية، والاتجاه نحو أسلوب جديد فى رسم الخرائط. وقد سار فى هذا الاتجاه مجموعة من مؤلفى كتب الجغرافيا الإقليمية بالوصفية. و يعتبر أبو زيد أحمد بن سهل البلخى (ـ ٣٢٢هـ) رائد هذا الاتجاه، حيث احتوى كتابه «المسالك والممالك» على بعض الأشكال وصور الأقاليم. ومنهم أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى، الذى كان أول من اتبع طريق البلخى. و يفهم من مقدمة كتابه «المسالك والممالك» أنه رسم إحدى وعشرين خريطة أولها خريطة للعالم توضح الأقاليم بصورة مصغرة، والعشرون خريطة الأخرى عشرين إقليما من بلاد الإسلام. كما يحتوى كتابه بعض الخرائط المنسوبة إلى البلخى. أما أبو القاسم محمد بن حوقل (ـ٣٦٦هـ)، فقد تأثر بالاصطخرى بشكل واضح والتقى به واستفاد من خرائطه، وأقام كتابه «المسالك والممالك» على أساس واسع من المعرفة بالمواضع والظواهر الجغرافية. و يبلغ عدد خرائط ابن حوقل اثنتين وعشرين خريطة وصلت إلينا كاملة. و يسير شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى المقدسى (ـ ٣٩٠هـ) فى نفس الاتجاه الإقليمى. إلا أنه يختلف عن سابقيه فى تحديد عدد الأقاليم و يوضح الأسس التى يعتمد عليها فى ذلك. فهو فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» يقسم البلاد الإسلامية إلى أربعة عشر إقليما ومفازتين. وقد بلغ عدد خرائطه ثمانى عشرة خريطة منها أربع عشرة خريطة للأقاليم

الإسلامية، واثنتان للمفازتين واثنتان للبحار. و يتميز المقدسى باطلاعه على خرائط من سبقه واستفادته منها وتأكده من صحة البيانات التى يعتمد عليها.

وقد جمع المستشرق ميلر الخرائط التى أعدها هؤلاء المؤلفون فى أطلس واحد أسماه «أطلس الإسلام». وقد بلغ عدد الخرائط التى جمعها (٢٧٥) خريطة. ومن أهم الخصائص التى تتميز بها هذه الخرائط [١]:

- أنها رسمت بأشكال هندسية مثل الدوائر وأنصاف الدوائر والخطوط المستقيمة.
- أن العالم فيها رسم على شكل قرص يحيط به الماء، مع خليجين يدخلان من ناحية الشرق.
- أن القسم الشرقى من البلاد الإسلامية حظى بعناية أكثر من المغرب والأندلس.
- أن هذه الخرائط خلت من المعلومات الفلكية مثل قياس المسافات وتحديد خطوط الطول والعرض.

ويمثل أبو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحسينى المعروف بالإدريسى (ـــ ٥٦٤هـ) الحلقة الأخيرة من تطور الخرائط العربية القديمة. وتتميز الخرائط التى أعدها بالاهتمام بالعالم المعروف آنذاك وليس بالبلاد الإسلامية فحسب كما هو شأن أكثر من سبقه. كما كان ذا عناية بالمعلومات الفلكية والالتزام بمقياس الرسم وتحديد الاتجاهات. ولذلك فهو يعتبر امتدادا لمنهج الجغرافيين الأوائل المتأثرين بخرائط وجغرافية بطلميوس. و يتمثل تراث الإدريسى الخرائطى فى كتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، الذى أرفق به خريطة للعالم رسمت على سبعين قطعة، وخارطة صغيرة أخرى. وللإدريسى كذلك كتاب آخر هو «جنان الإنسان وعجائب النفس» مع خارطة، وهو مختصر لكتابه المسمى «جنان النعيم» مع أطلس مؤلف من ثلاث وسبعين خريطة. كما اقترن اسم الإدريسى بالكرة الأرضية التى وضعها ورسم عليها

---

(١) فلاح شاكر أسود. «دور العرب المسلمين فى رسم الخرائط» ص ص ٢١١ ـــ ٢١٢.

خريطة العالم، وقد جمع ميلر من خرائط الإدريسي سبعين خريطة واحدة منها للعالم[1] ...

وقد جاء بعد الإدريسي العديد من المؤلفين ممن يحوى إنتاجهم العلمي بعضاً من الخرائط والمصورات مثل ابن سعيد المغربي (ـ ٦٨٥هـ)، وشمس الدين الدمشقي (ـ ٧٢٧هـ)، وابن فضل الله العمري (ـ ٧٤٩هـ)، وسراج الدين بن الوردي (ـ ٨٦١هـ)، وزكريا القزويني (ـ ٨٦٢هـ) باضافة إلى أن معظم إنتاجهم الخرائطي قد فقد، فإن خرائطهم تعتبر بشكل عام تقليداً لخرائط الإدريسي ومنهجه في رسم الخرائط.

ومن خلال الاستعراض السابق لتطور الخرائط العربية القديمة، يمكن أن نخرج بالعديد من الخصائص التي تتميز بها تلك الخرائط ومنها [2]:

- وضع الجنوب في أعلى الخريطة.
- استخدام الألوان في بعض الخرائط مثل خرائط الخوارزمي والمقدسي والإدريسي.
- تعدد أنواعها كالخرائط العسكرية والخرائط التجارية، والخرائط الدينية، التي توضح اتجاه القبلة أو طرق الحج، والخرائط البحرية.
- عدم مراعاة مقياس الرسم في بعضها مثل خرائط أطلس الإسلام، واتباع مقياس رسم غير ثابت من قبل صناع الخرائط الآخرين.

أما أنواع الخرائط العربية القديمة فيمكن، لنا بعد استعراض تاريخ الخرائط العربية القديمة والأغراض التي صنعت تلك الخرائط من أجلها، أن نصنف تلك الخرائط وفقا للعناصر التالية:

أ ـ المساحة التي تمثلها: ويمكن تقسيمها وفقا لهذا العنصر إلى ثلاثة أنواع:

- الخرائط العالمية، وهي التي تصور العالم كما عرف حينذاك.

---

(١) نفس المرجع السابق ص ص ٢١٣ ـ ٢١٦.

٢) محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، ص ص ٢٠٩ ـ ٢١٢.

ـــ خرائط العالم الإسلامى، وهى التى تصور أجزاء البلاد الإسلامية وأقاليمها المختلفة.

ـــ الخرائط الإقليمية أو المحلية، وهى التى تصور إقليما واحدا أو مدينة إسلامية معينة.

ب ـــ الهدف الذى رسمت من أجله، و يتم تقسيمها وفقا لهذا العنصر إلى قسمين :

ـــ الخرائط العامة، وهى التى تتوجه إلى إبراز الملامح الجغرافية العامة.

ـــ الخرائط المتخصصة، وهى التى تتوجه إلى إبراز العناصر المتعلقة بالهدف الذى صنعت من أجله مثل الخرائط التجارية أو البحرية أو الدينية.

٣ ـ البليوجرافيات الفرق والمذاهب.

٤ ـ ببليوجرافيات المؤلفين.

٥ ـ برامج الشيوخ.

٦ ـ فهارس المخطوطات.

٧ ـ الكشافات.

هذه هى الأنواع الرئيسية للمراجع الببليوجرافية للتراث العربى الاسلامى. أما عن كيفية تناول هذه الأنواع السبع فسيكون من خلال عرض نقدى يتم من خلاله تحديد الموقع الوظيفى لكل مرجع وكيفية استخدامه.

أولا : الببليوجرافيات العامة الشاملة :

ويقصد بها تلك الببليوجرافيات التى تهتم بحصر ووصف الانتاج الفكرى بصفة عامة دون التقيد ببعد زمانى أو مكانى أو موضوعى وانما تستوعب كل المؤلفات فى كل علم وفى كل عصر وفى كل بيئة من البيئات ويمثل هذا الاتجاه من الببليوجرافيات التراثية كتابى الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجى خليفة.

١ ـ كتاب الفهرست لابن النديم:

المؤلف هو محمد بن إسحق بن يعقوب بن النديم المكنى بأبى الفرج، كان وراقاً ينسخ الكتب ويبيعها فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى وكان شيعياً معتزلياً وتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى، قيل فى سنة ٣٨٥هـ(٣) وقيل بعد ذلك(٤). هذا كل ما وصلنا عنه من اخبار أما تاريخ مولده(٥) ومكان نشأته وارتحاله وثقافته وشيوخه... إلخ فلا نعلم عنها شيئا. والشىء الغريب حقاً أن كتب التراجم والطبقات التى فصلت فى تراجم القرن الرابع الهجرى قد أهملته ولم تورد له ذكراً رغم استيعابها لتراجم البغداديين استيعابا شديداً(٦) وأكثر من هذا أن ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان» ينقل عن كتاب «الفهرست» فى مواضع

غير قليلة مما يؤكد أنه سمع واطلع على كتابه ومع ذلك فهو يهمله ولا يذكر شيئاً عنه في وفياته.

والكتاب الذى ذكر ترجمة لابن النديم هو «معجم الأدباء» لياقوت الحموى الذى ذكر ترجمة مختصرة على غير عادته فى التراجم مما يجعلنا نشك فى أنها من صنع ياقوت وإنما «أضيفت مؤخراً إلى الكتاب» كما يقول الأستاذ أحمد أمين ـ طيّب الله ثراه ـ فى تقديمه لكتاب الفهرست[٧]، كما نجد أيضاً معلومات قليلة عنه فى لسان الميزان لابن حجر العسقلانى[٨] وتاريخ الإسلام للذهبى[٩] والأعلام للذركلى[١٠] ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة[١١].

ويرى الدكتور الحلوجى أن تشيع ابن النديم قد يكون هو السبب فى تغاضى أصحاب كتب التراجم عنه أو إسقاط ترجمته ـ فى عصور لاحقة ـ من النسخ المخطوطة للكتب التى ترجمت له ومما يؤكد ذلك أن الذين ترجموا له كياقوت وابن حجر والذهبى شككوا فيه واتهموه (بالاعتزال والتشيع) على حد تعبير ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان وإن كانوا قد أجمعوا على نسبة كتاب الفهرست إليه[١٢].

ومع أن الكتاب قد نشر باسم الفهرست[١٣] إلا أن ياقوت الحموى ذكره فى معجمه على أنه «فهرست الكتب»[١٤] وأطلق عليه ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان «فهرست العلماء»[١٥] وذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون باسم «فهرس العلوم»[١٦] أما إسماعيل البغدادى فى هدية العارفين فيسميه «فوز العلوم» ويعرفه بأنه كتاب الفهرسة فى الأخبار والتراجم وأنواع الفنون[١٧]

وأكبر الظن أن إسماعيل البغدادى قد حرف الاسم الوارد فى كشف الظنون من فهرس العلوم إلى فوز العلوم[١٨].

ولقد طبع الكتاب عدة مرات، الأولى صدرت فى ليبزج سنة ١٨٧١– ١٨٧٢ فى جزءين بتحقيق المستشرق الألمانى جوستاف فلرجل مع تعليقات لروجر

قائمة المحتويات

القسم الأول: التراث العربى

المحاضرة الأولى

التعريف بالتراث العربى الإسلامى

المحاضرة الثانية

أهمية التراث

المحاضرة الثالثة

منهج التراث العربى الإسلامى

القسم الثاني : مصادر التراث العربي

المحاضرة الرابعة

الموسوعات

المحاضرة الخامسة

المعاجم العربية

المحاضرة السادسة

معاجم التراجم العربية

المحاضرة السابعة

المراجع الجغرافية العربية